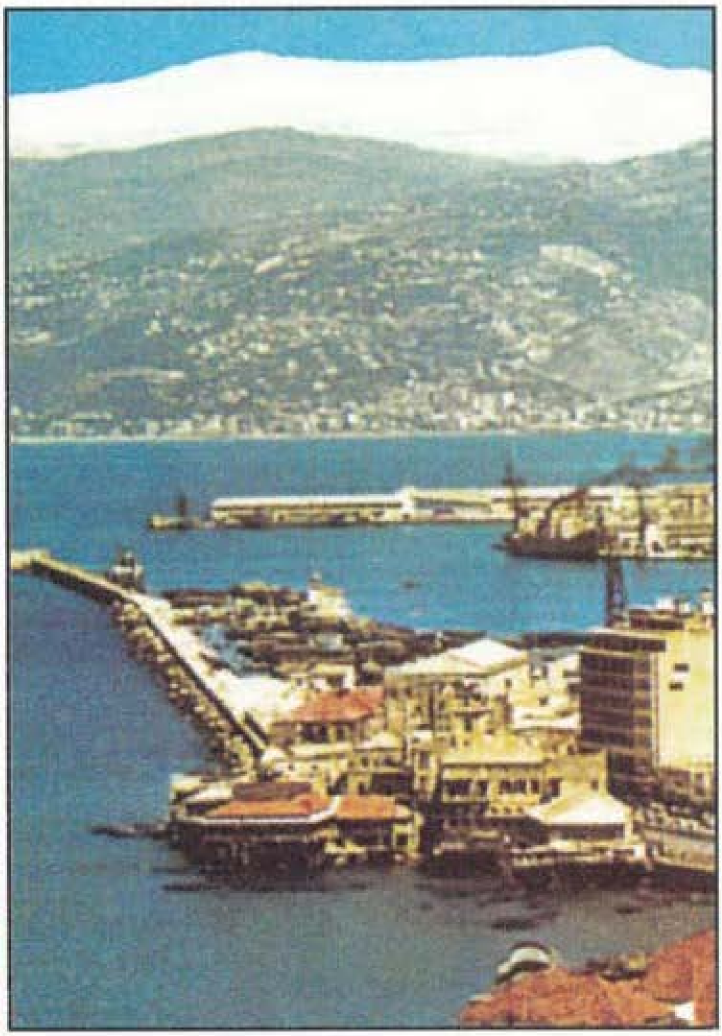
أمين معلوف

موانىء المشرق



ترجمة:
نهلة بيضون

الفارابي

أمين معلوف

موانئ المشرق

ترجمة: نهلة بيضون

موانئ المشرق

AMIN MAALOUF

LES ÉCHELLES DU LEVANT

roman

BERNARD GRASSET
PARIS

الكتاب موانئ المشرق

التأليف امين معلوف

ترجمة نهلة بيضون

تصميم الغلاف والاخراج فارس غصوب

الناشر دار الفارابي- بيروت- لبنان

ص.ب. ١١/٣١٨١-ت:٣٠١٤٦١-فاكس:

التنضيد شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل.

الطبعة الأولى ١٩٩٨

إلى أوديل كاي

هذه القصة ليست ملكاً لي ، فهي تسرد حياة رجلٍ آخر ، وبكلماته التي قمتُ فقط بترتيبها عندما بدت لي أنها تفتقر إلى الوضوح أو التسلسل المنطقي ، وبحقائقه التي تستوي مع كل الحقائق.

هل كذب عليَّ أحياناً ؟ أجهل ذلك . ولكنه لم يكذب بشأنها في كل الأحوال ، لم يكذب بشأن المرأة التي أحبَّ و بشأن لقاءاتهما وضياعهما ومعتقداتهما وخيباتهما ؛ ولديَّ الدليل القاطع على ذلك . ربما أخفى عليَّ بعض الأمور ، وتكتَّم حول دوافعه الشخصية في كلِّ مرحلةٍ من مراحل حياته ، حول حياته ، وعائلته التي قلَّ نظيرها، وذاك الدفق الغريب الذي يتسم به عقله – أي حركة المدِّ والجزر التي تتجاذبه على الدوام بين الجنون والتعقُّل .

غير أنني أعتقد أنه حسن النية . قد تخونه الذاكرة دون شكٍّ ويتأثر حكمه ، أقرُّ بذلك ، ولكنَّه بقي حسن النية على الدوام .

لمحته في باريس ، بمحض الصدفة ، في إحدى عربات المترو ، في شهر حزيران ١٩٧٦ . وأذكر أنني همست : " إنه هو ! " . ولم يتطلب الأمر أكثر من ثوانٍ معدودة لأتعرف إلى هويته .

لم أكن قد التقيتُ به أبداً حتى الساعة ولا سمعتُ باسمه . رأيت له صورةً في كتابٍ قبل أعوام . لم يكن شخصية مشهورة ، أو ربما كان بهذا القدر أو ذاك ، لأن صورته موجودة في كتاب التاريخ المدرسي . غير أنها صورة لرجلٍ عظيمٍ تحمل اسمه . كانت تلك الصورة تظهر حشداً من الناس على رصيف المرفأ ، وفي الخلف باخرة تسدُّ الأفق ما

عدا رقعة صغيرة من السماء ؛ ويقول التعليق المرافق للصورة إن بعض الرجال من الوطن رحلوا إلى أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية للإنخراط في صفوف المقاومة واستقبلوا لدى عودتهم كالأبطال .

وفي الواقع ، كان هنالك ، وسط الحشد على رصيف المرفأ ، رأس شاب منبهر الأسارير ، شعره فاتح اللون وملامح أسيلة وطفولية بعض الشيء ، وعنقه مائل قليلاً كما لو أنه حصل لتوه على الإكليل الذي يزين صدره .

كم من الساعات أمضيت وأنا أتأمل هذه الصورة ! في المدرسة، درسنا في أربعة صفوفٍ متعاقبة في كتاب التاريخ نفسه ؛ وكان من المقرَّر أن ندرس كل عام دراسي حقبة تاريخية معينة . نبدأ أولاً بالحضارات القديمة العظيمة ، من المدن الفينيقية حتى فتوحات الاسكندر ، ثم ننتقل إلى الرومان والبيزنطيين والعرب والصليبيين والمماليك ، تليهم أربعة قرونٍ من الحكم العثماني ، وأخيراً الحربين العالميتين والانتداب الفرنسي فعهد الاستقلال . .. وكنت لا أملك الصبر الكافي لانتظار تسلسل المنهاج ، إذ كنت شغوفاً بالتاريخ . ومنذ الأسابيع الأولى ، أكون قد قرأت الكتاب بأكمله ، وأروح أعيد قراءته ، دون كللٍ أو ملل ، حتى غدت صفحاته ، الواحدة بعد الأخرى ، مطويةً ، مجعَّدةً ، مقطوعة الزوايا ، كثيرة التسطير ، ملطَّخة بخربشاتٍ وملاحظاتٍ وعلامات تعجبٍ على شكل تعليقات ، فلا يبق من الكتاب في النهاية سوى كتلة رثّة من الأوراق الممزّقة .

كان لديَّ متسع من الوقت لأتأمَّل هذه الصورة ، وأحفر كل تفاصيلها في ذاكرتي . ما الذي سحرني فيها ؟ لا شك أن هذا المستطيل الأبيض والأسود الذي لم يكن أكبر من راحة يدي احتضنَ كلَّ ما كنت

أحلم به في ذلك الوقت : الإبحار والمغامرة والتفاني الأخير والمجد ؛ وقد يكون ، أكثر من كلّ ذلك ، مشهد هؤلاء الفتيات بوجوههن الرانية نحو الإله المنتصر ...

أما في هذه اللحظة ، فالإله ماثل أمام ناظريَّ في مقصورة المترو ، متمسكاً بعمودٍ معدني ، شخص مجهول محاط بحشدٍ من الأشخاص المجهولين . ولكنه لا يزال يحمل تلك النظرة المنبهرة ، تلك الملامح الرقيقة لطفلٍ قد شاخ ، ذلك الرأس الذي غزاه المشيب اليوم ، وكان ربما أشقر بالأمس ، ودائماً ذلك العنق المشرئب المائل ، فكيف لا أعرفه ؟

عندما ترجّل في محطة " فولتير " ، اقتفيت أثره . كنت ذاهباً إلى موعدٍ في ذلك النهار ، غير أنني حسمتُ أمري ، فالشخص الذي سألتقيه يمكن أن أتصل به في المساء أو في اليوم التالي ؛ أما هو ، فإذا ضللتُ أثره ، كنت على يقينٍ أنني لن أراه مجدَّداً إلى الأبد .

وإذ همَّ بمغادرة المحطة ، توقف أمام خارطة الحي . اقترب منها حتى كاد يلتصق بها ، ثم تراجع باحثاً عن أقصر طريق . كانت عيناه لا تسعفانه فانتهزت الفرصة ودنوت منه.

– ربما أستطيع مساعدتك ...

خاطبته بلكنة الوطن التي تعرّفَ عليها من ثلاث كلمات ترحيبٍ وابتسامة سمحة ، أعقبها تعبير من التعجب والحيرة . ولمحت على وجهه بعض الريبة ولا أعتقد أنني كنت مخطئاً . رأيت ريبةً دونما شكٍ ، ولمحت أيضاً شيئاً من الخوف والخجل ، خوف رجلٍ يتساءل ما إذا كان يتعرّض للملاحقة ، ولكنه غير متأكد ويأبى أن يبدو فظاً أو خشناً دون سبب .

ـ وقال لي : " أبحث عن شارع من المفترض أن يكون قريباً ، ويحمل اسم"هوبير هوغ " . وسرعان ما وجدت الشارع على الخارطة .

– ها هو . لقد اكتفوا بكتابة الحرف الأول من الاسم ، وبحروف غير مقروءة ...

– شكراً للطفك ! شكراً لأنك ألقيت اللوم على من رسموا الخارطة بدلاً من عينيَّ الهرمتين !

كان يتحدَّث برقة وتؤدة ، كما لو آل على نفسه أن ينفض الغبار عن كل كلمة قبل التفوّه بها . غير أن جمله كانت دائماً صحيحةً ، منتقاة بعناية ، دون حذفٍ أو اختصار ، دون عبارات سوقية ، بل كانت مفرداته أحياناً متقادمة ومهجورة كما لو أنه اعتاد مخاطبة الكتب أكثر من بني جنسه .

– في الماضي ، كنت أستهدي غريزياً حتى دون النظر إلى رسمٍ أو خارطة ...

– ليس الشارع بعيداً . أستطيع أن أقودك إليه فأنا أعرف الحي .

رجاني ألا أفعل ، ولكن رجاءه كان من قبيل التهذيب فحسب . ألححت عليه ، وخلال ثلاث دقائق ، كنا قد وصلنا . توقف عند زاوية الشارع ، وإذ جال بعينيه في أرجائه ببطء ، قال بنبرةٍ يشوبها الازدراء :

– إنه شارع صغير . إنه صغير فعلاً ، ولكنه شارع بالرغم من كل شيء .

أضفتْ هذه الملاحظة التافهة عليه مسحةً من غرابة الأطوار .

– عن أيِّ عنوان تبحث ؟

قدَّمتُ له ، أوليس كذلك ، فرصة سانحةً للإدلاء بإجابة منطقية لكنه لم يتلقَّفها .

- لا أبحث عن عنوان محدَّد . أتيت فقط لأرى الشارع . سوف أذرعه رواحاً ثم مجيئاً على الرصيف المقابل. ولكنني لا أريد أن أستبقيك، فلديك مشاغلك ، شكراً لمرافقتي إلى هنا !

كنت قد وصلت إلى حدٍّ لم أشأ معه أن أنصرف بكل بساطة . كنت بحاجة لأن أفهم . ولم تقلِّل من فضولي غرابة الأطوار التي بدرت من الرجل . قرَّرت أن أتجاهل ما قاله وأعتبره من قبيل الكياسة مرة أخرى .

- لا بدَّ أن لديك ذكريات في هذا الشارع !

- لا ، لم يسبق لي أن زرته أبداً من قبل .

كنا نمشي من جديد جنباً إلى جنب ، أنا أختلس إليه نظرات متلاحقة ، وهو ينظر حواليه ويتأمل المباني.

- هذه الأعمدة تنم عن فن راسخ وأصيل .إنه شارع برجوازي جميل ، ضيق بعض الشيء ... لا ريب أن الطبقات السفلى معتمة ماعدا تلك المطلة على الطريق .

- أنت مهندس معماري !

انطلقت ملاحظتي بغتةً وكأنها جواب على أحجية . قلتها بنبرة تساؤل حتى لا توحي بتجاوز حدود الكلفة واللياقة .

- لا ، أبداً .

كنا قد وصلنا إلى طرف الشارع ، فتوقف ورفع ناظريه لقراءة اللوحة البيضاء والزرقاء ، ثم أخفضهما بخشوعٍ ؛ وتلاقت يداه المتهدلتان، وتشابكت الأصابع على نحو غريب كما لو أنها تمسك بقبعة وهمية .

وقفت خلفه .

" شارع هوبير هوغ

مقاوم

" ١٩٤٤ - ١٩١٩

انتظرت حتى انقضت لحظة الخشوع والتفتَ نحوي لأسأله بصوت خجول كما يتهامس الناس في مأتم :

- هل عَرَفْتَهُ؟

أسرَّ لي بالنبرة نفسها :

- إسمه لا يعني لي شيئاً .

وإذ لم يكترث لحيرتي ، أخرج من جيبه مفكِّرةً ودوَّن بعض الملاحظات المقتضبة قبل أن يردف قائلاً :

" لقد أكَّدوا لي أنه يوجد في باريس تسعة وثلاثون شارعاً أو جادةً أو ساحةً تحمل أسماء مقاومين . زرت منها واحداً وعشرين قبل هذا الشارع ، وبقي سبعة عشر أو ستة عشر إذا استثنيت ساحة شارل ديغول التي عبرتها فيما مضى عندما كان اسمها ساحة النجمة ... " .

- وهل تنوي زيارتها كلها ؟

- خلال أربعة أيام ، لديَّ متسع من الوقت .

لماذا أربعة أيام ؟ لم أجد لذلك سوى تبرير واحد :

- ومن ثمَّ ، تعود إلى بلادك ؟

- لا أعتقد ...

بدا فجأة ساهماً في بحرٍ من الأفكار ، نائياً عني وعن شارع هوبير هوغ . هل أخطأتُ إذ ذكرتُ له الوطن والعودة ؟

ولكن قد يكون الحديث عن هذه " الأيام الأربعة" هو الذي جعله ساهماً متأملاً .

لم أعد قادراً على اقتحام روحه أكثر ممّا فعلت ، ولذا فضلت تغيير الحديث .

- لم تعرف إذن هوبير هوغ ، ولكنك لست مهتماً بالمقاومة بمحض الصدفة ...

لم يجب على الفور ، وجاءت صحوته متأخرة .

- ماذا قلت ؟

اضطررت لتكرار ملاحظتي .

- هذا صحيح ، كنت قد سافرت إلى فرنسا لمتابعة دراستي خلال الحرب ، وعرفت بعض رجال المقاومة .

كدت أذكر له الصورة وكتاب التاريخ المدرسي ...وسرعان ما عدلت عن الفكرة ، فقد يفهم أنني أتعقبه عن سابق ترصد ، ويفترض أنني أراقبه منذ أيام وأضمر له الشر ... لا ، من الأفضل التجاهل .

- لا ريب أنك فقدت بعض الأصدقاء ، في تلك السنوات ...

- بعضاً منهم ، في الواقع .

- ألم تحمل السلاح شخصياً ؟

- لا .

- فضّلتَ إذن الانصراف إلى دراستك ...

- ليس بالضبط ... وجدت نفسي أعمل في المقاومة السرية بدوري ، وعلى غرار الجميع .

- لم يكن الجميع يعمل في المقاومة السرية في ذلك الوقت . تبدو لي شديد التواضع .

اعتقدت أنه سوف يختج ، لكنه لم ينبس ببنت شفة . وكرّرت على مسمعه : " تبدو لي بالفعل شديد التواضع!" بنبرة مرحة كما لو أن

الأمر يتعلق برأي قاطع أكثر من كونه تساؤلاً . وقد نجحت هذه الخدعة الصحافية القديمة لأنه أصبح ثرثاراً فجأةً ، وإن ظلّت جمله بطيئةً فهي لم تكن أقلَّ توهجاً .

- لا أقول لك سوى الحقيقة ! انخرطت في المقاومة السرية على غرار الآلاف غيري . لم أكن أكثرهم شباباً ولا أكبرهم سناً ولا أكثرهم سعادةً أو بطولةً . لم أحقق أيَّ إنجاز يذكر ...

كان ، بكلماته وحركاته الأنيقة ، يبدو ساخطاً دون أن يظهر أيَّ عداءٍ للمحدِّث اللجوج الذي كنت .

- ماذا كنت تدرس ؟

- الطب .

- ثم تابعت دراستك ، لا شك ، بعد الحرب .

- لا .

كانت لاؤه جافةً . لقد حرَّكتُ شيئاً في سريرة هذا الرجل . واستسلم لأفكاره قبل أن يقول لي :

- لا بدَّ أن لديك الكثير من المشاغل . لا أريد أن أستبقيك ...

كان يصرفني بتهذيب ؛ لا ريب أنني لمست لديه موجعاً ، ولكنني لم أستسلم :

- لقد تملكّني منذ ثلاثة أعوام شغف حقيقي بهذه الحقبة ، حقبة الحرب العالمية الثانية والمقاومة ... التهمت عشرات الكتب حول هذا الموضوع . لا أدري كيف أعبِّر لك كل ما يمثِّله بالنسبة إليَّ مجرَّد الحديث مع رجلٍ عايش كلَّ أحداثها !

لم أكن أكذب ، وشعرت في نظرته أنني قد طمأنت تحفظَّه بعض الشيء .

وأضاف : " لو تعرف ، أنا أشبه بنهرٍ بقي حبيساً دهراً من الزمن، وما أن تنفتح ثغرةٌ أمامي ، سوف أتكلم دون توقف لا سيما وأن لا شيء أفعله في الأيام القادمة ..."

– ما عدا زيارة الشوارع الستة عشر أو السبعة عشر الباقية ...

فضحك :

– هذا ما أقوم به لملء نهاراتي ، بانتظار أن ...

شعرت من جديد بالرغبة في سؤاله ماذا ينتظر ، ولكنني خشيت أن يشرد تماماً ، فرأيت من الحكمة أن أقترح عليه الذهاب للجلوس في أحد المقاهي في الجادة المجاورة .

عندما جلسنا على رصيف المقهى أمام كأسين من الجعة قد غشيهما البخار البارد ، رحت أسأله عن دراسته التي لم يتابعها .

– غداة التحرير ، كنت في حالة من النشوة ، ولزمني بعض الوقت لأصحو من سكرتي ، الكثير من الوقت، ثم لم أعد أرغب بمتابعة دراستي .

– وأهلك ؟ ألم يصرُّوا على ذلك ؟

– أنا الذي أردت أن أدرس الطب ، أما والدي فكانت لديه مشاريع أخرى لي ، كان يريدني أن أصبح ...

وتوقف هنيهةً ، وربما تردَّد للمرة الأخيرة لأنه رمقني بنظرة طويلة كما لو أراد أن يسبر أغواري قبل أن يبوح لي بأسراره .

– كان والدي يريدني أن أصبح قائداً ثورياً عظيماً ...

لم أستطع أن أخفي ابتسامةً .

- أجل ، أعرف أنه في العائلات العادية ، يصر الأب على أن يدرس ابنه الطب ، في حين يحلم الابن بالثورة، ولكن عائلتي لم تكن عائلة " عادية" ...

- لا بدَّ أن والدك كان ، إذا فهمتك ، ثورياً من الطراز الأول .

- لا ريب أنه كان ليصف نفسه على هذا النحو . لنقلْ إنه كان بالأحرى متمرداً . لم يكن شرساً بل مرحاً يعشق الحياة ، غير أنه كان متمرِّداً في العمق .

- متمرِّداً ضد ماذا ؟

- ضد كل شيء ! القوانين والدين والأعراف والتقاليد والمال والسياسة والمدرسة...أمور لا تعد ولا تحصى . كان متمرِّداً ضد كل ما يتغير وكل ما لا يتغير ، ضد " الغباء والذوق السيء والعقول المتحجرة " كما كان يقول . كان يحلم بانقلابات عظيمة ...

- ما الذي حمله على اتخاذ هذا الموقف ؟

- يصعب القول . والحق يقال إنه عاش في سنواته الأولى بعض الظروف التي قامت بتأجيج جذوة مرارته...

- أفترض أنه ينتمي إلى وسطٍ محروم ...

- وسط فقير ، أهذا ما تعنيه ؟ لا ، لم تصبْ يا صديقي الشاب ، لم تصب أبداً فعائلتنا ...

وإذ لفظ هذه الكلمات ، غضَّ الطرف كما لو اعتراه الخجل ، غير أنني أعتقد أنه كان يريد بالأحرى إخفاء اعتزازه .

أجل ، عندما أعيد التفكير بالأمر اليوم ، يزداد اقتناعي بأنه كان يخجل من اعتزازه عندما قال لي :

- أنا أنتمي إلى أسرةٍ حكَمَتْ المشرق فترة طويلةً .

في ذلك اليوم ، تحدَّثنا وتحدَّثنا حتى ساعة متأخرة من الليل . في المقهى أوّلاً ، ثم خلال نزهة عبر المدينة المضاءة ، وأخيراً ، في المساء، أمام طاولة في إحدى الحانات بساحة الباستيل .

في أية لحظةٍ تحديداً خطر ببالي أن أجعله يسرد لي حياته كلها من البداية إلى النهاية ؟

منذ العبارات الأولى التي تبادلناها ، سحرني بأسلوبه في الإشارة إلى بعض الأحداث التي أراها عظيمةً ، وهو يوحي بأنه يريد أن يعتذر . شعرت بأنني استلطفت هذا التواضع الصادق استلطافاً جماً بقدر ما استعذبت هذه الهشاشة التي تُستشَّف في كلِّ ابتسامة ، وكذلك في نظرته التي تتوسَّل موافقتي وتقلق من حركات السأم النادرة التي تبدر مني ، وفي يديه اللتين تحومان بلا هوادة وتدوران دون انقطاع أو تتعانقان، يدين طويلتين ورقيقتين يخال للناظر إليهما أنهما لم تمارسا عملاً قط ، وأن صاحبهما لم يعرف بعد ما الجدوى منهما .

ليس بالضرورة أن أذكر كيف حصلت على موافقته ، فالحديث سيكون طويلاً ومضلِّلاً لأنني أعرف أنه عندما قبل بشروط اللعبة فذلك لسببٍ لا يمت بصلة إلى حججي أو سعة حيلتي .

ولتوضيح كلامي ، فإن هذا الأمر الخطير الذي يحتم عليه الانتظار أربعة أيام والذي لم أتجاسر الاستفسار عنه بعد ، هذا الأمر الذي كان يقضُّ مضجعه باستمرار ، لم يشأ التفكير به ولكنه ، في الوقت نفسه، كان عاجزاً عن التفكير بشيء آخر . كان الخوف من الاختلاء بنفسه ، وجهاً لوجه ، هو الذي حمله ، أكثر من الحنين ، على القيام بهذه الجولة

على الشوارع التي تحمل أسماء أبطال المقاومة . أما لقاؤنا فقد أتاح له أن يصرف انتباهه بصورة أكثر جدوى ، فسوف أستحوذ عليه طوال أيام الانتظار هذه ، وأقوم بزعزعته وإغاظته ومضايقته وأرغمُهُ على استحضار الماضي ساعةً تلو الساعة عوضاً عن اجترار المستقبل .

صباح الخميس

صادفته يوم أربعاء استناداً إلى الملاحظات التي قمت بتدوينها .
وفي اليوم التالي ، منذ الساعة التاسعة صباحاً ، كنا في الفندق ، في غرفته الضيقة إنما ذات السقف العالي والتي اكتست جدرانها بقماشٍ بلون العشب مبرقش بأزهار ياسمين مسطحة ، كان عشباً عمودياً غريباً ...
دعاني للجلوس في الأريكة الوحيدة في حين راح يذرع الغرفة رواحاً ومجيئاً .

وسألني : - بماذا تريد أن نستهل الحديث ؟

- الأفضل أن نبدأ من ا لبداية ، من ولادتك ...

تمشّى دقيقتين كاملتين بصمت ، ثم أجاب بسؤال :

- أواثق أنت أن حياة الإنسان تبدأ يوم ولادته ؟

لم يكن ينتظر جواباً بل كان سؤاله مجرَّد أسلوبٍ لبدء روايته ، فتركت له الكلام معاهداً نفسي على التدخل بأقل قدر ممكن .

وقال : " بدأت حياتي منذ نصف قرنٍ قبل ولادتي في غرفة لم أزرها قط على ضفاف البوسفور . وقعت مأساة ودوَّت صرخة وانتشرت موجة جنون لن يقدَّر لها أن تهدأ . لذا فعندما أبصرت النور ، كانت خطوط حياتي قد رسمت إلى حدّ كبيرٍ .

عاشت إسطمبول بعض الأحداث التي يراها من عاصرها خطرةً ونراها نحن تافهةً . فقد خُلع السلطان عن العرش وتسلَّم السلطة إبن أخيه... لقد حدَّثني والدي عشرين مرة عن الأمر ، ذاكراً الأسماء

والتواريخ ... وقد نسيت كل شيء تقريباً ، وما جدوى التذكر ، فوحدها تلك الصرخة ، وذاك العويل الذي أطلقته امرأة شابة في ذلك اليوم يكتسبان شيئاً من الأهمية بالنسبة إلى حكايتي .

حُكم على السلطان المخلوع أن يعيش في الإقامة الجبرية على مشارف العاصمة ، ومنع من الخروج أو من استقبال الزوار دون إذن مسبق ، وعاش بعيداً عن أهله باستثناء أربعة من الخدم المسنين الذين بقوا إلى جانبه . كان الرجل تائهاً وحزيناً ، ضائعاً ومسلوباً ، يعيش الفناء قبل الأوان . كان يبني أحلاماً عظيمةً للإمبراطورية ، أحلاماً حافلةً بالرقي واسترجاع الأمجاد الغابرة ويعتقد أنه محبوب من الجميع، ولا يفهم هذا الصمت الذي يطوّقه ، يجترُّ مرارته فهو لم يحسن اختيار أعوانه ، لقد أساؤا جميعهم نصحه واستغلوا كرمه ، نعم ، لقد خانه الجميع !

حبس نفسه في غرفته : " أعرف أن لا أحد يريد إطاعة أوامري، ولو سوّلت لأحدكم النفس بالدخول إلى غرفتي ، لخنقته بيديَّ ! " . وهكذا تركوه في خلوته طوال الليل وصبيحة اليوم التالي حتى ساعة الغداء ، ثم قرعوا بابه ، فلم يجب . ساور الجميع القلق ، ولكن من يجرؤ ويعصي أوامره ؟

تشاور الخدم ، واستقر الرأي على أن شخصاً واحداً في العالم يمكن أن يعصي أوامره دون أن يصبَّ عليه السلطان جام غضبه ، وهذا الشخص هو ابنته الأثيرة ، إيفيت . كان الاثنان يتبادلان أعمق آيات الحب، وهو لا يرفض لها طلباً ، فاستقدم لها مدرّسين علّموها عزف البيانو والغناء والفرنسية والألمانية . وكانت تجرؤ في حضرته على ارتداء الزي الإفرنجي الذي يأتيها من فيينا أو باريس . كانت وحدها قادرة على دخول مخدع السلطان المخلوع دون التفكير بمغبّة العواقب .

جاءت بعد أن حصلوا لها على إذن خاص من السلطات الجديدة .
حاولت في البدء أن تدير المقبض ، غير أن الباب ظـلَّ موصـداً . طلبـت من الذين رافقوها الابتعاد ونادت : " أبي ، هذه أنا إيفيت ، أنـا وحـدي" . أمرت الحارسين أن يفتحا الباب عنوةً ، مقسـمةً لهمـا أنهـا وحدهـا تتحمـل المسؤولية ، فراح كتفان قويان يدفعان البـاب بعـزمٍ حتـى انخلـع ، وهـرب الرجلان دون أن يسترقا ولو نظرةً واحدةً داخل الغرفة .

دخلت الإبنـة وكررَّت نداءهـا : " أبـي ! " . خطـت خطوتيـن ، وعندئذٍ ، أطلقت تلك الصرخـة المدوِّيـة التـي تـردَّد صداهـا فـي الغرفـة والرواق والأبهية وشـوارع اسطمبول ثم الامبراطوريـة بكاملها وتجـاوز الحدود ليصل إلى وزارات الخارجية في الدول العظمى .

كان السلطان المخلوع مقطـوع الشـرايين ، أسـود النحـر ، غارقـاً في دمائه .

هل كان انتحاراً ؟ ربما . وقد يكون اغتيالاً ذلـك أن بعـض القتلـة المأجورين ربما تسللوا عبر الحدائق . ظلَّت الشكوك تحـوم حـول الحـادث ولم تعرف الحقيقة أبداً . وفي كل الأحوال ، لم تعد المسألة ذات أهميـة إلا لبعض المؤرخين ...

بقيت إيفيت مكانها ، مسمَّرة من هول المشهد ، وأعقب صرختها ما يشبه اللهاث ، وفي عينيها ، كان ذلك الرعـب مـاثلاً بعد مـرور سنينٍ على وقوع الفاجعة .

بعد أسابيع الحداد الأولى ، وبما أنها ظلت تهيم في الأروقة ، حاملةً النظرة نفسها واللهاث عينه ، تبيَّن أن حالتها لم تعد حالة المحزون الذي يتفجَّع على شخص عزيز رحل ؛ لقد فقدت إيفيت صوابها ، إيفيت ، الإبنة الحبيبة والطفلة المدلَّلة ، المرحة والأنيقة ، وربما إلى الأبد .

لم تملك والدتها خياراً آخر سوى الاستنجاد بالطبيب العجوز كتبدار المتحدِّر من عائلة مثقفين فارسية الأصل ، وكان هو الذي يعتني ، في قصور اسطمبول ، بالذين تلوح على وجوههم علامات الخبل والاستلاب، وكان اللجوء إليه أصلاً اعترافاً باليأس .

كان الطبيب يعرف المريضة فقد التقى بها قبل ستة أشهر في ظروف مختلفة تماماً . فقد قدم لمعالجة خادمة أصيبت بنوبة هستيريا ، عندما سمع الأميرة تعزف على البيانو لحن فالس . توقف ليصغي إلى عزفها قرب الباب . وحين توقفت ، قال لها بعض كلمات التشجيع بالفرنسية ، فأجابته بابتسامة . وتبادلا الكلام قليلاً ثم انصرف الرجل العجوز مبتهجاً . لم ينسَ ذلك اللقاء قط ، ولا تلك الموسيقى ، أو هاتين اليدين الناعمتين وذاك الوجه وتلك النبرة .

وعندما دخل من جديد في ذلك النهار القاعة التي يوجد فيها البيانو ورأى الفتاة تذرع الغرفة رواحاً ومجيئاً بخطى محمومة وسمعها تصدر حشرجات مسعورة ، وقد هامت نظراتها وتشنجت أصابعها ، لم يقدر أن يحبس دموعه . ولمحت والدة إيفيت تأثره فراحت تنتحب . لام نفسه ورجاها أن تغفر له فواجبه التهوين على أهل مرضاه لا زيادة مصابهم .

وسألته الوالدة : " وماذا لو أخذتُها بعيداً عن اسطمبول؟ إلى مونترو مثلاً ..." . فأجابها الطبيب متأسفاً أن السفر لن يعيدها إلى رشدها،

ولئن كان من الضروري بالتأكيد الترويح عنها وإبعادها عن كل ما يذكِّرها بالفاجعة ، فالرحيل لا يكفي . وفي الوضع الذي هي عليه ، يجب أن يتابعها باستمرار أشخاص مؤهلون . ضمَّت الأم يديها على صدرها : " لن أحجر على ابنتي أبداً في مصحٍّ ! أفضِّل الموت على هذا الحل ! ". فوعدها الطبيب بالتفكير باقتراحٍ أفضل .

وإذ قفل الطبيب كتبدار عائداً إلى منزله في ذلك المساء ، في عربته ، عبر أزقة "غالاتا" الصاخبة ، متأثراً وشبه نائم ، راح يحلم بحلٍّ جنونيٍّ . ومع ذلك ، فقد عاد في اليوم التالي ليعرضه على والدة إيفيت : فبما أن وضع ابنتها يحتاج إلى رعاية دائمة لسنوات طويلة ، وأن حجرها في مصحٍّ أمر مرفوض ، فقد فكر باصطحابها إلى أضنة ، في جنوب الأناضول ، حيث يملك داراً . وهناك يكرّس حياته لها ليلاً نهاراً ، شهراً تلو الشهر ، سنة بعد سنة ، وتكون هي مريضته الوحيدة ؛ وشيئاً فشيئاً ، تستعيد صوابها بمشيئة الله .

رعايتها ليلاً نهاراً ، سنة بعد سنة ؟ وفي داره ؟ لو قدَّم الطبيب هذا العرض في ظروف أخرى لاعتبرته الأم ضرباً من الجسارة والوقاحة، ولكنَّ ما لم يقله صراحةً ، بالرغم من التلميح الواضح ، هو أن الطبيب الأرمل يفكِّر باتخاذ إيفيت زوجةً له . وكما قلت ، كان الأمر ليبدو مستحيلاً في ظروف أخرى ، أما في الظروف الراهنة ، فلم يعد أحدٌ يفكِّر بتزويج الإبنة المعتوهة للسلطان المخلوع إلى أحد عليَّة القوم الذين كانوا يطمعون فيما مضى بالحصول على هذا الشرف . فرضخت الأم للأمر الواقع ، وبدلاً من أن تترك ابنتها تحجر في مصحٍّ حتى توافيها المنية ،

رأت أنه من الأفضل وضعها في عهدة هذا الرجل الجليل الذي يبدو أنه يحبها وسوف يرعاها ويحميها من العار والفضيحة .

كانا زوجين غريبين ، أو ليس كذلك ؟ زوج عجوز هو قبل كل شيء طبيب معالج ، وزوجة شابة مسلوبة راح يحيطها برعايته وحبه ، ولكنها تمضي أحياناً أياماً بطولها تئن أو تعول دون سبب أمام الخدم الذين كان بعضهم يتضجَّر منها والبعض الآخر يشفق عليها .

لم يكن هناك أدنى شك أن الأمر يتعلَّق بزواج صوري غايته الوحيدة عدم الإخلال باللياقات بسبب عيش رجل وامرأة تحت سقف واحد بمنأى عن العيون . كان زواجاً مدبَّراً ، وبالتالي ، زواجاً شكلياً أو زواج مسايرة، أي باختصار تضحية وتفاني وإحسان من جانب الطبيب العجوز.

ولكن إيفيت حملتْ في أحد الأيام .

هل كانت لحظة ضياع ؟ أم ثمرة علاج جريء ؟ كان التساؤل في محلِّه !

لو صدق ابن الزوجين الذي هو والدي ، فيجب اعتماد التبرير الثاني إذ كان للطبيب كتبدار نظرياته ، وقد أراد الإثبات أن امرأةً كزوجته ، فقدت صوابها إثر صدمةٍ ، تستطيع استرجاع وعيها بصدمة أخرى عن طريق الحمل والأمومة ... ولا سيما الوضع ، فتأتي صدمة الحياة القوية لتعوِّض عن صدمة الموت الصاعقة ، ويمَّحى الدم بالدم . كانت نظريات ... مجرَّد نظريات .

ذلك أننا نستطيع أن نفكِّر عكس ذلك أيضاً ، فكيف للزوج الطبيب الذي لا يفارق زوجته ، ويلبسها ثيابها ويخلعها عنها ، ويحمِّمها كل مساء، وهي المرأة الشابة والجميلة التي يعشقها بكل جوارحه ، لدرجة أنه كرَّس

لها كل لحظة من حياته ، كيف له أن يتأملها دون أن تجرفه عاطفته الجيَّاشة ؟ وكيف يتلمَّس جسدها الأسيل ويرمقه بعينيه دون أن تتأجج في أعماقه الرغبة المشبوبة ؟

ويجب القول إنها لم تكن دوماً في حالة هيجان واضطراب ، بل تُظهرُ بين الحين والآخر علامات الوعي . لم يكن وعياً حقيقياً ! فقد عرفتُها في أواخر حياتها وراقبتُ تصرفاتها . لم تكن أبداً واعيةً بحيث تدرك حالتها ، وذلك أفضل لها لأنها سوف تتعذَّب عذاباً مريراً . غير أنها كانت تمر بساعات طويلة من الهدوء والسكينة ، لا تعول فيها ولا تئن وتبدي خلالها حناناً جارفاً لكل الذين يحيطون بها .

وفي بعض الأحيان ، كانت تغنِّي بصوتٍ مرتعشٍ ولكنه شجيٌّ عن فتيات اسطمبول اللواتي يتنزهن على شواطىء ' أسكودير ' ، وتدندن أغنية أخرى ، مبهمة الكلمات ، تتحدَّث عن طرابزون والموت . عندما كانت جدتي تغنِّي ، كان المنزل كله يصمت للإصغاء إليها . كانت تستطيع أن تكون في منتهى الرقة والحنان بوجهها الصبوح ومشيتها التي ظلَّت رشيقةً حتى مماتها ، وأفهم أن زوجها رغب باحتضانها بين ذراعيه وأنها تكوَّرت على صدره ، وهي تضحك ضحكة طفلة عاقلة . ثم وضع الطبيب كتبدار النظريات الملائمة ليبرِّر لنفسه ما جرى ، بأصدق النوايا وأصفاها ...

قد يشكِّك البعض بعدم نجاعة هذه النظريات بما أن جدتي شاخت ولم تتماثل إلى الشفاء ! ولكن الأمور ليست بهذه البساطة ، فهي لم تتماثل للشفاء بالضبط ولم تحدث تلك الصدمة المنقذة ، غير أنها كانت أماً رؤوماً لابنها . وعندما عاشت معنا لاحقاً تحت سقف واحد ، لم نشعر قط أن حضورها يشكل عبئاً ثقيلاً . كانت النوبات التي تمر بها متباعدةً دون

نتائج مستدامة . ولئن لم تشفها الأمومة ، فهي لم تزد وضعها سوءاً بالتأكيد، ويبدو لي أنها أجدتها نفعاً ، غير أن قلةً من الناس كانوا مستعدين للنظر إلى الأمور من هذا المنطلق .

تعرَّض الطبيب العجوز للإنتقاد ... بل لحملة شعواء تمرَّغ فيها اسمه في الوحل ! كان سيلاً جارفاً من اللغط واللعنات والشتائم والنميمة . لا شك أن شرعية زواجه لا غبار عليها ، وأن لا أحد يسعه لوم هذا الرجل على إنجابه طفلاً من زوجته الشرعية ؛ ولكن لا أحد كان قادراً على عدم التفكير بأنه يوجد ، نظراً للظروف ، اتفاق معنوي ضمني ، وأن الطبيب كتبدار ، إذ جعل هذه المرأة التي فقدت صوابها تحمل منه ، فقد استغلها بطريقة أو بأخرى وتصرَّف تصرفاً شائناً خلافاً لكل الأخلاقيات الطبية ، وانساق وراء رغباته الحقيرة ...

وعندما حاول ، دفاعاً عن نفسه ، عرض نظرياته الغريبة ، لم ينجح سوى في فقدان المزيد من هيبته واحترام الآخرين ، فانبرى أعداؤه يقولون : ماذا؟ هل استغلَّ زوجته واستعملها كفأر مخبر ؟

وإذ تألم الطبيب العجوز من العداء الذي حاصره من كل جانب عشية حياة مثالية لم تشبها شائبة ، تملكّه الشعور بأنه أذنب وخان المهمة التي أخذها على عاتقه وهوى إلى الحضيض .

ولم يعد أحد من زملائه أو من أفراد " العائلة النبيلة" ، أو أحد أعيان أضنة يقبل أن يطأ عتبة داره . كان والدي يقول لي : " صاروا يعاملوننا وكأننا مصابون بالطاعون ! " .

ويقهقه عالياً !

لم أعرف دارنا في أضنة ولم أرها مطلقاً ، ولكنها كانت موجودةً في بداية حياتي وأعتقد أنها أثَّرت بي على غرار الدور التي قطنتها .

كانت داراً منتصبةً في وسط المدينة ، وفي نفس الوقت ، نائية عن الأنظار ، لها أسوار شاهقة وحديقة من الأشجار الكثيفة ، مشيدةً من حجر رملي يتوهَّج تحت المطر ويكتسي ، في الجفاف ، غباراً ترابياً ناعماً . كان الناس يمرون قربها متظاهرين بعدم رؤيتها . ولا ريب أنها تمثل بالنسبة إليهم مرتعاً للمخاوف الغامضة ، وهي مخاوف مرتبطة بأية دارٍ تملكها العائلة الحاكمة ، ومخاوف متعلِّقة بالجنون الذي يسكنها ، وبالطبيب كتبدار الذي راحت الشائعات تنسب إليه ممارسات غيبية وسرية.

في مثل هذه الدار ، وفي أحضان هذين الزوجين ، كان الطفل شيئاً نافراً يزيد الوضع شذوذاً، فقد وُجد خلافاً للطبيعة بعض الشيء ، ولم يكن هبة من السماء بقدر ما كان ثمرة التعاطي مع الجحيم .

كان الطفل ، أي والدي ، قلَّما يخرج . لم يذهب إلى المدرسة قط. وقد حظي كغيره من الأطفال المتحدِّرين من السلالة العثمانية بالامتياز الذي يقضي بأن تأتي إليه المدرسة . في سنواته الأولى ، حصل على مدرِّس خاص ، ثم مدرِّسين للمواد المختلفة . لم يكن يستقبل أطفالاً من سنه ، ولا يزور أياً منهم ، لم يكن لديه أصدقاء ولا رفاق باستثناء مدرِّسيه الذين لم يكونوا أناساً عاديين . فالأشخاص الذين قبلوا المجيء كل يوم إلى البيت " المسعور " كانوا بمعظمهم يعيشون على هامش لياقات العصر . فمدرِّس اللغة التركية كان إماماً تخلى عن جبته وعمامته ، ومدرِّس

العربية يهودياً من حلب طردته عائلته ، ومدرِّس الفرنسية بولندياً ، حطت به عصا الترحال ، والله وحده عليم ، في هذه المدينة الأناضولية ، واسمه "واسا" ، وهو لا ريب تصغير لاسمٍ أطول بثلاث مرات ...

طالما كان الطبيب كتبدار على قيد الحياة ، كان المدرِّسون يكتفون بالتعليم في ساعات محدَّدة ، لا يسمح لهم بأي تأخير ، ولا يستحبُّ منهم أي اندفاع ، يمتثلون إلى أوامره ويعلمونه بتقدُّم تلميذه أوَّلاً بأولٍ ، ويأتون كل يوم جمعة في زيارة مجاملة لقبض أتعابهم .

وبعد موت الطبيب العجوز ، فلت زمام الأمور و تراخى هذا النظام الصارم . كا ن والدي قد بلغ السادسة عشرة ولم يعد أحدٌ قادراً على كبح جماحه . فراحت ساعات الدراسة تمتد في نقاشات لا تنتهي ، وغالباً ما يدعى المدرِّسون للبقاء على الغداء أو العشاء كلهم معاً . وتألف بلاط صغير حول التلميذ الشاب .كانت الأحاديث تدور حول شتى الموضوعات ، ولا يستحبُّ فيها الإدلاء بآراء شائعة ، والتغني بلا سبب بفضائل السلالة الحاكمة أو الحديث عن محاسن الإيمان .

كانت داراً للكلمة الحرَّة ، على غرار ما كان معروفاً آنذاك في كافة مدن الامبراطورية . ولا يعني ذلك أن دارنا في أضنة كانت وكراً للمؤامرات والدسائس ، فالحذر كان يقتضي البقاء بمنأى عن السياسة ، والمجموعة تتضمن الكثير من الأجانب ، والأقليات بشكل خاص - أرمن ويونان ...- وأي هجوم على السلطات العثمانية قد يسبِّب لهم الحرج . وكانت النقاشات السياسية تقتصر على النساء اللواتي يطالبن بحق الاقتراع وإلزامية التعليم والحرب الروسية - اليابانية أو بعض الثورات النائية في المكسيك وبلاد فارس وإسبانيا أو الصين . كان الجميع مولعين بأمور أخرى ، بالاكتشافات والتقنيات الحديثة ، والتصوير الفوتوغرافي يتبوأ

مركز الصدارة . وعندما تقرّر في أحد الأيام ، وفي خضّم النقاش ، إطلاق إسمٍ على هذا المحفل ، لم يتردّد الحضور في تسميته " نادي التصوير الفوتوغرافي" .

وبما أن والدي كان وحده يملك الإمكانات المادية لتمويل هذا الشغف ، فقد استقدم من لايبزيغ – على ما أعتقد – أحدث آلة تصوير وكتيِّبات لتعليم تقنياتها . وقد حاول العديد من أعضاء النادي تعلّم هذا الفن ، وكان أكثرهم موهبةً أستاذ العلوم ، نوبار الأرمني . وكان أيضاً أصغر المدرّسين سناً ، إذ يكبر بست أو سبع سنوات تلميذه ، وقد نشأت بين الاثنين صداقة متينة دامت مدى الحياة .

كانت هذه العلاقة الوطيدة بين تركي وأرمني غير مألوفة كثيراً آنذاك ، وأكاد أقول إنها " خارج الزمن" بل وتحوم حولها الشبهات كذلك. لقد حافظ الأتراك والأرمن على علاقات عمل ولياقات اجتماعية واحترام متبادل ، أما الصداقة الحقيقية والإنسجام العميق فهذا ما لم تشهده تلك الفترة ، فالعلاقات بين الطائفتين كانت تتدهور تدهوراً سريعاً ، وفي أضنة أكثر من غيرها من المدن .

ولكن ما كان يجري خارج أسوار دار كتبدار لم يكن له تأثير على ما يحدث داخلها ، بل وربما انقلبت فيها الآية ، ذلك أن صداقة حقيقية ، صداقة أخوية بين تركي وأرمني صارت عملةً نادرةً ، ولذا فقد كان الشابان حريصين أشد الحرص عليها ؛ وفي حين راح الكثيرون يعلنون تمايزهم جهاراً ، كان الإثنان لا يطالبان بتمايز غير الصداقة التي تجمعهما ويقسمان أغلظ الأيمان ، وبإجلالٍ فيه شيء من السذاجة ، أن لا شيء سوف يبعدهما الواحد عن الآخر ، وأن لا عمل سوف يحملهما على التخلي عن شغفهما المشترك ، أي فن التصوير.

في بعض الأحيان ، وخلال اجتماعات النادي ، كانت جدتي تترك غرفتها وتجلس معهم ، فيمضون في نقاشاتهم وينظرون إليها بين الحين والآخر ؛ وكانت هي تنظر إليهم بدورها وتبدو أنها تصغي باهتمامٍ إلى أحاديثهم ، وتتحرّك شفتاها ، ثم ، ودون سبب ظاهر ، تنهض وسط جملةٍ وتعود إلى غرفتها .

وفي أحيان أخرى ، كانت تبدو مضطربة ، تطلق صرخات في غرفتها ، فينهض ابنها ويذهب إليها لرعايتها كما علّمه والده أن يفعل . وما أن تستعيد هدوءها حتى يعود إلى صحبه الذين يستأنفون الحديث حيث انقطع .

وبالرغم من هذه المأساة ، عرفت دارنا آنذاك بعض السنوات السعيدة . وهذا هو الانطباع الذي توحي به بالتأكيد الصور التي تعود إلى تلك الفترة ، وقد احتفظ والدي بالمئات منها ، تضمنتها حقيبة كاملة ، كَتَبَ عليها فخوراً بالحبر العريض : " نادي التصوير – أضنة " .

كان يعرض هذه الصور أحياناً على الأشخاص الذين يكنّ لهم المودة والتقدير ، مسهباً الحديث عن الظروف التي رافقت التقاط كل صورة ، والتقنيات المستعملة وخدع التأطير والإنارة . كان حديثه لا ينضب حول هذه المسائل كالبائع الجوّال ... لدرجة أن أحد زائريه الأجانب أساء فهم نواياه يوماً واعتقد أن مضيفه يريد أن يبيعه هذه الصور فعرض عليه سعراً ، وكاد والدي أن يطرده ، وراح الرجل المسكين يبكي من الخجل والإحراج .

بقيت كل هذه الصور في نهاية المطاف في تلك الحقيبة حتى مماته ، إلا صورة أو صورتان قام بتأطيرهما ، وإحداها صورة رائعة لوالدته جالسةً في وضعيةٍ جامدةٍ بعض الشيء على أريكةٍ وعيناها ترنوان

نحو النافذة إلى اليسار كتلميذة شاردة الذهن . كان هو بالطبع من التقط الصورة ، فنظراً للحالة التي هي فيها ، لم يكن أحد من أصدقاء ابنها ليجرؤ على تصويرها ، فذلك عمل محفوف بالمخاطر وبالغ الحميمية .

والجدير بالذكر أن معظم الصور التي احتوتها الحقيبة لم تكن من تصويره ، فكانت هنالك صور لصديقه نوبار، وخمسة أو ستة أعضاء آخرين في النادي .

وتعود أقدمها إلى عام ١٩٠١ ، وأحدثها إلى عام ١٩١٩ ، نيسان ١٩١٩ . إنه تاريخ محدَّد ، أليس كذلك ؟ ويمكنني أن أكون أكثر تحديداً وأقول إنها تعود إلى ٦ نيسان من ذلك العام . فقد حدَّثتي عنها والدي بما فيه الكفاية ليترسَّخ هذا التاريخ في ذهني ، فبعده ، لم يشأ والدي قط أن يمسك بآلة تصويرٍ بين يديه .

ماذا جرى في ذلك اليوم ؟ لقد حلَّت كارثةٌ أو شيءٌ من هذا القبيل، الكارثة التي أبصرت بسببها النور .

شهدت أضنة بعض القلاقل ، وعاث الناس فساداً في الحي الأرمني ، وكان ذلك نذيراً لما سيحدث لاحقاً بعد ست سنوات على نطاق أوسع . غير أن الرعب قد حلَّ فسقط مئات القتلى وربما الآلاف منهم ، وأحرقت منازل كثيرة من بينها منزل نوبار الذي تمكن من الفرار مع زوجته التي تحمل اسماً أصبح نادراً ، أرسينيه ، وابنتهما ذات العشرة أعوام ، وابنهما ذي الأعوام الأربعة .

أين يجد الملاذ غير منزل صديقه التركي الوحيد ؟ لقد بقوا جميعاً قابعين في دار كتبدار الفسيحة . وفي اليوم التالي ، أي في ٦ نيسان ، وبما أن الحديث بدأ يدور حول عودة الهدوء ، أراد نوبار أن يغامر ويذهب إلى منزله علّه ينقذ بعض الكتب والصور ؛ وقد أخذ معه آلة تصوير محمولة ، وقرّر والدي مرافقته حاملاً العدّة نفسها .

بدت الشوارع هادئة بالفعل ، ولم تكن المسافة التي يجب اجتيازها تتعدّى بضع مئات الأمتار ، وقام الصديقان في الطريق بالتقاط بعض الصور .

كانا على وشك بلوغ منزل نوبار ، أو بالأحرى حطامه المحروق، عندما دوّى صراخ ، وتقدّم حشدٌ من الناس قادمين من الشوارع إلى اليمين ، شاهرين العصي والمشاعل في وضح النهار . عاد المصوّران أدراجهما ، وكان نوبار يركض بكل قواه ووالدي يمضي وئيداً محافظاً على مشيته السلطانية . ولم العجلة ؟ فالجموع لا تزال

بعيدةً. توقف وراح يقيس ويحدِّد الإطار بعناية ثم التقط صورةً للصفوف الأمامية للمتظاهرين .

صرخ نوبار هلعاً ، وقرَّر والدي الركض هارباً ، وهو يضم آلة التصوير إلى صدره كما لو أنه يحتضن طفلاً ، واجتاز الإثنان بسلامٍ بوابة الحديقة .

غير أن المتظاهرين اقتفوا أثرهم ؛ كانوا زهاء ألف شخص هائجين مائجين يضربون الأرض بأقدامهم ويهزون البوابة ؛ وفي غضون ثوان معدودة ، لا بد أنهم سوف يجتاحون الدار ويمعنون فيها ذبحاً ونهباً ويضرمون النيران . و لكنهم قد يتردَّدون ، فهذه الدار الجليلة وراء الأسوار لم تكن لتاجر أرمني ثري بل لأحد أفراد العائلة الحاكمة .

هل سيستمرون في ترددهم ؟ ألن تسقط الأسوار التي راحوا يمعنون في هزها ، فيتدفقون إلى الداخل وقد أعمت النقمة بصيرتهم ؟ وراح الحشد يتضخم وصرخات الموت تتصاعد .

وفي هذه اللحظة ، وصلت كتيبة من الجيش تتألف من ضابط يافع ترافقه ثلة من الجنود ، غير أن تدخلهم كان له بالغ الأثر ، فمن على حصانه ، وبقوة سيفه الذي يلوِّح به وقبعته الصوفية السوداء الجعداء، تبادل الضابط بعض الكلمات مع قادة المتظاهرين ، ثم أومى إلى البستاني طالباً منه السماح له بالدخول .

استقبله والدي كأنه مخلِّصٍ، ولكن الضابط لم يكن يملك الوقت لتبادل اللياقات ، فأمره بلهجة جافة تسليم عدة التصوير التي أثارت هذه البلبلة ، وعندما رفض والدي ، هدَّده الضابط بأنه إذا لم يمتثل لأوامره فسوف ينصرف مع رجاله ولن يكون مسؤولاً عما سيحدث .

وقال والدي : " هل تعرف من أكون ؟ هل تدري حفيد من أكون؟".

أجاب الضابط : " نعم ، أعرف ، كان جدك سلطاناً نبيلاً لقي مصيراً مروّعاً ، ليرحمه الله ".

وبينما كان يتكلم ، كانت نظرته تنمُّ عن النقمة والحقد أكثر مما توحي بالتعاطف والشفقة .

كان يجب الرضوخ للأوامر وتسليم كل العدة التي استقدمت بتكاليف باهظة من أجل نشاط نادي التصوير، وهي لا تقل عن عشرة آلات من أكثرها تطوراً ... وبالكاد تمكن والدي من إخفاء الآلة التي كان قد استعملها لتوّه بعد أن دفعها بقدمه تحت الأثاث ، وفيها الصورة التي كادت تودي بحياته .

صادر الجنود بقية الآلات ، وشاهدهم والدي ونوبار من شرفة الطابق الأول يرمون بهذه النفائس أرضاً أمام المتظاهرين ويشبعونها ركلاً وتحطيماً ، ويقضون عليها بأعقاب بنادقهم ، ثم يرمون الشظايا بملء أيديهم من فوق السور ...

وعندها فقط ، قبل المتظاهرون التفرّق بعد أن شفوا غليلهم .

تبادل الصديقان النظرات ، غير مصدّقين ما حدث ، ولشدة حزنهما ، بالكاد تنفسا الصعداء لنجاتهما من الموت .

لقد ولّت السنوات الجميلة ، وذهبت أيام النادي إلى غير رجعة ، فلن يمارسا بعد اليوم و بالطريقة نفسها هواية التصوير ، خليلتهم المشتركة وعشيقتهم الأوروبية العفيفة التي جازفا بحياتهما من أجلها ؛ فوالدي سوف يصبح هاوي جمع صور حصراً ، ولن يلتقط أية صورة

بعد هذه الواقعة ، وستكون صورة المتظاهرين هي الصورة الأخيرة التي يلتقطها بعكس نوبار الذي أصبح مصوّراً محترفاً ، ولكن ليس في أضنة، فهو لم يشأ ترميم منزله ، بل وبات لا يطيق التجوّل في شوارع الحي الأرمني المذعورة . لقد أبصر النور في هذه المدينة ، ولكن المستقبل لا يعيش بين أسوار الماضي .

بقي أن يختار طريق المنفى .

كان الكثير من الأرمن يهربون من أضنة ، ومن مدن أخرى في الأقاليم من أجل التجمع في العاصمة اسطمبول .وقد أبى نوبار أن يحذو حذوهم قائلاً : " هل أفلت من براثن النمر لأضع نفسي لقمةً سائغةً بين فكَّيه؟ " .

كان يريد الرحيل إلى أميركا ، غير أن هذا المشروع يحتاج الكثير من المال والعديد من الشروط المسبقة والاتصالات والوثائق الرسمية ، أي أنه يحتاج إلى الوقت ، وكان نوبار على عجلة من أمره ، ولم يشأ المكوث أكثر من بضعة أيام في ضيافة صديقه ، عاقداً العزم على عدم مغادرة منزل كتبدار إلا للرحيل عن البلاد .

كانت زوجته – أرسينيه – هي التي همست له بالحل ، ولا ريب أن كلمة همست تناسبها تماماً ، فهي كانت أكثر الأشخاص خجلاً وانزواءً، بقدميها المضمومتين أبداً ويديها المعقودتين وعينيها المطرقتين ، وأعتقد أنها اعتذرت وأومت مئة إيماءة قبل أن تجرؤ على التدخل في ما لا يعنيها، أي في حياتها . كان لديها نسيب يعيش منذ بضع سنوات في جبل لبنان ، ويبعث لها بين الحين والآخر رسائل مشجّعة . ربما وجب الرحيل إلى هناك لبعض الوقت بانتظار السفر إلى أميركا ؟

والحق يقال إن جبل لبنان كان بدوره أرضاً عثمانية غير أنه اكتسب ، منذ نصف قرن ، وضعاً مستقلاً مضموناً ومراقباً عن كثب من قبل السلطات العظمى ؛ ولئن لم يكن ملاذاً مثالياً للأرمن ، فهو يبقى وجهة السفر الأقل خطراً ، والأكثر مناعةً .

فكَّر نوبار ملياً طوال يومين ، وما أن حسم أمره حتى أعلم صديقه .

فقال له والدي : - " هكذا ، أنت تنوي مفارقتي إذن . هل صار بيتي يضيق بك ؟ ..." .

- بيتك يتسع لي ولكن البلاد هي التي أصبحت تضيق بي .

- إذا كانت البلاد تضيق بأعز صديق لدي ، فلماذا تتَّسع لي؟

لم يكن نوبار بمزاج ليفهمه اختلاف الآفاق بين مدرّس أرمني وأمير تركي ... ولم ينتظر والدي جواباً أصلاً، فقد خرج يتنزه في الحديقة ، تحت شجر الجوز ، نافثاً دخان سيجارته ، وراح نوبار يراقبه من النافذة بين الفينة والآخرى ثم قرر موافاته إذ شعر به تائهاً .

- أنت أعز صديق لدي وأكثر المضيفين كرماً من الذين يشق علينا مفارقتهم . قل لنفسك إن ما يصيبنا لم نختره لا أنا ولا أنت . غير أننا لسنا قادرين على الحؤو ل دون حدوثه ... كان عليَّ ...

لم يكن الصديق والمضيف يصغي إليه ، فمنذ ساعةٍ ، راح يحسم أمره بدوره :

- وماذا لو رحلت معك ؟

- إلى لبنان ؟

- ربما ...

- إذا رافقتني ... إذا ذهبت معي ... فسوف أقدِّم لك ...

- ماذا تقدّم لي ؟

واستعاد الصديقان فجأة مرحهما وشبابهما وحبهما المشترك لألاعيب الفكر . غير أن هذه اللعبة سوف تقودهما بعيداً ...

- ما عساني أقدِّم لك ؟ تساءل نوبار بصوت عالٍ . أنت تملك أراضٍ وقرى بكاملها ، وداراً تليق بأمير من الأمراء ، وأنا لم يبق لي من منزلي الفقير والشديد التواضع حجر واحد !

بوسعي أن أهديك أثمن كتاب عندي ، فباستطاعتنا أن نهدي كتاباً قديماً حتى لمن يملك كل شيء .

وبوسعي أن أهديك أجمل صوري وأنجحها ، تلك التي كنت فخوراً بها .

ولكنني لم أعد أملك شيئاً ، فقد احترقت كل ممتلكاتي ، الكتب والصور والأثاث والثياب ، خسرت كل شيء ... لم أعد أملك ما أهبك إياه سوى يد ابنتي !

أجاب والدي :

- إتفقنا . سوف أرحل معك !

هل كان الصديقان ينظران إلى هذا الوعد على محمل الجد ؟ يبدو لي أن الأمر بدأ كدعابة ، ثم لم يشأ أي منهما التنصل خوفاً من أن تتجرح كرامة الآخر . كانت إبنة نوبار في العاشرة من العمر ، تبدو كبيرة بالنسبة إلى سنها ولكنها هزيلة ودكناء ، ترتدي ثياباً قاتمة . كانت طفلة ممطوطةً أكثر مما هي مشروع امرأة ، واسمها سيسيل . وسوف تتزوج صديق والدها بعد خمس سنوات عام ١٩١٤ قبيل حلول الصيف واندلاع الحرب ، وسط حفل فخم ، وربما الأخير في التاريخ الذي غنّى فيه

الأتراك والأرمن ورقصوا معاً ؛ وقد حضره ، من بين المدعوين، متصرّف الجبل، وكان أرمنياً في تلك الفترة ويدعى أوهانس باشا . كان موظفاً عثمانياً قديماً ، وارتجل للمناسبة خطاباً حول الأخوة بين طوائف الأمبراطورية " أتراك وأرمن وعرب ويونان ويهود الذي هم الأصابع الخمسة لليد السلطانية النبيلة" ، وقد قوبل خطابه بالتصفيق الحارّ .

وحتى في غمرة الاحتفال ، لم يستطع نوبار نسيان هواجسه ، ولكن العريس كان سعيداً كطفلٍ من أطفال الشوارع : " هيا ، تعال يا حماي العزيز ، إنس همومك وانضمَّ إلينا ! أنظر إلى كلّ هؤلاء الناس الذين يضحكون ويصفقون حولك ، ألم نجد هنا ما افتقدناه في أضنة ؟ ما حاجتنا للهجرة إلى أميركا ؟ " .

كان كلُّ شيء يبدو بالفعل على أحسن ما يرام . فقد شيَّد والدي ، استعداداً لزواجه العتيد ، منزلاً فخماً من الحجر الرملي في ضواحي بيروت ، في المكان المعروف بتلة الصنوبر ، على طراز الدار التي فارقها . ولم يحمل من أضنة سوى بعض أثاث العائلة وحليّ والدته وعدَّة والده الطبية القديمة وسندات الملكية والفرمانات في صناديق بأكملها ، وبالطبع كل صوره .

وعلى الحائط الكبير في بهو منزل كتبدار الجديد ، علِّقَ صورة غير متوقَّعة هي صورة المتظاهرين برؤوسهم المعصوبة ووجوههم المتصبِّبة عرقاً تحت شرارة المشاعل الناقمة ، وسوف يحتفظ والدي طوال حياته ، أمام ناظريه بلوحة المطاردة الغريبة تلك . وعلى مرِّ السنين ، سوف يأتي الزوار ، فوجاً بعد آخر ، ليتفرسوا عن كثب في هؤلاء الأشخاص، باحثين دون جدوى عن وجهٍ مألوف ، فيتركهم والدي

يتخبَّطون في الحيرة للحظات طويلة قبل أن يقول لهم : " لا تبحثوا ، فلا يمكنكم التعرُّف على أي وجهٍ من هذه الوجوه لأنها الحشود ولأنه القدر ".

كان يجلس دائماً أمام هؤلاء الأشخاص في الصورة بعكس نوبار الذي كان يدير لهم ظهره على الدوام بل ويخفض عينيه باستمرار ليتحاشى النظر إليهم كلَّما دخل إلى البهو .

لقد أراد والدي أن ينتقل صديقه للعيش معه ، غير أن نوبار فضَّل استئجار منزل أكثر تواضعاً في الجوار ، استعمله أيضاً محترفاً للتصوير، وقد اختاره المتصرِّف كمصوِّره الخاص المعتمد . وفي غضون أشهر قليلة ، ازدهرت أعماله على غرار القمح في أعالي الجرود الذي يسرع في النموِّ لأنه يعرف بأن الربيع سيولِّي سريعاً .

في ذلك الصيف ، اندلعت الحرب العالمية الأولى ، وسوف يعتبرها الذين عايشوها بالحرب العظمى دائماً . لم نشهد لا خنادق ولا إراقة دماء ولا غاز خردل ، ولم نقاس من المعارك بقدر ما قاسينا من المجاعة وانتشار الأوبئة ، ثم الهجرة التي أفرغت القرى من سكانها . فمنذ ذلك الحين ، سوف تنتشر في الجبل ولفترة طويلة من الزمن بيوت كثيرة اختفت سحب الدخان من مداخنها .

وفي غضون ذلك ، بدأت المذابح في أضنة وغيرها من مدن الأناضول . كانت أرض المشرق تعيش أحلك الأزمنة ، وامبراطوريتنا تنازع وسط العار والخزي ، وعلى أشلائها تنمو جمهرة من البلدان الجهيضة ، كلٌّ يصلي لإلهه كي يخرس صلوات الآخرين . وبدأت تنتشر على طول الطرقات أولى قوافل الناجين من الحرب .

كان زمن الموت ، غير أن والدتي كانت حاملاً ، ليس بي ، لا ، ليس بعد ، بل بشقيقتي الكبرى ، أما أنا فقد ولدت بعد الحرب عام ١٩١٩.

لا أتحدث غالباً عن والدتي ذلك أنني ما عرفتها كثيراً ، فقد فارقت الحياة وهي تضع شقيقي الأصغر ، وكنت وقتئذٍ لم أبلغ الرابعة بعد.

أحتفظ عنها بذكرى واحدة ، فقد دخلت غرفتها حافي القدمين ، وكانت هي بثوب النوم أمام المرآة . أخذتْ يدي ووضعَتْها على بطنها المتكوِّر ، وربما أرادت أن تجعلني أتحسَّس الطفل الذي يتحرَّك في أحشائها . نظرت إليها دون أن أفهم ورأيت الدموع تجري على وجنتيها .

سألتها إذا كانت تتألم ، فمسحت عينيها بمنديلٍ مجعَّدٍ بين يديها ، ثم حملتني بين ذراعيها واحتضنتني طويلاً على صدرها ، وكنت أشمُّ عطرها الساخن مغلق العينين ، متمنياً ألا أفارق ذراعيها أبداً ...

لماذا كانت تذرف الدمع ؟ هل كان ألماً ؟ أم حزناً نسائياً ؟ أم كآبة عابرة ؟ ما زلت حتى اليوم أتمنى لو أعرف السبب !

وأحتفظ عنها كذلك بصورة أخرى ، غير أنها أقل وضوحاً . أرى أمي قرب الباب بثوب أبيض ضيق وفضفاض عند الكاحلين ، تضع على رأسها قبعة ذات شبكة كما لو أنها تهمُّ بالذهاب إلى حفل خيري . وكما قلت ، لست أكيداً ، فربما رأيت الصورة لاحقاً وخيِّل لي أنني كنت حاضراً فعلاً . كانت تبدو جامدةً ، لا تحرّك ساكناً ، لا تنبس ببنت شفة، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة غامضة . لم تكن تنظر إليَّ .

هذا كلُّ شيء ، ولا أحتفظ بذكرى أخرى ، ولا بأي مشهدحول معاناتها أو موتها . فقد حرص الجميع ، رفقاً بي ، ألا أعيش هذه المحنة.

تساءلت أحياناً ، في فترة لاحقة ، فيما لو رضيتْ دون انفعال بذاك الوعد الذي يقضي بتزويجها ، وبذاك الأسلوب في تقرير مصيرها بسبب دعابة... وربما هذا ما حدث بالفعل ... فهي أمور كانت تحصل في ذلك الحين ، إذ يقطع الآباء وعداً ، وتفي بناتهن به . وفي بعض الظروف ، كانت الفتاة تمانع إذا صدف أن كان الزوج الذي اختير لها شنيعاً أو كانت مغرمة برجلٍ آخر ... فتدفع حياتها ثمناً لرفضها . أما في ما يتعلّق بوالدي ، فلا أعتقد أنها عانت بسبب الخيار الذي ارتآه والدها ، فزوجها كان رجلاً كريماً ، إنما ليس بسهل المعشر فقد كانت له نزوات الطفل الوحيد والمتحذّر من سلالة الأمراء . غير أنه لم يكن متذمّراً ولا

عصبي المزاج أو سليط اللسان . وعلاوةً على ذلك ، كان رجلاً وسيماً ، أنيق الهندام ، متأنقاً بعض الشيء ، ربما أكثر مما ينبغي ، وقد يبلغ تأنقه درجة الهوس ما أن يتعلق الأمر بقبعاته وياقاته المنشّاة وتشذيب شاربه الأصهب وثنيات سترته أو ألوان الزهرة التي يضعها في عروته .

ولمعرفة المشاعر التي كانت والدتي تكنُّها له ، لديَّ دليل لا يخطىء هو والداها أنفسهما ، فنوبار وزوجته حافظا طوال حياتهما على مودة دائمة لوالدي ، ويكفي رؤيتهما يرمقانه بنظرات حنونة ، يبتهجان لسعادته ويقلقان لشجونه ، ويظهران حنانهما أمام أسوأ نزواته وذلك لعلمهما بأنه كان زوجاً صالحاً لابنتهما .

غير أن والدتي لم تعرف الكثير من الأفراح في حياتها القصيرة ، فقد حملت ثلاث مرات ، وكانت كلها عسيرة، ويعود حملها الأول إلى عام ١٩١٥ ، ولا أدري إذا كان يمكن اليوم إدراك ماذا يعني في تلك السنة المشؤومة أن تحمل امرأةٌ أرمنيةٌ ابن رجلٍ تركيٍّ عثماني .

وبالطبع ، لم يكن زوجها أيَّ تركي عثماني فموقفه كان مثالياً ، وكذلك صداقته التي لم تشبها شائبة تجاه نوبار ، ولكن من كان ، في تلك الفترة ، يأخذ الوقت الكافي ، لمراقبة مواقف كلِّ إنسان ؟ من كان يسعى للتحقق من حقيقة الآراء والمواقف ؟ ففي مثل تلك الأوقات ، كانت تنسب إلى المرء آراء العرق الذي ينتمي إليه.

وهكذا ، أقيل المتصرِّف الأرمني العجوز بالرغم من ولائه لسلالتنا ، بين عشية وضحاها ، وألغي بشطبة قلم الوضع المميَّز الذي يتمتَّع به جبل لبنان . وفجأة ، شعر كل هؤلاء الناس، هؤلاء الأرمن الذين اتخذوا منه ملاذاً هرباً من السلطات العثمانية بأنهم وقعوا في المصيدة !

وعاد نوبار يحلم بالهجرة الى أميركا، ولكن ابنته أصبحت الآن زوجةً وأماً، ولا يسعه التفكير بالرحيل دونها وعائلتها الصغيرة . وكان والدي يرفض الفكرة رفضاً قاطعاً .

في البداية، و لكسب الوقت ، كان يقول إنه يجب الانتظار حتى تضع زوجته مولودها وتنقضي فترة النفاس. ثم تحجَّج بأن والدته، ونظراً لوضعها، لن تحصل أبداً على إذن الدخول إلى الولايات المتحدة، وهو لن يقبل التخلّي عنها أبداً ...

لم يكن ذلك هو السبب الدفين أو السبب الوحيد فيْ مطلق الاحوال، فجدتي لن تكون أول امرأة معتوهة تعبر المحيط الأطلسي ؛ وأعتقد بالأحرى أن والدي ، بالرغم من العلاقات المتباعدة التي كان يحتفظ بها مع عائلته النبيلة، وبالرغم من الازدراء الذي كان يبدر عنه أحياناً ، فهو لم يكن لامبالياً بالسلالة التي يتحدَّر منها. وطالما يعيش في أرض المشرق، فهو يبقى أميراً، وحفيد السلطان، و سليل كبار الفاتحين، دون أن يضطر للتباهي بالأمر . أما في أميركا ، فسوف يصبح عابرَ سبيلٍ مجهول الهوية، وهذا أمرٌ لم يكن يستطيع أن يطيقه.

عندما تحدّثتُ عنه البارحة ، ربما فُهِمَ من كلامي أنه كان متمرّداً على ألقاب النبالة والتعظيم التي تتمتع بها سلالته أو مقامه ، وهو كان كذلك إلى حدٍّ ما ... دون أن يكون متمرّداً بكل ما للتمرُّد من معنى . ولا أعني أنه كان متناقضاً مع ذاته ، ولكنه يملك انسجامه الخاص معها ؛ ولئن كان ثار في كثير من الأحيان على عائلته العثمانية ، فذلك لأنه يلومها بشكلٍ خاص على سقوطها .

فهل كـان ينظـر إلـى المـاضي أكـثر مـن تطلُّعـه إلـى المسـتقبل؟ يصعب القول ، فالمستقبل يقوم على مشـاعر الحنيـن التـي تجتاحنـا ، وإلا فماذا يكون ؟

هل ذلك العصر الذي عاش فيه بشرٌ من كل الأجناس والأعراق ، جنباً إلى جنب ، في بوابات المشرق ، وتمازجت فيها لغاتهم ، هل هو من رواسب الماضي ؟ هل هو تصوُّر للغد ؟ هـل يعتـبر الذيـن يتشـبثون بهـذا الحلم رجعيين أم رؤيويين ؟ أعجز عن الإجابة على هـذه الأسـئلة ، ولكـن هذا ما كان يؤمن به والـدي . كـان يؤمـن بعـالمٍ متجـانسٍ يمكـن للـتركي والأرمني في رحابه أن يعيشا في أخوة بعد.

ولو قدِّر له أن يستعيد عالمه كما كان ، لتضرَّع إلى السماء كـي يكفَّ كل شيء فيه عن الحركة ؛ وبما أنه يعرف أن الأمر مسـتحيل ، فقد وضع نفسه ، طوال حياته ، في موقع الأمـير المهـاجم إلـى مـا لا نهايـة ، ولو لم يكن أميراً ، لما أصبح ثورياً . لم يعـد يرضـى بعـالمٍ يمضـي قدمـاً دون تغيير ، فكلٌّ ما يحيد عن الصراط المستقيم كان يعجبه ، إذا مـا جـاز التعبـير – الفـن المتمـرِّد والثـورات المتطرِّفـة والاختراعـات الغريبـة والنزوات والشواذ بل وحتى الجنون ،

غير أن أكثر الأفكار ثوريةً كانت تعزِّزُ لديه غرائـز أرسـتقراطية راسخة.

من هذا المنطلق – وعلى سبيل المثال لا الحصر – لم يشأ قط أن يرتاد أولاده المدرسة ، فقد أراد لنا أن نسلك الطريق نفسه الذي سلكه هو ، أي أن نحصـل علـى مـدرِّس خصوصـي و أسـاتذة يـأتون لتدريسـنا فـي المنزل. ولو قال قائل إن هـذا القـرار لا يتـلاءم وأفكـاره الثوريـة ، انـبرى يدافع عن نفسه دفاعـاً شرسـاً ، مؤكِّداً أن البشـر يولـدون متمرِّديـن ، وأن

المدرسة تصنع كائنات راضخة ، مغلوبة على أمرها وأسهل تدجيناً ، ولا يمكن للزعماء الثوريين العتيدين أن يسلكوا مثل هذا الطريق ويغرقوا وسط القطيع المدجَّن !

أراد لأولاده مدرِّسين لم تقبل بهم أية مدرسة ، وكان يقول إن المعلِّمين الحقيقيين هم من يعلِّمونك حقائق مختلفة .

وأعتقد أن والدي كان يحاول أن يستعيد على هذا النحو أفضل ما عرفه في شبابه ، ذاك الانسجام الفكري والعاطفي الذي عاشه مع نوبار وسائر أعضاء نادي التصوير . أراد استحضار هذا الانسجام ونقله إلينا . وقد حقَّق غايته جزئياً ، فلم يكن وصول المدرِّسين كل صباحٍ بالنسبة إليَّ لحظة رهبة ، ولا زلت أذكر بعض نقاشاتنا ومساراتنا وربما حصل بيني وبين هذا المدرِّس أو ذاك شيء من الانسجام ... ولكن هنا يتوقف الشبه بين منزلي كتبدار ، منزل أضنة والمنزل الكائن في ضواحي بيروت ؛ ولئن عاش الأول خارج العالم ، منيع الأسوار ، بالكاد تتردد إليه حفنة من الأشخاص الذين لا تلين عزائمهم ، فقد كان الثاني ، على العكس، قفير نحلٍ يعمل في وضح النهار ، ببهوه المفتوح وأبوابه المشرعة ومائدته المضيافة أمام المدعوين الموسميين أو الحميمين – من رسامين غير مفهومين وشاعرات شابات وأدباء مصريين زائرين ومستشرقين من كل حدب وصوب ، كان طنيناً لا ينقطع .

بالنسبة إلى الطفل الذي كنت ، كان بوسع ذلك المناخ أن يتحول إلى عرس دائم ، ولكنه كان عذاباً بالأحرى بل بلاءً مستمراً ! فقد كنا نعيش اجتياحاً من الفجر حتى الليل ، من قبل أشخاص مدهشين أحياناً ، طريفين أو مثقفين ، ولكن ، في معظم الأحيان ، من أناس طفيليين ،

خسيسين بل ودجالين ، اجتذبتهم ثروة والدي وبحثه الجامح عن كـل جديـد وافتقاره التام إلى التبصر والتمييز ...

كنت أجد أفراح الطفولة في مكـان آخـر ، فـي رحلاتـي النـادرة بعيداً عن منزل الأهل .

ما هي أجمل الذكريات التي أحتفظ بهـا عـن تلـك الفـترة ؟ طـوال ثلاث سنوات متعاقبة ، أمضيـت عطلـة الصيـف مـع جدي وجدتـي ، فـي قرية تقع في أعالي الجبال ، لا تبعد كثيراً عن تلك البقعة الخلابة المعروفة بقناة باكيش أو قناة باخوس . كنـا ، كلمـا اسـتيقظنا صباحـاً، نتسـلق ، أنـا وجدي ، الجبل حتى القمة ، لا نحمل سوى عصي للمشي وبعض الفاكهة والشطائر لنهمد جوعنا .

بعد ساعتين من التسلق ، نصل إلـى عـرزالٍ يقـال إنـه شُـيِّد فـي العصر الروماني ، غير أنه فقد فخامته الغابرة ، وغـدا مـلاذاً مـن الحجـر الصلد ، له باب منخفض كنت أنا نفسي ، بـالرغم مـن أعوامـي العشـرة ، مضطراً للإنحناء للمرور تحته . لم يكن في الداخل سوى كرسي من القش متهـالك الأقـدام ومبقـور البطـن ، ورائحـة المـاعز غـير أن هـذا العـرزال تراءى لي قصراً منيفاً ومملكة حقيقية . ومـا أن أصـل حتـى أسـتقر فيـه ، فيما يجلس جدي خارجاً على صخرة مرتفعة ، متكئاً بيديه على عصـاه ، و يـتركني مستسـلماً لأحلامـي . يـا إلهـي ، كم كنـت منتشـياً، أحلِّـق فـوق الغيـوم ، وأشـعر أننـي سـيد العـالم، وأتحسـس فـي أحشـائي أفـراح الكـون الحارَّة .

وعندما ينتهي الصيف ، أنزل ثانيةً إلى الأرض ، وسعادتي تبقى هناك ، في ذلك العرزال . أرقد كل ليلة في منزلنا الفسيح ، تحت الأغطية المطرَّزة ، محاطاً بالستائر والسيوف المنقوشة والأباريق العثمانية، وأحلـم

بذاك العرزال . وحتى اليوم ، عندما يصدف أن يتراءى لي مرتع طفولتي، فأنا أراه .

قصدته على مدى ثلاث سنوات في فصل الصيف ، في سن العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة ، ثم تبدد السحر . فقد اعتلّت صحة جدي، ومنعه الأطباء من تسلق الجبال . ومع ذلك ، كان يبدو لي صلباً بشعره الفاحم وشاربه الكث ، الكالح السواد دون أن يغزوه خيط أبيض واحد . ولكنه كان جداً وشيطناتنا لا تلائمه، فغيَّرنا مكان الاصطياف وقصدنا فنادق فخمة فيها مسابح وكازينوهات وحفلات راقصة ، وفقدت مملكة طفولتي .

لا ، لم يرافقنا والدي قط في العطل الصيفية . وكانت العطلة تعني تحديداً الابتعاد عنه ... كنا نرحل ، وتتعاظم سعادتنا كلما ابتعد المنزل عنا . أما هو ، فكان يبقى ، مزدرياً هذا " النزوح البشري" ، وتلك الجحافل من سكان المدن الذين يقصدون الجبال ، في تاريخ محدَّد ، هرباً من قيظ الساحل .

وربما كان على حق في نهاية المطاف . فكلما تقدَّمتُ في السن، أعطيت الحق لوالدي في كل شأن ، وأعتقد أن هذا هو حال البشر ، فسوف تنسجم نزواتي مع نزواته ، بحكم الوراثة أو الندم . غير أنني سوف ألومه دائماً في مسألة حملتني على الهروب بعيداً عنه، وهي رغبته بأن يصنع مني زعيماً ثورياً عظيماً . ولم تكن رغبته تلك مجرَّد طموح غبي على غرار الأحلام التي يتمناها الأهل لأبنائهم بل هاجساً ، يدعو للابتسام اليوم ، ولكنها نادراً ما انتزعت مني ابتسامة في طفولتي ومراهقتي ، ثم طاردتني لاحقاً ، في مرحلة الشباب ، كما اللعنة .

كان والدي ، إذا شئتَ ، نموذجاً لما ندعوه عادةً بالمستبد المستنير. كان مستنيراً لأنه أراد لنا تنشئة الرجال الأحرار ، ومستنيراً لأنه حرص على تعليم ابنته وابنيه على قدم المساواة ، ومستنيراً كذلك في شغفه بالعلوم الحديثة والفنون . ولكنه كان مستبداً أصلاً في الطريقة التي يعبّر بها عن أفكاره بصوت مرتفع وقاطع لا يتحمَّل النقاش ، ومستبداً في متطلباته تجاهنا ، وتجاه مستقبلنا ، مقتنعاً أن طموحه نبيل ، ولا يتساءل إذا كان أولاده يرغبون أو يقدرون على الانسجام معها .

في البدء ، كان يمارس الضغط على أولاده الثلاثة ، ثم ، شيئاً فشيئاً ، نجح شقيقاي في التحرُّر منه ، وتركاني وحدي أتحمَّل طوال حياتي العبء الثقيل لذاك الهوس الأبوي العظيم .

عندما توفيت والدتي في أيلـول ١٩٢٢ بعـد أن وضعـت مولودهـا الثالث ، كانت شقيقتي لم تتجاوز السابعة من العمر بعد . ومع ذلـك ، فقـد أصبحت سيدة المنزل ، وكانت هي المكلّفة بإفهامي ، بعينين جـافتين ، أن أمي ذهبت في رحلة بعيدة ، وأننـي يجـب أن أخلـد للنـوم حتـى لا أنغّـص عليها رحلتها إلى تلك البلاد النائية ؛ وأفترض أن شقيقتي كانت ذهبت بعـد ذلك لتذرف الدمع السخيّ في سريرها .

كانت وحدها من بيننا نحـن الثلاثـة التـي عرفـت منـذ الصغـر أن تحتلّ موقعها الخاص . كان والدي بالنسبة إليها سقفاً ، بينمـا كنـت أعتـبره سطحاً . فالكلمات نفسها والنبرات عينها في الصـوت الأبـوي التـي تبعـث فيها الطمأنينة وتمنحها الثقة كانت تضيّق عليَّ الخناق أو تزعـزع كيـاني .

ما زلت حتى اليوم أستحضر مشـهداً ربمـا تكـرّر آلاف المـرات بالصورة عينها .

في الصباح ، عندما يستيقظ والـدي ، كـان لا يظهـر أمـام أحـد – ولا حتى أمـامي – قبـل أن يحلـق ذقنـه ويصفّـف شـعره ويتعطّـر ويسـتعدّ للخروج . يبدأ باستقبال حلاقه ، وما أن يسـتعد حتـى يشـق البـاب وينـادي شقيقتي لتأتي وتكون "مرآته" ، أي أنه يقف أمامها ، صامتاً ومنتصباً ، كما يقف أمام مرآته ، فتقوم هـي بتفحصّـه ، تصلـح عقدةً وتنفض ذرة غبـار وتتأمل عن كثب أثـر بقعـة . وطـوال هـذه العمليـة ، يرتسـم علـى وجههـا تعبير شكّاك ؛ وعندما تصدر حكمها بإيماءة من رأسها في نهاية المطاف ، قلما تتسرّع ، وهو نفسه يبدو غير واثق من نفسه بانتظار صدور الحكم.

وعندما ينتهي هذا الطقس ، يغادر غرفته ويمشي بخطى وئيدة مترددة سرعان ما تصبح واثقةً حتى يصل إلى البهو حيث تنتظره قهوته الصباحية .

قلت لتوي ، انه يستعد " للخروج" ، ولكنه أسلوب في الكلام ، فوالدي كان نادراً ما يخرج . وعادةً ، عندما يستيقظ صباحاً ، يكتفي بإطلالة من نافذته المفتوحة ، في الطابق الأول ، يتنشق هواء الصباح ويجيل الطرف على البحر والمدينة والصنوبر ، لا شيء سوى نظرة سريعة كما لو أنه يتحقَّق من أنها لا تزال موجودةً، ثم يهبط السلالم ويعود ليجلس في البهو ، وسرعان ما كان يتوافد الزائرون الأول بل ربما ينتظرونه أحياناً .

أعتقد أن والدتي كانت هي " مرآته" في حياتها كلَّ صباح ، وإذ حلَّت شقيقتي محلَّها في هذا الطقس ، أصبحت لديها سطوة ونفوذ على والدي لم أحلم قط أن أحظى بهما ، لدرجة أنه كفَّ عن محاولة فرض أي شيء عليها .

وسوف يفلت شقيقي الأصغر ، مثلها ، من سطوة والدي ، إنما بأسلوب مختلف ، أكثر خفيةً . فقد بذل قصارى جهده ليثبط عزيمة والدنا ويثنيه عن محاولاته للإرتقاء به نحو الأسمى . كان مقتنعاً أن والده يمقته منذ مجيئه إلى هذا العالم لأنه تسبب بوفاة والدتنا . لم يقف أبي منه قط هذا الموقف اللئيم عن قصد . غير أن الطفل ، عندما يشعر منذ ولادته ، بالكراهية تحاصره فهو لا يكون مخطئاً تماماً .

لقد ظهر ، في مرحلة مبكرة ، اختلاف بين شقيقي وبيننا ، وأعني بنا العائلة بكاملها . كنا جميعاً نحيلين وممشوقي القوام ، مع نزعة

غريزية للوقار والأناقة . كلنا بدون استثناء . فوالدي كان ممشوقاً ما عدا كرشه الطبيعي الذي يميِّز الرجال الناضجين والأثرياء ، وكذلك والدتي ، ونوبار والجدتين ، وشقيقتي وأنا . كنا جميعاً مصنوعين في القالب نفسه ، لدينا بكل بساطة ملامح القربى إلا شقيقي، فمنذ صغره ، كان بديناً ، وظلَّ كذلك ، يلتهم الطعام بشراهة ، وأعتقد أنني لم أعد أذكر اسمه : سالم. كان اسمه بالذات الدافع الأول لنقمته ! وهو بحدِّ ذاته إسم كسائر الأسماء بل والوحيد بين أسمائنا الذي لا يعتبر نادراً ، أما اسمي ، فلا أحد غيري في العالم يحمله ، وحتى بعد مرور سبعة وخمسين عاماً ، لم أستطع الاعتياد عليه ، وعندما أعرِّف عن نفسي ، أحاول إغفاله .

البارحة ، عندما التقينا ، قلت فقط 'كتبدار' ، أليس كذلك ؟ لن يخطر ببالك قط الإسم الذي أثقل به والدي كاهلي ..."عصيان " ! نعم ، عصيان ! " تمرُّد" ، " ثورة " ، " رفض " . هل صادفت أباً يسمِّي ابنه "عصيان " ؟ عندما كنت في فرنسا ، كنت ألفظه بسرعة ، ويعتقد الناس أحياناً أنه اسم ساحرٍ اسكتلنديٍّ ، فأوافقهم بجبنٍ عوضاً عن تفسير نزوة والدي .

ولكن ، لنتابع الحديث . كنت أريد فقط القول إن اسمي من أثقل الأسماء حملاً ، وأن إيفيت، إسم شقيقتي الذي دعيت به تيمناً بجدتي – كان نادراً في بيروت ، ومعظم الناس يخلطون بينه وبين الإسم الفرنسي .

والحق يقال إن البلد أضحى خاضعاً للإنتداب الفرنسي في الفترة الفاصلة بين الحربين ، بل كان قد صار لتوه تحت الانتداب الفرنسي بعد أربعة قرون من الحكم العثماني . وفجأةً ، لم يعد أحد يرغب بسماع اللغة التركية !

وخلاصة القول ، أنه ، وبسبب انتمائنا إلى عائلة عثمانية ، لم يعد ربما مناسباً الاستقرار في لبنان . ماذا نفعل ، ونحن لم نختر ذلك بملء إرادتنا بل هو التاريخ الذي اختار عنا . ولا أريد الظهور جائراً أو جاحداً ، فلئن كان سكان بيروت يفضلون النطق بالفرنسية ونسيان التركية، فهم لم يشعروننا ولو للحظة واحدة أننا قد نصبح أشخاصاً غير مرغوب بهم بل ، على العكس ، كانوا يبدون فرحين وفخورين بأن " مستعمر" الأمس ، عاد ليحلَّ بينهم ضيفاً . ولطالما عاملني الجميع ، أقرباء وغرباء، كما لو أنني أمير صغير . ولم أشعر بحياتي قط بضرورة إخفاء جذوري، وإذا فعلت ، فذلك بدافع الحياء وليس من باب التفاخر ...

ولكنني كنت أتحدَّث عن موضوع آخر ، .. أجل ، عن اسم أخي، سالم ، وهو أقل غرابةً من اسمي بل كان اسماً شائعاً وجميل الجرس . ولكنه يعني ، كما تعرف ، "مصوناً" أو شيئاً من هذا القبيل ، مما يذكِّر طفلاً توفيت والدته وهي تضعه بحادثةٍ مؤلمة .

كان شقيقي يعتقد أنهم أطلقوا عليه هذا الإسم ليذكِّرونه طوال حياته بأنه عاش بعد موت والدتي بل وربما لمعاقبته على " قتلها "...

لم تكن تلك نيَّة والدي مطلقاً ! فقد أراد فقط ، حين اختار له هذا الاسم ، الاحتفاء بالحدث السعيد الوحيد لولادة مأساوية خرج منها الطفل على الأقل معافىً سليماً . ولا بد من القول إنها عادة ذميمة تلك التي تقضي بإعطاء الأبناء أسماء تعبِّر عن آراء أهلهم ونزواتهم أو مشاغلهم الراهنة ؛ فالإسم يجب أن يكون - ألا توافقني الرأي ؟ - صفحةً بكراً ليكتب عليها الإنسان خلال حياته ، ما يتسنى له كتابته . وأعتقد أن اختيار هذا الإسم لشقيقي لم تكن فكرةً محمودةً ، غير أنها لم تكن بدافع المعاقبة

أو الازدراء ، فقد كانت لوالدي الطموحات الجامحة نفسها لسالم ولي على حدٍّ سواء ...

وقد فعل شقيقي كلَّ ما بوسعه للتهرب من هذه الطموحات . فكان يهمل دروسه ويسلك سلوكاً أرعناً مع المدرِّسين ، بالرغم من أنهم كانوا أشخاصاً رائعين بمعظمهم . ، وينتقم أيضاً بالاستسلام للشراهة كما قلت ، بل قام بأسوأ من ذلك ...

ففي سن الثانية عشرة ، على سبيل المثال ، سرق مخطوطتين ثمينتين من القرن السابع عشر ، مزخرفتين بمنمنماتٍ ، وباعهما لأحد تجار الخردوات ، وحرص على اتهام إبن البستاني ...وقد شعر والدي بالمهانة عندما اكتشف الحقيقة ، وللمرة الأولى في حياته ، ضرب بعقدة حزامه أحدَ أولاده ضرباً مبرِّحاً حتى نفر منه الدم .

وقد أقسم أنه سوف يطرده من البيت ، ويعطي غرفته لابن البستاني تعويضاً له ، غير أن الفتى وأهله ارتأوا أنه من الحكمة رفض هذا العرض ، فقرَّر والدي أن يطرد ابنه الأصغر من أحلامه عوضاً عن أن يطرده من منزله ، وربما اعتقد أنه يعاقبه على هذا النحو ، ولم يدرك أنه قد أزاح عن كاهل ولده عبئاً ثقيلاً بالأحرى .

بيد أنني لم أسلم من أحلامه للأسف بل راحت كلها تنوء على كاهلي .

ويا لها من أحلام ! لو شئت أن أصوِّرها تصويراً هزلياً ، لقلت إنه كان يحلم بعالمٍ لا يوجد فيه سوى رجال نبلاء وكرماء ، أنيقي الهندام، ينحنون احتراماً للنساء ، ويزدرون بإيماءة من اليد كل الفوارق لجهة العرق واللغة والمعتقد ،، ويشغفون كالأطفال بالتصوير والطيران والتلغراف وآلة عرض الأفلام . قد تخال كلامي ضحكاً عصبياً أو سخرية

مخجلة ، ذلك أن هذا العالم الذي كان يحلم به ، هذا القرن العشرين الذي يشكل امتداداً للقرن التاسع عشر بأرقى مظاهره ، حلمت به بدوري . ولو كانت لدي الشجاعة اليوم ، لحلمت به مجدَّداً . فنحن نتشابه في هذه الناحية ... هذا الشبل من ذاك الأسد ، واعذرني على هذا التشبيه السخيف. كنت لا أوافقه عندما يصرِّح قائلاً إن العالم يحتاج ، من أجل صحوته وتحديد مساره ، إلى رجال عظماء ، إلى ثوريين تكون أقدامهم في الشرق وتشخص عيونهم نحو الغرب .

وكان يشخص بعينيه نحوي ، وعليَّ أن أفهم بأن ذاك المخلِّص الذي ينتظر منه العالم الأعاجيب ، ذاك الرجل ، هو أنا .

في بعض الأحيان ، كان نوبار ينضم إليه ! كان الاثنان عجوزين ساذجين ، ولا شفاء لسذاجتهما . سوف تصبح ثورياً عظيماً يا بنيّ ! سوف تغير وجه العالم يا ولدي ! والشيء الوحيد الذي كنت أرغب به تحت نظراتهما الفاحصة هو أن ألوذ بالفرار ، وأغير اسمي وموطني . كيف أقول لهما إن هذه العاطفة الجياشة تجاهي ، وهذه الثقة العمياء ، وهذا الإجلال المبكر ، هذه المشاعر كلها تخيفني وتشلُّني ؟ كيف أقول لهما إنني ربما أفكر بمشاريع أخرى للمستقبل ؟ وهي مشاريع ليست أقل سمواً ، أؤكد لك ، فأنا أيضاً أريد تغيير العالم على طريقتي ، وبينما كان والدي مصراً على أن أقرأ سيرة الفاتحين وكبار الثوريين من الاسكندر الأكبر وقيصر إلى نابليون وصن يات صن ولينين دون أن ننسى سلفنا الجليل سليمان القانوني ، كان أبطالي هم باستور وفرويد وبافلوف ولا سيما شاركو ...

كنت بذلك أستعيد اهتمامات جدي الذي كان طبيباً بل واختصاصياً في الأعصاب على غرار شاركو الذي التقى به مرة كما قيل لي خلال

رحلة قام بها إلى سويسرا ، ولا ريب أن وجود جدة مجنونة في المـنزل ، طوال فترة طفولتـي ، قد عـزَّز فضولـي وحبـي للتحليـل النفسـي ومبحـث الأعصـاب .

وأكاد أقول إنني حسمت أمري منذ سن الثانية عشرة . كان الأمر بمثابة عهد قطعته على نفسي ورحت أرسِّخه كل ليلة في عتمـة غرفتـي . سوف أكون طبيباً ! وكلمـا حدَّ ثني والـدي عـن طموحاتـه بشـأني ، ألـوذ بـالصمت دون أن أظهـر مشـاعري الحقيقيـة ، وأردِّد بشراسـةٍ فـي قـرارة نفسي : سأصبح طبيباً ! لن أكون فاتحـاً أو قـائداً ثوريـاً ! سـأكون طبيبـاً ! والتردُّد الوحيد الذي كان يعتريني هو الغاية من العلم الذي أريد تحصيله ، فتارةً ، أرى نفسي طبيباً ممارساً بل متطوّعاً مخلصاً في الأدغال كالطبيب شـفايتزر ؛ وطـوراً ، أتخيـل نفسـي باحثـاً ، أقـوم بالتجـارب فـي مختـبرٍ ، منحنياً فوق المجهر .

لم أبح بالأمر لأحدٍ في البداية ، ولا أعرف كم مـن الوقـت أبقيـت هذا السر دفيناً في أعماقي . ويبدو لي أنني اعـترفت بـالأمر لشـقيقتي بعـد سنتين أو ثلاث سنوات ، إذ كنت أثق بها ، وأعرف أنهـا لـن تخـون ثقتـي بل وقد تساعدني أيضاً . فقالت لي : " كن على ثقة أنه متى حان الوقـت ، فلن تفعل إلا ما قرَّرت . لا تتساءل كيف ستقنع الوالد بل اسأل نفسك فقط عما تريد وتأكد من خيارك . ، وإذا اقتضى الأمر ، فأنا أهتم بإقناعه ".

وسـوف تهتـم بـالأمر بـالفعل ، أقنعتـه أولاً أننـي يجـب أن ألتحـق بمدرسة في السنتين الأخيرتين من تعليمي للحصول على شهادات رسـمية، ولم تفلح في مساعيها على الفور ، غير أن نوبار أيّد مسعاها فأذعن والدي في نهاية المطاف . وسوف يشعر برضا عارم ذلك أنني ، وبفضل التعليـم الذي حصّلته على يد أساتذتي ، تفوّقت علـى كـل رفـاقي فـي الصـف منـذ

التحاقي بالمدرسة بحيث غدت الدراسة بمثابة لهوٍ عندي ، اللغات والآداب والبلاغة والعلوم والتاريخ ... كنت أستوعب كل المواد بسهولةٍ تؤكِّد صحة الآراء الغريبة التي يجاهر بها والدي، فقد حصلت ، بفضله ، على تعليم مميَّز ، ومن المؤسف أنني أسأت الاستفادة منه !

في البكالوريا بقسميها الأول والثاني ، حصلت ، دون أن أبذل جهداً أكثر من غيري ، على أعلى مجموع في البلاد . كان ذلك عام ١٩٣٦ أو ١٩٣٧ ، وتصدَّر اسمي الصفحات الأولى في الصحف . كان أبي يشعر بالزهو والانتصار ، فها هو ولده يحلِّق " أصلاً " في المقدّمة ! أما أنا ، وإذا كانت هذه النتائج تحثُّني على المضي قدماً في تحصيلي العلمي ، فقد غدوت ، أكثر من أي وقت مضى ، مصمّماً على متابعته بعيداً عن المنزل وعن المتطلِّبات الأبوية الضاغطة . ورحت أفكر بالذهاب إلى مونبلييه التي كانت كلية الطب فيها من أشهر الكليات .

ومرة أخرى ، تكفلَّت شقيقتي بإقناع والدي . وسوف تنجح في مهمتها بلباقة ، وحجتها أن الطب هو الطريق الأمثل لمن يريد تغيير البشر ، إذ سرعان ما يكتسب صورة العالم والحكيم والمحسن بل والمخلِّص ، فيمنحه الناس ثقتهم في كل شأن ، وعندما تزف الساعة ، يكون قادراً على التحول تلقائياً إلى زعيم وقائد .

هل تكون دراسة الطب هي أفضل سبيل لبناء المستقبل الذي كان يحلم به لي ؟ راقت لوالدي هذه الفكرة ، وهكذا أبحرتُ ، في أواخر شهر تموز على متن الباخرة " شامبوليون" إلى مارسيليا ، بعد أن حصلت على بركته .

وما أن اختفت الأبنية في مرفأ بيروت عند خط الأفق حتى نزلت واستلقيت على كرسي طويل ، مرهقاً ، مرتاحاً ، طليقاً . فليعتقدْ والدي أنني ذاهب متكتماً لأهيىء مستقبلي كقائد ثوري ، أما أنا ، فكانت تحدوني رغبة وحيدة : الدراسة والدراسة ، وكذلك الراحة قليلاً بين الحين والآخر دون أن يحدّثني أحد بعد اليوم عن الثورة والنضال أو نهضة الشرق أو الغد المشرق !

ووعدت نفسي بعدم قراءة الصحف .

لم أشأ أن أقاطع رواية عصيان للتحدث عن انطباعاتي الخاصة . ومع ذلك ، فقد استحضرت بعض الصور من الذاكرة بينما كان هو يتحدَّث .

لقد عرفت داره المشيَّدة من الحجر الرملي على تلة الصنوبر . لم أدخل إليها قط ، بل كنت أمر أمام بوابتها في الحافلة التي تقلُّني إلى المدرسة . أذكرها جيداً ، فهي لم تكن شبيهة بأية دار أخرى – لا عصرية ولا ريفية ولا عثمانية – بل هجينة الطراز . غير أنه يسعني القول أن شكلها العام كان متناغماً ... وأذكر كذلك بوابةً مغلقة عادةً تفتح أحياناً أمام سيارة 'دي سوتو' بيضاء وسوداء ، وحديقةً مدروسة العشب لم يعد يلهو فيها طفل منذ عهد بعيد .

وتعود ذكرياتي إلى أواسط الخمسينات ، اي أن الفترة التي حدَّثني عنها عصيان هي أصلاً قديمة ، بيد أنني قرأت في مجلات وكتب فنية ، وسمعت في بعض الأحاديث حولي إسم دار كتبدار . فقد انطبعت في الأذهان كمعلمٍ رفيع من معالم الحياة الفنية في المشرق في فترة ما بين الحربين . وكانت تُدشَّن فيها المعارض الفنية ، وتقام الحفلات الموسيقية والأمسيات الشعرية ومعارض الصور دون شك على ما أظن ...

لم يذكرها محدِّثي كثيراً ، ففي ذاكرته ، لم تحتل هذه الضجة الثقافية سوى حيِّز ضيق ، وكانت هذه الضوضاء تصم أذنيه ، وتلك الأنوار تعشي بصره ، فيتقوقع على ذاته ويحلم بالرحيل .

دامت جلستنا الأولى خمس ساعات طوال ، اتخذت تارة أسلوب المسامرة والتواصل الحقيقي ، وإن كنت لم أدوِّن أسئلتي إلا نادراً ، وفي أغلب الأحيان ، كان هو يملي عليَّ ، فأقوم بتدوين نص مكتوب أصلاً

في ذهنه . ثم تناولنا في حانة الفندق الذي ينزل فيه وجبة خفيفة ، صعد بعدها إلى غرفته للقيلولة . كنت أعتقد أنه سيكون منهكاً ويؤجّل موعدنا للغد . غير أنه اقترح عليَّ أن نلتقي في المساء ، بدءاً من الساعة السادسة. وبما أنني قد أقلعت عن عادة القيلولة في الغرب ، فقد جلست في أحد المقاهي أعيد ترتيب الملاحظات التي قمت بتدوينها ، ثم عدت لأدق بابه في الموعد المحدَّد .

كان مرتدياً ثيابه ، وقد بدأ يذرع الغرفة بانتظاري ، وجمله الأولى تتحفَّز .

في فرنسا ، صار بإمكاني أخيراً الانسياق وراء أحلامي وتناول الطعام على مائدتي الخاصة ، وهذه ليست صورة مجازية فحسب ، فأنا أذكر المرة الأولى التي جلست فيها تحت شادرٍ على رصيف أحد المقاهي . كان ذلك في مرسيليا ، بعيد وصول باخرتي ، وقبل أن يقلني القطار إلى مونبلييه . كانت الطاولة صغيرة ، من الخشب السميك ، تغطيها آثار سكين . قلت لنفسي : يا لسعادتي ! ما أجمل الرحيل ! ما أروع أنني لم أعد أجلس إلى مائدة أسرتي ! لا مدعوون يسعون للتباهي بحديثهم المنمَّق أو سعة معارفهم ، لا ظلُّ الوالد، ولا نظرته التي تسبر عينيَّ وأعماقي وأفكاري . صحيح أن طفولتي لم تكن بائسةً ، بل ، على العكس ، فقد كنت مدلَّلاً وعشت بمنأى عن الفاقة ، غير أنني لم أسلم أبداً من وطأة تلك النظرة ، نظرة العاطفة الجامحة ، نظرة الأمل ، وفي الوقت نفسه ، نظرة متطلِّبة ، ثقيلة ومرهِقة .

كنت أشعر بنفسي خفيفاً في ذلك اليوم في مرسيليا ، يومي الأول على أرض فرنسا . مرَّت ثلاث فتيات قربي، أمام رصيف المقهى ، وكنَّ

يرتدين أثواباً فضفاضةً و يعتمرن قبعات غريبة شبيهة بتلك التي يعتمرها المجذِّفون في القوارب ، كما لو أنهن هربن من حفلة أو من لوحة . كنَّ يضحكن ، ولم تنظر أي واحدة منهن إليَّ غير أنني شعرت بأنهن تنكّرن في هذا الزي ورحن يتبخترن من أجلي .

وطمأنت نفسي بأنني سوف ألتقي امرأة عما قريب ، وستكون أجمل من تلك الفتيات الثلاثة بل الأجمل على الإطلاق . وسوف نتبادل الهيام ونبقى ساعات طوال متعانقين ، ثم نذهب وقد تشابكت أيدينا للتنزه معاً على الشاطىء . وعندما تقلني الباخرة ، عند انتهاء دراستي ، سوف تتأبط ذراعي فأرنو برأسي نحوها لأتنشق العطر الفاغم المنبعث من جيدها .

غير أنني سأرحل عن فرنسا بعد ثمانية أعوام ، على متن الباخرة نفسها ، دون شهادة الطب ، وإنما مكللاً بهالة القديس المتمرِّد ... كا ذلك حلم والدي ، وليس حلمي ! في مونبلييه ، سرعان ما سوف يذيع صيتي بين طلاب الطب بوصفي " طالباً مجتهداً " . لم أكن أدرس أفضل من غيري ولكنني كنت أدرس بصورة أفضل ، فقد علَّمني أساتذتي الانضباط وعدم الاكتفاء بالإدراك السطحي للأمور بل تخصيص الوقت اللازم لها مع الفهم والاستيعاب ، وهذا أيضاً كنت أدين لهم به ، بصورة جزئية على الأقل . فلم أكن أنسى أبداً ما أتعلَّمه .

ولا أقول ذلك من قبيل التفاخر . فما جدوى تفوقي في دراستي بما أنني لم أصبح طبيباً قط ؟ ولئن تحدثت عن الأمر ، فذلك لأشرح أنني حظيت ، منذ وصولي ، بنوع من التقدير . كنت ، نوعاً ما ، النابغة الأجنبي ، أصغر سناً من معظم زملائي ، أنال دوماً أعلى الدرجات؛ وبالرغم من ذلك ، ودوداً وبشوشاً وخجولاً دون إفراط ، أي باختصار

طيب المعشر ، تغمرني السعادة في هذه البيئة الجديدة حيث ، والحق يقال، لم يبهرني شيء ، إنما كانت تعتريني جملة من الدهشات الصغيرة .

عما كنا نتحدَّث ؟ غالباً ما كانت تدور أحاديثنا حول الأساتذة والطلاب ومشاريعنا في الإجازات . وبالطبع ، كنا نتحدث عن النساء بما أننا كنا عادةً مجموعة من الشبان ، وسرعان ما كنت ألتزم الصمت ، وينتابني الذهول بعض الشيء . فما عساني أقول ؟ كان الآخرون يسردون مغامراتهم الحقيقية أو الملفَّقة ، أما أنا ، فأكتفي بأحلامي ورغبات سني العادية . أصغي إليهم وأشاطرهم الضحك ، ويحمَّر وجهي خجلاً في بعض الأحيان حين يصفون ببعض الإلحاح أجساد النساء .

لم أكن أدلو بدلوي البتة عندما يتحدَّث رفاقي عن " الوضع" . كانوا يذكرون بعض الأسماء ، ومعظمها مألوف عندي ، دالادييه وشوتان وبلوم وماجينو وزيغفريد وفرانكو وأزانيا وستالين وشامبرلين وشوسينغ وهتلر وهورثي وبينيس وزوغو وموسوليني ... كنت أعرف قليلاً كل هذه الشخصيات غير أنني على يقين أنني أقل دراية بها من زملائي . كانوا كلهم واثقين من الأراء التي يطرحونها ، وأنا أعير أذناً صاغيةً حيناً وأستسلم لأحلام اليقظة حيناً آخر ، حسب خطورة الأحداث ونوعية الأحاديث . كان التوتر يتصاعد ثم يخبو حسب وتيرة المؤتمرات الدوليَة والتصريحات الملتهبة وتحرُّكات الجيوش بشكل خاص .

لا ، بالتأكيد ، لم أكن لامبالياً ، وكيف لي أن أكون كذلك ؟ وكنت أعرف من الأشياء أكثر مما أفصح عنه أمام رفاقي ... ولكنهم كانوا يناقشون بأسلوبهم الخاص ، وهم في عقر ديارهم ... ومن ثم ، فأنا كنت معتاداً على الإصغاء بصمت . كنت دائماً ، في أسرتي ، محاطاً على المائدة بأشخاص أكبر سناً وأكثر درايةً أو ثقةً مني ، وعندما يصدف

أن يكون لديَّ رأي حول ما يقولونه ، أصيغه في رأسي ، ولا أطيق أن يسألني والدي على حين غرة : " وأنت يا عصيان ، ما رأيك بالموضوع؟" ذلك أنني لا أعود أفكر بشيء ، كما لو بسحر ساحر ، ويغرق ذهني في ظلام دامس ، وتتعثر الكلمات في رأسي ، فأتلعثم وأتفوَّه بتعليق سخيف ، ويستأنف المدعوون حديثهم .

وبعد ، ففي مونبلييه ، كان لديَّ مضماري الذي يصغي رفاقي إليَّ فيه ، والذي اكتسبت فيه بعض الاحترام . وعندما كنا نتحدَّث في أمور الدراسة ، وهو موضوع يتصدَّر اهتماماتنا ، كان رأيي هو الرأي الذي ترجح كفته ، ويحترمه الآخرون ، ولو كانوا أكبر مني سناً ، فعندما يدور الحديث عن علم الأحياء أو الكيمياء ، لا فرق بين فرنسي وأعجمي...

هل عانيت لأنني كنت غريباً ؟ لا ، والحق يقال . ولئن أعطيتك هذا الانطباع ، فذلك لأنني لم أحسن التعبير . فكوني غريباً هو حقيقة من حقائق وجودي يجب أن آخذها في الحسبان . وكوني ذكراً وليس أنثى، وفي العشرين من العمر ، وليس في العاشرة أو الستين ، لم يكن بحد ذاته أمراً فظيعاً ، بل يعني أن أفعل وأقول بعض الأشياء عوضاً عن أشياء أخرى . كنت أملك أصولي وتاريخي ولغاتي وأسراري ومواضع فخر عديدة ، وربما سحري الخاص ... لا ، كوني غريباً لم يسبب لي الحرج بل كنت بالأحرى أشعر بالسعادة لأنني لست في موطني .

لا ريب أنني شعرت أحياناً بالحنين إلى الوطن ، لا إلى منزل عائلتي . لم أكن على عجلة من أمري للقياه مجدَّداً . وقد تقرَّر أن أعود في أول صيف لأمضي شهراً أو شهرين . بيد أنني، ومع اقتراب العطلة ، كتبت إلى والدي أعلمه برغبتي في زيارة المغرب والجزائر ، إذ كنت

أتوق لاكتشاف هذين البلدين اللذين أشعر بقربهما مني ولا أعرفهما إلا من خلال الكتب والصور ...وفي نهاية المطاف ، ألزمتني وعكة صحية غرفتي طوال الصيف .

كانت وعكة صحية غريبة في الواقع ، فقد انتابتني نوبة سعال مصحوبة بضيق تنفسٍ في الليل أحياناً . واحتار الأطباء في تشخيص حالتي ، فتارةً تحدَّثوا عن أزمة ربو ، وطوراً عن إصابتي بالسل . لم يقتنعوا بأنني لم أشعر بشيء قبل قدومي إلى فرنسا ، بل وتساءلوا في لحظة من اللحظات إذا كنت متمارضاً فحسب .

وفي الواقع ، لم أكن متمارضاً ، لا أبداً ، وسوف تفهم ما أعنيه... ولكن دعني أوَّلاً أتابع في رأسي مجرى الأحداث في تلك الفترة . وسوف أقول ذلك بإيجاز . ابتعدت الحرب عن ميونيخ في أيلول ١٩٣٨، ثم اقتربت من براغ في آذار ١٩٣٩ . لم تعد الشكوك تخامر أحداً حول اندلاعها الوشيك ، وراح معظم الشبان حولي يغالون في الحماس دفاعاً عن قوة جيشهم وضعف جيش العدو الذي أصبح كالغشاء الذي يوشك أن يتمزَّق. ولم يكن لائقاً الإدلاء برأي معارض .

هل كنت أريد قول شيء مغاير أصلاً ؟ في الحقيقة ، لا ، لم أكن أنوي ذلك أو ليس في ذلك الحين . وأعترف أنني كنت أصغي إليهم بمتعة وأشعر بالسعادة لمشاطرتهم يقينهم . فمثلهم ، كنت مطمئناً ، وبكيت مثلهم في حزيران ١٩٤٠ لدى الاجتياح الألماني . كنت مصعوقاً ، إذ لم أعد غريباً ولا بأي شكل من الأشكال . كان الأمر أشبه بمأتم وأنا من عائلة الميت ، أبكي وأحاول تعزية الآخرين بقدر ما كانوا هم يهدِّئون روعي .

عندما تحدَّث بيتان ، أصغينا إلى خطابه . كان يقول باختصـار إن الأمور لم تسر على ما يرام وأننا نجتاز جميعاً مرحلـة عصيبـة ، وسـوف يحـاول هو تجنيبنا الأسوأ . هكذا فهمنا كلامه .

أما ديغول ، فلم أسمع نداءه في ذلـك اليـوم التـاريخي مـن شـهر حزيران ، وكذلك أصدقائي لم يسمعوه . غير أننـا سرعان مـا سـنعرف فحواه ، في اليوم التالي على ما أعتقـد . لـم يتكوَّن لدينـا الانطبـاع وقتئـذٍ بأنه علينا الاختيار . كان يجب ، من جهة ، إنقـاذ مـا يمكـن إنقـاذه وسـط الهزيمة . وللقيام بذلك ، من الأفضل مهادنة المنتصر لفترة مـن الوقـت ، وهذا ما فعله بيتان . ومن جهة أخرى ، كان يجب الاستعداد للانتقام العتيد بدعمٍ من الحلفاء دون تسويةٍ أو تنـازلات ، وهـذا مـا قـام بـه ديغـول فـي لندن. وقد أشـاعت هـذه الرؤيـة بعـض الطمأنينـة فـي نفوسـنا الحزينـة . ولكـن كـم دامـت هـذه الرؤيـة ؟ لقـد اسـتمرت أربعـة أعـوام بالنسـبة إلـى البعض. وبضعة أيام بالنسبة إلى البعض الآخر .

أما أنا ، فقد استمرَّت عندي فصلاً كاملاً ، في ذاك الصيف حتى حلول شهر تشرين الأول . وما زلت أذكر ذاك الحادث الـذي قلـب حيـاتي رأساً على عقب . حـدث ذلـك فـي إحـدى حانـات مونبلييـه تدعـى " كـرة الألزاس"، خلال نقاش حول كأس من الجعة ، كان بوسعي حضـوره مـرة أخرى كمتفرِّجٍ صامت . غير أنني لم أحسن التزام الصمت يومئـذٍ . كلمـة زائدة ، نظرة إضافية ، كأس أكثر مما ينبغي . وما أدراك بحيل القدر !

كنـا سـتة أو سـبعة شـبان جالسـين حـول الطاولـة ، وقـد أعلنـت حكومة فيشي لتوّها القانون حول وضـع اليهود الذي يحدِّد ، من بيـن أمـور أخرى ، الميادين – كالتعليم – التي سـوف يستبعدون عنهـا . وقـد انـبرى

أحد الطلاب يشرح مدى حذاقة هذا القانون . ما زلت أذكره وأذكر ملامح وجهه . كان أكبرنا سناً ، وقد أرسل لحية صغيرة ، يتجوّل دائماً وبيده عصا . لم يكن ينتمي إلى حلقة الأصدقاء الذين أعاشرهم غير أنه ينضم إلينا أحياناً بعد المحاضرات . كان يرى أن الألمان قد طلبوا من بيتان أن يدعهم يدخلون " المنطقة الحرة" وذلك " للاهتمام" باليهود الذين يعيشون فيها ، وقد فطن الماريشال إلى حيلتهم فاستبقها وسنَّ هذا القانون بنفسه .

وإذ أعرب الشاب عن رضاه لهذا التحليل ، أفرغ كأس الجعة الموجود أمامه وطلب كأساً أخرى بإيماءة من إصبعه ، ثم التفت إليَّ وراح يحملق بي . لماذا أنا بالذات ؟ فلم أكن جالساً قبالته غير أن تعبيراً في نظرتي ربما ضايقه . " ما رأيك يا كتبدار ؟ نحن لا نسمعك أبداً ! أنطق ، ولو لمرة واحدة ، واعترف أنها حيلة بارعة! ".

وراح الآخرون بدورهم يحدّقون إليَّ ، حتى أعز رفاقي ، كانوا يرغبون بمعرفة ما يخفيه صمتي الدائم . وحفظاً لماء الوجه ، تحدَّثت "ولو لمرة واحدة " . وإذ اخترت أكثر النبرات تواضعاً ، قلت تقريباً ما يلي: "إذا فهمتك جيداً ، فالوضع أشبه برجل يدخل الآن إلى هذه الحانة شاهراً عصا وينوي قتلك ، وأنا أراه يقترب ، فأتناول هذه الزجاجة وأحطمُّها على رأسك ، وإذ يرى الرجل أن مهمته قد انتهت ، يهز كتفيه وينصرف، فتكون الحيلة قد انطلت " . وبما أنني كنت أتكلَّم دون ابتسامة وبالنبرة المطيعة والمتردّدة للتلميذ الذي يجيب على أسئلة أستاذه ، لم يفهم الشاب على الفور أنني أسخر منه ، بل راح يقول في البداية : " نعم ، مرحى لك، هذا هو الوضع تقريباً ... " ، حين انفجر الآخرون حولنا يقهقون عالياً . وعندها فقط ، احمَّر وجهه وتشنجت يداه الموضوعتان على

الطاولة . لم تحدث مشاجرة واكتفى بشتيمتين ثم أزاح كرسيه بصخب مديراً لي ظهره ، وأنا بدوري انسحبت مباشرة بعد ذلك .

كان مجرَّد شجار صبياني ، أليس كذلك ؟ غير أنه زعزع كياني. فقد خلت أنني تحدَّثت في بوق وأن المدينة بأسرها سمعتني .

وربما شعر غيري بالارتياح لأنه أفرغ "جعبته" كما يقال ... أما أنا فلا ، كنت ثائراً ، حانقاً على نفسي . فهذه الأمور غالباً ما تحدث معي . أبقى صامتاً لدهورٍ حتى أنسى طعم الكلام ، وفجأة ينهار السد وألفظ كل شيء ، كل ما احتبس في داخلي ، فتتدفق ثرثرة جامحة ألوم نفسي بسببها حتى قبل أن ألتزم الصمت من جديد .

في ذلك اليوم ، وبينما كنت أسير في أزقة مونبلييه ، لم أكفّ عن تقريع نفسي . كان يجب أن أسيطر على انفعالاتي ! والأجدر بي أن أتعلّم لجم مشاعري ! لا سيما في زمن الحرب ، عندما يعتري الناس اليأس . ورحت أهيم في المدينة ، لا ألوي على شيء ، ولا أرى أحداً أو شيئاً من حولي لشدة ما اجتررت ندمي ...

كنت قد استأجرت غرفة تقع في سقيفة فسيحة ومتقشفة ، لدى امرأة تدعى السيدة بيروا . وإذ ارتقيت السلالم اللامتناهية ، وأدرت المفتاح الضخم في قفل الباب ، كنت لا أزال ممعناً في التوبيخ والتأنيب . لن أطأ أبداً عتبة تلك الحانة ! لن أنساق البتة وراء هذا النوع من الشجار! ألم أعاهد نفسي على تخصيص كل وقتي للتحصيل والدراسة ، ولا شيء سواهما ؟ لقد أخطأت إذ نسيت أنني في بلد غريب ، والأدهى من ذلك، بلد مهزوم ، نصف محتلّ ، مجتزأ السيادة ، قد ضلّ السبيل ..

كنت قد تناولت لتوي ، بغضب ، محاضراتي في علم الخلايا ، مصمماً على إعادة قراءتها عندما سمعت قرعاً على الباب . كان شخصاً لمحته في الحانة ، جالساً إلى طاولة مجاورة لطاولتنا بصحبة ابن صاحب الحانة . قال لي: " لقد اقتفيت أثرك منذ أن غادرت الحانة ". كان على الأقل صريحاً ، وأردف قائلاً : " لقد سمعت نقاشكم ، أعتذر فقد كنت جالساً على مقربة منكم ، وأنتم تتحدثون بصوت عالٍ عن موضوع يهمن... كما يهم كل واحد منا على ما أظن ".

لم أقل شيئاً ، إذ كنت لا أزال حذراً ، وتفحصت هيئته . كان ناحل الوجه ، فاحم الشعر أشعثه ، مع خصلة تنتصب كالعرف من مفرقه النصفي ، يحمل سيجارة من ورق الذرة لم يشعلها بل راح يلهو بها ، فتارة يسحقها بين أصابعه ، وطوراً يعض عليها بين أسنانه . كنت آنئذٍ في الواحدة والعشرين ، وهو يناهز الثلاثين .

" ما قلته منذ قليل ، لو أردت أنا التعبير عنه ، لقلته بالأسلوب نفسه حرفياً ". وأشرق وجهه بابتسامة مشعة سرعان ما اختفت . "ولكنني أفضل التزام الصمت ، على الأقل في الأماكن العامة ، فالذين يجاهرون بآرائهم ، يعيقون أنفسهم عن التحرك . ففي هذه الأوقات العصيبة ، يجب توخي الحذر والتأكد من الأشخاص الذين نخاطبهم ، ومعرفة ما نريد وأين نذهب في كل لحظة ، فكل شيء ما يزال ممكناً ، ولم يفت الأوان بعد ، شرط أن نبقى متضامنين ويقظين " .

ومدَّ يده مصافحاً ، فعرَّفت عن نفسي :

- إسمي كتبدار .

- يمكنك أن تدعوني برتران .

احتفظ بيدي طويلاً في يده كما لو أراد التأكيد على اتفاق ضمني، ثم فتح الباب لينصرف :

- سوف أعود لزيارتك .

لم يقل لي شيئاً يذكر ، ومع ذلك ، فانخراطي في صفوف المقاومة بدأ منذ تلك الزيارة الخاطفة . وهل تعرف الجملة المهمة ، تلك التي انطبعت في ذاكرتي حتى الساعة مع النبرة التي قيلت بها بالضبط ؟ "يمكنك أن تدعوني برتران !" . لقد قلت له اسمي الحقيقي ، أما هو فلم يفصح سوى عن اسم مستعار . كان متخفياً على ما يبدو . وفي الحقيقة ،

لقد كان العكس صحيحاً ، فلقد أماط اللثام عن هويته ، وكانت جملته "يمكنك أن تدعوني ..." تعني ما يلي : هذا إسمي الحركي ، وأمام الآخرين ، تصرَّف كما لو كان إسمي الحقيقي ، ولكن أمامك ، وبما أنك أصبحت في عدادنا ، فلا حاجة بي لأظهر الكذب كما لو أنه الحقيقة .

لم أكن قد فعلت شيئاً بعد ، ولكنني شعرت بنفسي قد تغيرت . بت أخال أنني أسير في الشوارع بصورة مختلفة ، وأنظر إلى الآخرين ، وهم ينظرون إليَّ ، وأتكلم بصورة مغايرة . وبعد المحاضرات في الكلية ، لا تتملكني سوى رغبة ملحة واحدة ، هي العودة إلى سقيفتي لانتظار برتران ، وكلما سمعت صريراً على السلالم الخشبية ، أهرع نحو الباب.

لم أنتظره طويلاً ، فقد زارني بعد يومين ، وجلس على الكرسي الوحيد في غرفتي ، واتخذت لي مكاناً على السرير ، وقد أعلن قائلاً : "الأنباء ليست على هذا القدر من السوء ، فالطيارون الإنكليز يقومون بالمعجزات". وذكر لي عدد الطائرات التي أنزلوها مما أثلج صدرنا . وأخبرني كذلك أن الإنكليز قد قصفوا شربورغ ، ولم يكن راضياً تماماً عن ذلك : " لا شك أن هذا القصف ضروري عسكرياً ، غير أن شعبنا لا يجب أن يخطيء في تحديد العدو ..." . ثم طرح عليَّ بعض الأسئلة بتحفظٍ حول جذوري وآرائي . كنت مدركاً أنه يخضعني لامتحان دخول ولكنه قام به على طريقة الحديث بين صديقين يسعيان للتعرف بصورة أفضل على بعضهما البعض .

وقد ذهل لإحدى ملاحظاتي ، وربما عبَّرت عنها بأسلوب أخرق بعض الشيء ، فقد أخبرته أن النزاع الأزلي بين الألمان والفرنسيين لا يثير اهتمامي أو ، في مطلق الأحوال ، لا يثير ثائرتي . ففي عائلتي ، درجت العادة على أن نتعلَّم الألمانية والفرنسية معاً ، منذ أن اقترن أحد

أسلافي بامرأة بافارية ، ونحن نكنُّ الاحترام للثقافتين على حدٍّ سواء . وأعتقد أنني استرسلت في كلامي وُتجاوزت فكرتي بعض الشيء فقلت إن كلمات كاحتلال ومحتلّ لا تثير لدي التمرد الفوري الذي قد تثيره لدى فرنسيٍّ ، فأنا أنتمي إلى منطقة من العالم شهدت ، على مر العصور ، احتلالات متعاقبة ، وقد احتلَّ أسلافي أنفسهم ولقرون عديدة جزءاً كبيراً من حوض المتوسط . أما ما أمقته بالمقابل فهو الحقد العنصري والعنصرية نفسها ، فوالدي تركي ووالدتي أرمنية ، ولئن تلاقيا وسط المذابح ، فذلك لأن ما وحَّدهما كان رفضهما للحقد . وقد ورثت ذلك عنهما . وهذا هو موطني . لم أكره النازية يوم اجتاحت فرنسا بل يوم اكتسحت ألمانيا . ولو ظهرت في فرنسا أو في روسيا أو في بلادي ، لكرهتها بالقدر نفسه .

نهض برتران عند هذا الحد وصافحني للمرة الثانية ، معلِّقاً بنبرة مجرَّدة : " أفهمك ! " ، تلفَّظ بها بصوت خفيض دون أن ينظر إليَّ كما لو أنه يرفع تقريراً أمام سلطة خفية .

لم يخبرني بعد عن نشاطه ولا عن التنظيم الذي ينتمي إليه ، إن وجد ، ولا ما يتوقعه مني . ولم يقل لي ، هذه المرة ، إذا كان ينوي زيارتي من جديد .

وكما ترى ، فقد كانت بداياتي في المقاومة خجولةً .

زارني بعد شهر ، وعندما عاتبته عتاباً لطيفاً لأنه تركني دون خبر ، ارتسمت على وجهه ابتسامة راضية ، ثم أخرج من جيبه رزمة من الأوراق المائلة إلى الزرقة . لم أكن أعرف بعد أنهم يدعونها مناشير . ناولني واحداً منها لأقرأها ، وكان المنشور يقول ببساطة : " في الأول من

تشرين الثاني ، أسقط طيار من قوات فرنسا الحرة طائرة مائيـة ألمانيـة ، فـإلى أي جـانب تقفـون ؟ " وفـي الزاويـة ، أسـفل المنشـور ، كتبـت كلمـة "حرية! " على اليميـن مـع علامـة تعجـب وبيـن مزدوجيـن كـي يُفهـم أنهـا ليست صرخة بل توقيعاً .

– ما رأيك ؟

وأضاف على الفور بينما كنت أبحث عن كلماتي :

– ما هي سوى البداية .

ثم شرح لي كيف يجب ان أتصـرف ، وكـانت مهمتـي أن أضـع هذه الأوراق الصغيرة بسرية في صناديق البريد أو تحت الأبـواب ، فـي كل مكان ، ومن الأفضل أن أتجنَّب الكلية ، في بادىء الأمر ، أو الحـي الذي أقطن فيه كي لا أثير الشبهات ، وألا أثير الشبهات وأن أعتـبر هـذه المهمـة الأولـى بمثابـة تمريـن ، والمهـم ألا يفتضـح أمـري : " إليـك مئـة منشور ، ضعها في جيبك ، ووزّعها كلهـا ، وإيـاك أن تعيد واحـداً منهـا إلى مسكنك ، ولكن يمكنك الاحتفاظ بمنشور واحد فقط ، إنمـا وسِّخه كمـا لـو أنـك وجدتـه فـي الشـارع ، ولا تعـد أبـداً إلـى مسـكنك حـاملاً رزمـةً ، والمناشير التي لا تستطيع توزيعها ، إرم بها " .

امتثلت لأوامره بحذافيرها ، وجرت الأمور على ما يـرام تقريبـاً. وسوف يزودني برتران على دفعات بإعلانات أو مناشير نصوصـها أكـثر إسهاباً ، ويجب توزيعها أو لصقها على الجدران ، ولم يكـن الأمـر يـروق لي كثيراً إذ يحتاج لصقها إلى الغراء ، ومهما كان المرء بارعـاً ، فسـوف تتسخ يداه وثيابه ، كما لو أنه يحمل على جسده الأدلة الدامغة على جنحتـه لو ألقي القبض عليه . لم يـرق لـي الأمـر ، ولكنني لـم أمـانع القيـام بـه ، وقمت بكل شيء تقريباً في مجال الدعاية بما في ذلك الخربشة بالطبشور ،

خفيةً ، على جدران المدينة ، وهي بدورها تخلّف آثاراً على اليدين وفي الجيوب .

عندما أتذكر أنني عاهدت نفسي ، عند وصولي إلى فرنسا ، ألا أقرأ الصحف ! لقد تسرعت في قراري ، فبحكم منبتي وتربيتي ، لم أكن قادراً على عدم الاكتراث لما يحدث حولي . غير أن الأمور تطلبت بعض الظروف المعينة ؛ وعلى هذا النحو ، بعد ذلك الشجار في الحانة ، عقدت العزم ، كما قلت ، على عدم التورط في مثل تلك النقاشات ، وتهيأت لاتخاذ قرارات حاسمة ... حين وصل برتران . كانت صدفةً ، أليس كذلك ، أو ، إذا ما شئنا ، مشيئة الأقدار . ولو لم يظهر ، لكنت أمضيت الشهور اللاحقة منصرفاً إلى دراستي . لقد شاءت الأقدار أن يكون موجوداً في تلك الحانة ، جالساً إلىالطاولة المجاورة ، وأن يسمع حديثنا ويقتفي أثري ، ويجد الكلمات المناسبة " لتجنيدي" . بهدوءٍ وسرية . كان سيسألني إذا كنت أود الانخراط في صفوف المقاومة ، وكنت سأطلب مهلة للتفكير ، وربما أرفض في نهاية المطاف . بيد أنه تصرف ببراعة فائقة بحيث لم أضطر ، ولا للحظة واحدة ، أن أسأل نفسي ، بصورة واضحة ، السؤال الآتي : هل أنضم إلى المقاومة ؟

كان كل شيء معه يتقدم بخطى خفية . وفي أحد الأيام ، وكنت قد أنجزت مجموعة من العمليات المحدودة ، مر لزيارتي وتجاذبنا أطراف الحديث ، وإذ هم بالانصراف ، قال لي : " عندما سأحدث الرفاق عنك ، من الأفضل ألا أذكر اسمك الحقيقي ، فكيف ندعوك ؟ " كان يوحي بأنه يبحث عن اسم مناسب ، ولكنه في الواقع ينتظر اقتراحاً مني . فقلت : "باكو " . وهكذا صار لي اسم حركي .

باكو ، أجل ، كالمدينة التي تحمل الإسم نفسه ، ولكن دون أية علاقة بها . وفي الواقع ، كان لقب تودُّد يدعوني به جدي نوبار ، هو وحده دون غيره . كان يدعوني أصلاً " أباكا " ، وهي كلمة أرمنية تعني "مستقبل " مما يوحي بكل الآمال التي يعقدها عليَّ ، هو أيضاً ! ثم تحول الإسم ، من مداعبة إلى أخرى ، إلى "باكو " .

أصبح للجميع ، في الشبكة التي يديرها برتران ، أسماء حركية ومهاماً محددة . وولى الزمن الخجول الذي كنا نوزع فيه المناشير ونخربش شعارات على الجدران ، فقد انتقلنا إلى مرحلة أرقى ، وسوف تصبح لنا صحيفتنا الخاصة ، صحيفة بكل ما للكلمة من معنى، محرَّرة ومطبوعة وتصدر كل شهر ، وربما أكثر من مرة في الشهر حسب ما تقتضيه الأحداث .

كان اسمها : " حرية ! " ، وهو أيضاً إسم الشبكة ، ففي تلك الأزمنة المظلمة والكالحة ، كنا بحاجة إلى أكثر العناوين إشراقاً .

ذهبت إلى ليون لاستلام نسخ العدد الأول من شقة فخمة تقع في وسط المدينة ، بصحبة أحد الرفاق ، برونو ، إبن صاحب الحانة إياها ، وهو شاب ضخم الجثة قد أجلح قبل الأوان ، أنفه مكسور كأنف الملاكم ، وكان السير إلى جانبه يمنحني شعوراً سخيفاً بالأمان .

بعد صدور العدد الثاني من الصحيفة ، وجدنا وسيلة أخرى لتوزيعها ، فتقرر أن تقوم الشاحنة التي تسلم الجعة إلى الحانة بنقل نسخ الصحيفة إليها . كانت فكرة عبقرية ، فنصل إلى الحانة ... وأقول " نحن" لأن برتران قد جنَّد ثلاثة طلاب غيري في مونبلييه . كنا مجموعة صغيرة وفعالة ، غير أن شملها سرعان ما سينفض ؛ نصل إذن إلى الحانة ،

فيومىء لنا برونو ، وننزل إلى القبو ، ويأخذ كل منا ثلاثين أو خمسين نسخة وننصرف دون أن نثير الشبهات .

وقد نجحت هذه الحيلة العبقرية دون عراقيل لأكثر من سنة . وكنت أسمع الناس في الجامعة ، وفي كل أرجاء المدينة ، يتحدثون عن "حرية! " ، ويعلقون على مقالاتها ، ويسألون بعضهم البعض إذا وصلهم العدد الأخير في صندوقهم البريدي .كان الرأي العام يتحرك ، ونحن نشعر بذلك ، وبالرغم من أن معظم الناس ظلوا يحترمون بيتان ، فقد كانوا لا يكنون بالتأكيد أي احترام لحكومته أو وزرائه ، وأولئك الذين يدافعون عنه يعترفون رغماً عنهم أنه لم يعد سيد القرار ، وأن تقدّمه في السن وأوضاعه العسكرية يبرران بعض تصرفاته الطائشة .

كنت على يقين أن لا أحد ، خارج مجموعتنا ، يرتاب بنشاطاتي. ولكن ، ذات يوم ، إذ وصلت كعادتي إلىالحانة لأستلم العدد الأخير من الصحيفة ، لمحت شاحنة الجعة محاصرة بثلاث سيارات للدرك ، وبعض عناصر الأمن منهمكين في حمل بعض الرزم ونقلها. كانت الحانة تشرف على ساحة صغيرة مزروعة بأشجار الدلب ، يضع صاحب الحانة تحتها أحياناً بعض الطاولات حين يكون الطقس جميلاً وهادئاً ، وكانت ستة أزقة تفضي إليها ، وأبسط قواعد الحذر تحملني على عدم سلوك الزقاق نفسه كل مرة .

في ذلك اليوم ، سلكت زقاقاً يفضي بعيداً عن الحانة ، مما أتاح لي ملاحظة ما يجري في الوقت المناسب والعودة أدراجي قبل أن يفتضح أمري . مضيت في طريقي مباشرة ، ورحت أسير الهوينا في بادىء الأمر ، ثم حثثت الخطى ، وكدت أركض .

كنت أشعر بالذنب أكثر من شعوري بالخوف ومرارة الفشل ، وألحَّ عليَّ هذا الشعور حين عدت إلى غرفتي في ذلك اليوم ، ورحت أتساءل دون توقف إذا كنت أنا الشخص الذي اكتشف عناصر الأمن أمره واقتفوا أثره ، وإذا تمت مداهمة المخبأ في الحانة بسببي .

لماذا أنا ؟ لأن حادثاً وقع في الأسابيع المنصرمة وأثار ريبتي وقتها ، غير أنني قررت ألا أعيره أهمية كبيرة .

فإذ كنت خارجاً من مسكني بعد الظهر ، صادفت دركياً ببزته العسكرية ، وأغلب الظن أنه كان يراقب المكان ، وقد ارتبك لرؤيتي وحاول الاختباء تحت السلالم . وأثار وجوده ريبتي وقلت لنفسي إن الحذر واجب غير أنني لم أكترث للأمر ولم أخطر لا برونو ولا برتران . أما الآن ، فقد راح الندم يتآكلني بل شعرت بعذاب شديد يتملكني .

في ذلك اليوم إذن ، وإذ ابتعدت عن الحانة ، توجهت تلقائياً نحو الحي الذي توجد فيه الغرفة التي استأجرتها قرب " ساحة الكوميديا " والمعروفة في مونبيلييه " بساحة البيضة " .

أكان ذلك أفضل حلٍّ أجده ؟ في الواقع ، كان لديَّ الخيار بين ثلاثة حلول : التواري عن الأنظار على الفور ، والاسراع نحو محطة القطار ، وركوب أول قطار والهروب دون وجهة محدَّدة بدلاً من أن أعرِّض نفسي للاعتقال . وكان بوسعي كذلك الاحتفاظ برباطة جأشي والعودة إلى غرفتي والتخلص من كل الأوراق المشبوهة واستئناف حياتي الطبيعية على أمل ألا يشي أحدهم بي وألا يتعرَّضوا لي . وكان ثمة حل وسط ، وهو العودة إلىغرفتي لترتيبها وأخذ بعض الأشياء التي قد أحتاجها وإعلام المالكة ، السيدة بيروا ، بأن بعض الأصدقاء دعوني

لقضاء فترة في الريف ، مما يسمح لي الابتعاد ثم العودة بعد أيام دون أن أثير الشبهات باختفائي المفاجىء عن الأنظار .

واستقرَّ رأيي على هذا الحل الأخير - أي الحل الذي يتراوح بين الهلع والثقة المفرطة - فغيرت طريقي بعض الشيء كي أضلِّل من يقتفي أثري ، ودرت حول حي " البيضة " ...

وإذ أصبحت على بعد أمتار من مسكني ، لمحت دركياً ببزة عسكرية يدخل المبنى ، وما كنت لأتعرف عليه لولا ندبة داكنة كان يحملها على وجهه ، تمتد من الفك حتى زاوية العين . إنه الدركي نفسه الذي صادفته في المرة السابقة ! فعدت أدراجي وقصدت مباشرة محطة القطار .

أين أذهب ؟ لم أكن أعرف عنواناً أقصده سوى تلك الشقة البرجوازية في مدينة ليون والتي ذهبت إليها من منذ شهر بصحبة برونو لاستلام أعداد الصحيفة ، ويسكنها زوجان شابان ، دانييل وإدوار. وإذا أسعفني الحظ، فقد أجدهما وأطلب منهما تأمين الاتصال ببرتران وسائر أعضاء الشبكة .

عندما قرعت بابهما ، كانت الساعة التاسعة مساءً ، وبدا الإحراج على الرجل وهو يدعوني للدخول . ذكّرته بلقائنا السابق وشرحت له ما حدث . هزّ رأسه بتهذيب يشوبه القلق والتشنج خوفاً من أن يكون أحدهم قد اقتفى أثري . وعندما أجبته : " لا أظن " ، ارتسم على وجهه الامتعاض وكأنه يقول لي : " لا يكفي أن تظن ! " . وسرعان ما تدخلت دانييل التي كانت أكثر دماثة من زوجها وقالت : " دعونا لا نستسلم للهلع سريعاً ، سيكون كل شيء على ما يرام ، أفترض أنك لم تتناول العشاء..." كانوا ثلاثة إلى المائدة ، مضيفيَّ وامرأة شابة .

قدَّمت نفسها . كان اسمها مركَّباً ، لفظته بسرعة ، ولا شك انه اسمها الحركي . وعرّفت عن نفسي بدوري قائلاً: "باكو" .

قالت مضيفتنا : " باكو "، إنه اسم جميل '.

- لقد اختاره لي جدي ، وهو تصغير لكلمة تعني " مستقبل " . فقد كان مقتنعاً أن ترداد هذا الإسم قد يجعل العناية الإلهية تمنحني مستقبلاً زاهراً .

وتعجبت الزائرة : " هل تعني أنه اسمك الحقيقي ؟ "

- لا ، إنه اسم مستعار ولكن روايتي حقيقية .

رمقني الثلاثة بنظرة ثابتة لثوان معدودة ، ثم ضحكنا ضحكة صافية قالت الضيفة على أثرها : " لم أضحك منذ أشهر عديدة " . كانت تقول ذلك ، وهي لا تزال تضحك ، غير أن الرجل وزوجته توقفا فجأة عن الضحك . وتمحور حديثنا حتى انتهاء العشاء حول حدث

الساعة، وكان معركـة سيباستوبول وإعـلان حكومـة برليـن عـن استسـلام المقاومة الروسية في تلـك المدينـة . وأجمـع المضيفـان علـى القـول أنـه ، وبالرغم من تقدم القوات الألمانية ، ففتح الجبهة الشرقية الـذي تزامـن مـع دخول الولايات المتحدة الحرب وآثاره المتوقعة ، يشـيع الأمـل والتفـاؤل . وخلتُ من بعض ملاحظاتهما أنهما شيوعيان ، وما أثار عجبي قليـلاً هـو أن صـديقنـا المشـترك برتـران كـان ديغوليـاً وكاثوليكيـاً ولا يتحـدث عـن الشيوعيين إلا بنبرة تشوبها الريبة والحذر .

وما كاد العشاء ينتهي حتى انسـحب إدوار إلـى غرفتـه ، ودلتنـي دانييل إلى الغرفة التي سـوف أمضـي الليلـة فيهـا، وكـانت تنتظرنـي علـى السرير بيجاما لزوجها ومنشفة نظيفـة ، ثـم اقـترحت علينـا مضيفتنـا أن نتناول كأساً من الكونياك في البهو .

كانت الضيفة الشابة تثير فضولي برقتها وشعرها الفـاحم القصـير وعينيها الخضراوين الفاتحتين والمشدودتين علـى الطرفيـن قليـلاً واللتيـن تنغلقـان كلمـا ابتسـمت ، ووجههـا النضـر والأسـيل . كـانت تظهـر حـول عينيهـا، كلمـا أغلقتهمـا ، هالتـان مـن التجـاعيد الصـغـيرة كأشـعة شـمس مزدوجة . وحاولت جاهداً ألا أحدِّق فيهـا طـوال الوقـت، ولكننـي كنـت لا أقوى علـى إشـاحة نظـري عنهـا . فرحـت أنقِّل الطـرف مـن عينيهـا إلـى شعرها تارةً ، ومن شعرها إلى عينيها طوراً . كان ينبعث منها مزيج من الثقة والعفوية.

كانت تتكلم فرنسيةً صحيحةً ، ولكن بلكنة أكثر غرابة من لكنتـي، فلم أفلح في تحديد أصلها . وساورتني الرغبة بأن أسـألها عـن هويتهـا ، ومن أين جاءت ، وسبب وجودها في هذه الشقة بمدينـة ليـون... ولكـن لا مجـال لطـرح الأسـئلة فـي الوضـع الـذي كنـا فيـه . وتحدثنـا عـن مجـرى

الحرب ووضع الرأي العام وروح المقاومة وبعض عملياتها البارزة ، أما في ما يتعلق بنا ، فقد اكتفينا بأسمائنا الحركية ، ورحنا نحاول التخمين ، من خلال كلام كلٍّ منا و لهجته ، موطنه الأصلي والبلد والمنطقة والمحيط والطائفة .

ثم وصلنا في أحاديثنا إلى معركة شمال أفريقيا والأنباء الأخيرة ومفادها أن موسوليني يستعد للدخول ظافراً إلى مصر ، عندما انسحبت مضيفتنا بدورها ، وكانت تتثاءب منذ بعض الوقت ، قائلةً : " لا داعي للخلود إلى النوم على الفور ، أكملا كاسيكما بهدوء ".

وانصرفت ، فخيَّم الصمت فجأة ، وتعذَّر استئناف الحديث ، فقلت كما لو أنني أقرأ في كتاب :

- يبدو أن دانييل قد اصطحبت معها الحديث سهواً .

وسمعتُ الضحكة نفسها التي صدحت بها الضيفة أثناء العشاء . كانت ضحكة مرحة وحزينة معاً ، طليقةً ومتحفظةً . كانت أعذب موسيقى في الكون ! وهاتان العينان اللتان تغوران أمامي !

وسألتني على حين غرة : " بماذا تفكِّر ؟ "

كان الأمر يتطلب مني الكثير من الوقاحة لأجيب ببساطة : "أفكِّر بك ! " . لذا ، فضلت الإجابة بصورة ملتوية :

- كنتت ألعن الحرب ، وأتمنى لو كنا في هذا البهو ، نرتشف كأس الكونياك ونتجاذب أطراف الحديث دون ذلك الكابوس الجاثم فوق صدورنا ، ودون ذلك الرعب ، و الشعور بأننا مطاردون ...

فقالت : " .. أو تعرف أننا ، لو لم نتعرَّض للمطاردة ، لما كنا هنا ، في هذه الشقة ، نحتسي الكونياك معاً ..."

وخيَّم الصمت من جديد . وأخفضت عيني ، إذ كانت هي التي تتأملني بدورها . وحدّقتُ في القطرة السمراء الموجودة في قعر كأسي. وفجأة ، سمعت تلك الكلمات التي كانت في غاية البساطة : " إسمي الحقيقي كلارا ، كلارا إيمدن " .

كيف لي أن أصف ماذا عنت لي تلك الجملة ، وفي تلك الظروف؟ فقد دخلنا بصورةٍ ما في سرية أخرى ، ولكنها سرية حميمة هذه المرة ، إذ انتهكنا قواعد الحذر . كنا جالسين كلٌ على اريكته ، غير أننا متعانقان بالفكر ، وبالنظرات بعض الشيء .

وكشفت لها بدوري عن اسمي . إسمي الكامل ، وعن أشياء كثيرة ، عائلتي وأصولي ودراستي وطموحاتي ، أشياء لم أبح بها قط لأحدٍ من قبل ، ولاحتى لنفسي ، بهذه الطريقة ... والحق يقال إنني اكتشفت بعض الأشياء التي كانت دفينة في أعماقي وأنا أبوح بها في تلك الليلة .

ثم تحدَّثت بدورها ، عن نفسها ، وطفولتها ، ومدينتها "غراتز" في النمسا حيث أبصرت النور . وفي البداية ، ضحكنا معاً ، وهمنا في بحر من الأفكار ، في كل هؤلاء الأسلاف ذوي العادات الغريبة ، والمهن الطريفة ، كل تلك الأسماء التي تثير الأحلام من بعيد ، لوبليانا، أوديسا ، فيتيز ، بيلسن ، أو ميميل . ولكنها فجأة راحت تتحدث عن أشياء اخرى ، وعن أماكن أخرى ، ليست مواطن أو بلدان هجرة بل رحلة نحو الظلمات. كانت الرحلات تتوقف ، والدروب لا تمضي من القرية إلى المدينة ، والقطارات لا تنتقل من محطة إلى أخرى . واعترت الحدود الجغرافية غشاوة ، ولم أعد قادراً على تحديد الأماكن أو رؤية الوجوه ،

وكل ما استطعت تخيله هو مشهد رجال ببزات عسكرية وأخرين بلباس السجناء في مناخ تسوده المعتقلات والأسلاك الشائكة .

لقد فقدت كلارا كل أثر لأهلها .

لا يجب الاعتقاد أننا لم نكن على علم ، في تلك الفترة ، بمعسكرات الاعتقال . كانت صحيفتنا " حرية! " تدين باستمرار المعتقلات والمذابح . كنا نعرف الكثير عما يجري . وتكاد الرغبة تساورني بأنا عرفنا كل شيء، ما عدا الشيء الجوهري ، كل شيء ، ما عدا ذاك الشيء الذي يستعصي على الفهم ، والذي اجتمعت فيه كل الأشياء لأنه كان يبدو مريعاً جداً حتى من جانب النازيين ، وهو إرادة الإبادة التامة . وحتى كلارا التي شهدت الكثير من الأمور ، لم تتحدث عن ذلك ، بل كانت تتكلم على اضطهاد أكثر شراسةً من أي وقت مضى في التاريخ ، ولكنها لم تذكر " الحل النهائي " فالنفس البشرية يجب أن تشتمل على جانب مريع للتفكير ، بل لمجرَّد التفكير بمثل هذا الاحتمال .

كانت قد فقدت عائلتها بأكملها . ففقدتها بكل ما للكلمة من معانٍ، فقد مات البعض ، وتشتت البعض الاخر في أماكن الرعب... وكانت لا تزال تأمل أن ينجو البعض.

عندما اعتقلت عائلتها ، كانت هي موجودة عند صديقة كاثوليكية ساعدتها على الاختباء ثم الهرب إلى سويسرا .

نعم ، إلى سويسرا . ومن هناك ، وفي حين كانت تعيش في أمان تام ، قررت المجيء إلى ليون ، إذ لم تكن تطيق التصور أن البشر يتناحرون ، وأن غيرهم يموتون من أقاربها بينما هي تكتفي بالبقاء في

ملاذها . فاتصلت بأحد أعضاء الشبكة الذي ساعدها على الانتقال إلى فرنسا . وفي الليلة التي التقينا فيها ، كانت تنتظر أوراقها . للذهاب إلى أين ؟ وللقيام بأية عملية ؟ توقفت عن الكلام المباح عند هذا الحد ، فقد قالت كل شيء عن الماضي ، وتكتمت حول المستقبل . غير أنه كان من الواضح أنها عادت من سويسرا الحرة إلى فرنسا المهزومة من أجل المقاومة .

" وغداً ، سوف يأتي أحدهم ليسلمني أوراقي . وأعتقد أنه سوف يطرح عليك بعض الأسئلة قبل أو يعدَّ لك أوراقك ، ويبدو أنهم يلقبونه "جاك - مزوِّر - الأوراق " .

عندما قرع جاك الباب في السابعة صباحاً ، كنا لا نزال نثرثر، أنا وكلارا ، ولم يبارح أحدنا أريكته .

أراد الرجل أن يقابل كلاً منا على حدة ، وقد رحلت هي فوراً بعد المقابلة ، وتبادلنا على الوجنتين قبلةَ رفيقين ، وعبارة " إلى اللقاء " ، مبهمة ومرهونة بمشيئة الأقدار .

طلب مني جاك – مزوّر – الأوراق صورةً فوتوغرافيـة وبعـض المعلومات ليخترع لي هوية جديدة . أبدى اهتمامـاً باللكنـة مثـلاً والدراسـة أكثر من العمر أو الملامح ، إذ يجـب أخذهـا فـي الحسبان ، وسـألني إذا كنت مختوناً .

دوّن بعض الملاحظات على مفكّرة ثم توارى عن الأنظار ، وعاد بعد ثلاثة أيام مع أوراقي الثبوتية وتعليمات محدَّدة حول حيـاتي المزيفـة . فقد جعلني أولاً من مواليـد بيروت عـام ١٩١٩ لأب ضـابط فـي الجيش الفرنسي وأم مسلمة مما يسـمح بتـبرير خصوصيـاتي المتعـددة. الشـهرة : بيكـار ، الإسـم : بيـار إميـل . أمـا عبقريتـه فقـد تجلّـت فـي المهنـة التــي اختارها لي : كهربائي ، وتحديداً " مصلّـح معدات طبيـة " ، إذ وجـد لـي وظيفة قرب تولوز ، عند رجـل يصنـع معـدات طبيـة للمشـافي والعيـادات الطبية ، وينتمي إلى المقاومة ، وكان مستعداً للتصريح بأنني أعمل وأسكن عنده ، وأنني مضطر للتنقـل دائمـاً والذهـاب عنـد الزبـائن فـي كـل أنحـاء جنـوب فرنسـا لتصليـح المعـدات والتدقيـق فيهـا وصيانتهـا . كـانت تغطيـة عبقرية يجب تعزيز مصداقيتها ، ولذا فقد قصدت رب العمل الذي علّمني، بصورة محترفة ، طريقة عمل المعدات ونصحني بحفظ طريقة الاسـتعمال عن ظهر قلب .

كان برتران نفسه هو الذي ابتكر هذه التغطية ، فقد أعجب علــى ما يبدو بنشاطي في مونبلييه ، و أبدى رضاه عن طريقتي فــي التصـرف

أمام الخطر ، فقرر أنني مناسب تماماً للإضطلاع بدور الوسيط ، أو ببساطة ، دور ساعي البريد .

ماذا كنت أفعل عملياً ؟ كان يجب تأمين الاتصال بين القادة الوطنيين في شبكة المقاومة والمسؤولين الإقليميين ومختلف خلايا المقاومة المعزولة، ونقل الأوامر والتعليمات والمطالب والمعلومات والوثائق والأوراق المزوَّرة ، وبصورة أقل نقل سلاح يدوي أو مشط مسدَّس ؛ وبالتالي، كانت مهمة تحتاج إلى عناصر موثوق بها ، من الشباب الذين يتحملون التعب ويجيدون التصرف . وقد فكر برتران بهذه التغطية المثالية لي بما أنني أتمتع على ما يبدو بهذه الصفات . وهكذا ، صار بإمكاني التنقل عبر البلاد على مدار السنة ، مع حقيبة مملوءة بكتيبات دعائية وطرق استعمال ، ولتسهيل مهمتي ، كنت أحدِّد، في كل مرة أسافر فيها، عيادة طبيب يمكن لي زيارتها للتدقيق في أجهزتها بل وغالباً ما قمت بتصليح بعضها بالفعل .

وأعترف أن طريقتي في التخفِّي قد أثبتت فعاليتها ، ولذا ، فكلما تطلب الأمر نقل رسائل مهمة ، عهد بها إلى باكو .

ليس إلى بيكار بل إلى باكو ، فبيكار كان اسمي الرسمي ، وكان الرفاق يحرصون على مناداتي به علناً ، ولكنهم ، عندما يتحدثون عني داخل التنظيم ، أو في وثيقة ، فلا يذكرون بيكار ، إذ لا يفترض بأيٍّ كان أن يعرف بأن بيكار هو في الواقع باكو الأسطورة ...

أذكر ذلك على سبيل الدعابة ، غير أن أسطورة صغيرة كانت تتناقل في محيطنا الضيق هذا و تقول إن باكو يستطيع نقل أية رسالة لأية وجهة كانت ، واجتياز أية نقطة مراقبة ، حاملاً زهرة في فمه ، على غرار غافروش...

أجد من واجبي أن أعيد لبطولاتي المزعومة حجمها الحقيقي ، فأنا لم أشارك مرة واحدة في معركة حقيقية، ولم أحمل سلاحاً ، فذلك كان ليعيق تنقلاتي ويجعلها محفوفة بالأخطار . ولذا ، عندما سألتني البارحة إذا كنت قد " شاركت في الحرب " ، لم أكن قادراً على الإجابة "نعم" بكل صدقٍ ولا حتى القول " انخرطت في المقاومة السرية " ، فهذه العبارات لا تناسبني . وكل ما فعلت هو أنني سافرت كثيراً في القطارت وأخال أحياناً أنني أمضيت الحرب فيها مع حقيبتي ... كنت موظف بريد ، وباختصار ساعياً ، ورسو الظل.

أظن أن مساهمتي كانت مفيدة ، ولكنها متواضعة و كانت تلائمني . وليغفر لي والدي رحمه الله ، فأنا لم أحسن قط تقمص دور "الزعماء " ولا الأبطال . كنت مجرَّد شاب مجتهد وحيٌ الضمير ، يخدم في المقاومة، فكما تعرف ، هؤلاء الأشخاص لا بد منهم .

إذا خاب أملك ، فأنا أفهم شعورك تماماً . فقد يروي لك العديد من الأشخاص مآثر بطولية ، أما أنا فشاركت في عملية وحيدة وفريدة عن حق ، بل وأكثر العمليات بطولةً في تلك الفترة ، غير أنني استفدت منها فحسب ولم أضطلع فيها بأي دور . ولذا ، أرجوك ألا تعتبرها من مآثري.

حدث ذلك في شهر تشرين الأول عام ١٩٤٣ ، وقد مضى على عملي " كساعي بريد " أكثر من خمسة عشر شهراً دون عراقيل. سلَّمني برتران الذي التقيته رسالةً كان يجب إيصالها بسرعة قصوى إلى ليون ، وتسليمها إلى ضابط أركان سابق انضم مؤخراً إلى المقاومة . وأعتقد أن الرسالة كانت من الجزائر العاصمة حيث يوجد الجنرال ديغول .

لم ألحظ ما يثير الريبة لدى وصولي إلى العنوان المحدد ، فارتقيت السلالم التي كانت مغطاة بسجاد أحمر نبيذي لمحت عليه آثار وحل . ولكن الأمر لا يدعو للقلق ، فقد أمطرت خلال النهار ، بيد أنني أخذت حيطتي المعهودة كما كنت أفعل دائماً . كان الضابط يقطن في الطابق الثالث . توقفت في الطابق الثاني، وأخرجت الرسالة من حقيبتي ووضعتها تحت ممسحة الباب ، إذ يمكنني استعادتها في غضون عشر ثوانٍ بعد أن أتحقق من أن " الطريق سالكة " . وفي الواقع ، لم تكن سالكة ، فالرجل الذي فتح لي الباب كان يرتدي بزة الميليشيا ويحمل مسدساً .

- هل الطبيب موجود ؟

- أي طبيب ؟

- الطبيب لوفيفر . جئت لتصليح جهاز تخطيط القلب ، وهو بانتظاري .

- لا يوجد طبيب يدعى لوفيفر هنا .

- لقد قيل لي إنه يقطن في الشقة رقم ١٠ في الطابق الثالث .

- هنا الشقة رقم ٨ .

- أستميحك المعذرة ، لا بد أنني أخطأت ...

خلت أنني سأخرج من هذا المأزق ، حتى عندما طلب مني الرجل أن أفتح حقيبتي ، إذ كنت أعرف أنها لا تحتوي على ما يثير الشبهات . وألقى نظرةً مرتابةً على الكتيّبات الدعائية عندما صرخ صوتٌ من داخل الشقة قائلاً : "أدخله ! ".

كان بوسعي أن أحاول الفرار ، ولكن التظاهر بالبراءة حتى النهاية أكثر حكمةً . دخلت ، وكان الضابط الذي جئت لزيارته جالساً على أريكة ، موثق اليدين ، وفوهة مسدس مصوبة إلى عنقه .

هل تعرفه ؟

لا ، لم أره قط .

كان يقول الحقيقة ، فهو لم يكن ينتظرني على الأرجح ولا يعرف من أكون إلا بصورة مبهمة فحسب . غير أنني قرعت بابه، ولم يشأ رجال الميليشيا أن يصدّقوا بأن الأمر مجرَّد خطأ .

اقتادونا ، أنا والضابط ، إلى سجن يوجد فيه أصلاً ثلاثون معتقلاً . كنت أعرف بعض الوجوه ، ولكنني تصرفت كما لو أن الجميع غرباء، وأنني بريء من أية تهمة . لقد وقعنا في قبضة الجستابو .

توقعت استجواباً كاملاً ، ورحت أطرح على نفسي بلا هوادة السؤال الذي يخطر بالبال في مثل هذه الحالة، وهو سؤال سبق أن طرحته ألف مرة منذ اللحظة التي انخرطت فيها في صفوف المقاومة : "هل أستطيع التزام الصمت تحت التعذيب ؟ هل أتمكن من عدم الإفشاء بعشرات العناوين التي أعرفها والتي من شأنها الكشف عن شبكتنا واعتقال مئات الرفاق ؟ وفجأةً ، أصبحت ذاكرتي التي كانت دائماً خير حليفة لي ، عدواً وخصماً . لو أستطيع فقط أن أخمدها ، أو أفرغها وأمحو كل الذكريات ! ".

كان دفاعي الوحيد هو إنكار كل شيء ، فأنا أعمل في تصليح الأجهزة الطبية فحسب ، وغالباً ما تتعطل الأجهزة بسبب انقطاع التيار الكهربائي ، وعملي يأخذ الكثير من وقتي . لا ريب أنهم يستطيعون الاستقصاء عن رب عملي في تولوز وحمله على الاعتراف ، غير أنني لم أكن مهماً لدرجة القيام بالتقصي حولي .

قضيت ليلة في السجن . وفي اليوم التالي ، بعد الظهر ، تلقى خمسة عشر منا الأمر بالصعود إلى شاحنة ، وافترضت أنهم سوف

ينقلوننا إلى المكان الذي سنخضع فيه للاستجواب ولكننا لم نصل إلى هناك أبداً .

كانت الشاحنة قد تحركت منذ بضع دقائق فقط حين سُمع تبادل عيارت نارية . لقد تعرضت الشاحنة للهجوم ، وسط مدينة ليون ، من قبل المقاومين . وقد عرفت المزيد من التفاصيل لاحقاً . أما في لحظة الهجوم، فكل ما أذكر هو أزيز تلك الطلقات المتسارعة ،وباب الشاحنة يفتح ، وذلك الصوت يصرخ : " أنتم أحرار ، ترجلوا ! أهربوا ! تفرقوا ! " . خرجت وركضت متوقِّعاً أن أخرَّ صريعاً بطلق ناري في أية لحظة . ولكن الطلق لم يأت . واختبأت بضع ثوان داخل كنيسة قريبة ، ثم اتجهت نحو شارع يعج بالمارة . لقد نجوت حتى حين على الأقل ، ذلك أنهم صادروا كل أوراقي ، ولم أعرف أي عنوان أقصد دون أن أهدِّد حياة الأشخاص الذين يسكنون فيه بلجوئي إليهم .

وبما أنني احتفظت لحسن الحظ ببعض النقود أخفيتها في أحد جواربي ، دفعت باب مطعم صغير ، عاقداً العزم على تناول أطيب وجبة طعام ، إذ خلت أن مصيري قد يبدو أقل تشاؤماً عندما أشبع جوعي .

كنت الزبون الوحيد ، فموعد تقديم الطعام لم يكن قد حان بعد ، إذ تأخر الوقت لتناول الغداء ، ولم يزل الوقت باكراً لطلب العشاء . غير أنني تناولت قائمة الطعام الموضوعة على خزانة الأطباق قرب المدخل واستغرقت في قراءتها . وكنت قد انتقيت ثلاثة أطباق تحمل أسماء شهية حين اقترب مني صاحب المطعم فسألته :

– أريد أن أتناول العشاء ، هل أتيت باكراً ؟

– المطعم مفتوح .

- عظيم . أريد ...

ورحت أعدِّد بمتعةٍ كل الأطايب التي تستهويني . وسمعني صاحب المطعم حتى النهاية دون أن يدوّن شيئاً. كان يبتسم ابتسامة راضية كما لو أن مجرَّد تعداد هذه الأطباق يدغدغ غروره . وعندما انتهيت ، ظلَّ واقفاً دون أن تختفي ابتسامته . ولتسريع الخدمة ، قلت متنحنحاً : " هذا كل شيء ! " .

صعق الرجل وانتصب كما لو أنه يتأهب لرفع تقرير :

لم أتموَّن منذ أربعة أيام ، وكل ما بوسعي أن أقدمه لك هو حساء العدس وبعض الخبز الجاف .

كان يبدو عليه الحزن الشديد حتى أنني شعرت بنفسي مضطراً للتهوين عليه :

- سيفي الحساء بالغرض ، فهذا بالضبط ما كنت أريد .

لم أكن أنوي النهوض والانصراف !

ووصل الحساء الساخن ، تنشقته وارتشفت منه الرشفة الأولى.

كان حساء عدس بالفعل ، ولكنه ليس أي عدس ، بل عدس بالكمّون !

كان الكمّون يغطيه بوفرة كما يُحضَّر الحساء في بلادي . عجباً ، هل يندرج هذا الحساء ضمن الأطباق التي تشتهر بها مدينة ليون ؟ لا ، فهذا المذاق لا يخدع ، وأنا أعرف مصدره تماماً . وشعرت بالرغبة في الاستفسار من صاحب المطعم . وكنت على وشك مناداته غير أنني أحجمت . فما عساني أقول له ؟ أنني وجدت في حسائه رائحة بلادي ؟ وأين تقع بلادي هذه ؟ ومتى رحلت عنها ؟ ومنذ متى وأنا مقيم في ليون؟ آه ، لا ، كل شيء إلا هذه الأسئلة ، فالفارُّ مثلي والذي لا يحمل أوراقاً

تثبت هويته ، لا يجب أن يخوض في حديثٍ مع شخص غريب! لذا ، وضعت أسئلتي جانباً ، واكتفيت بتذوق الحساء ، مغمّساً فيه كسرات الخبز الجاف .

انسحب صاحب المطعم ، وكانت زوجته هي التي أتت لاحقاً لترفع الطبق عن المائدة . كنت قد مسحته ولمَّعته حتى أصبح يبرق ويتلألأ . أخذته ثم عادت به مليئاً دون أن تسألني إذا كنت أرغب المزيد.

– شكراً ، إنه حساء لذيذ بالفعل .

فأجابتني : " إنها وصفة من قريتي" .

يا إلهي ! إنها تتكلم بلكنتي ! لكنة الوطن ! كم أود سؤالها عن أية قرية تتحدث ... ولكن لا يحق لي السؤال ، يجب أن أتريَّث بعد . وكرَّرت بصوت خلا من أية نبرة :

– شكراً لك ، إنه لذيذ .

واستأنفت الطعام ، ونظري مطرق في قعر الطبق ، أنتظر أن تعود إلى المطبخ ، ولكنها لم تحرك ساكناً بل ظلت واقفة تتأملني . كنت على يقين أنها أدركت كل شيء ، من أين أنا ، ولماذا لا أجرؤ على الكلام، ورفعت بصري . كانت نظرتها تغمرني بحنان عارم . لم يرمقني مخلوق قط بهذه النظرة الطويلة الحنونة منذ وقت بعيد .كنت أرغب بالبكاء على صدرها .

وبدأت تتكلم كما لو أنها سمعت أسئلتي الصامتة . كان زوجها جندياً ، فيما مضى ، في جيش المشرق ، بقيادة الجنرال غورو . لم يكن معسكره بعيداً عن القرية التي تقطن فيها ، وكان يأتي أحياناً لشراء البيض من مزرعة أهلها ، فيتجاذبان الحديث بين الحين والآخر ، ويومئان الواحد

للآخر . تزوَّجا بعد أن وضعت الحرب أوزارها وعاشا عشر سنوات في بيروت قبل الاستقرار في فرنسا عام ١٩٢٨ وفتح هذا المطعم ...

وبينما كانت تتحدث ، لم أكف عن التفكير : هذه المرأة وزوجها، كان بإمكانهما أن يكونا أبوي " بيكار" ، أهلي المستعارين ، أهلي بالإستعارة ! كنت أشعر بغصة في الحلق كطفل منبهر ، ولكنني لم أخرج عن صمتي، ولم أبح بشيء ، ولكن عينيَّ لم تعودا تهربان بل استسلمتا لنظرات هذه المرأة التي أضحت أمي ليوم واحد .كانت سوف تلحّ عليَّ بالأسئلة ، وسوف أعترف لها بكل شيء ، ولكنها لم تسألني أي سؤال واكتفت بقول العبارة التقليدية : " ليحميك الرب ! " ، وتوارت عن الأنظار . لم تظهر مجدَّداً ، وسوف يخدمني زوجها حتى أنتهي من الطعام. كانت ابتسامته متواطئة دون أن ينبس ببنت شفة . غير أن هذه المرأة وظهورها الخاطف أحدثا فيَّ تحولاً ، فلم أعد فاراً وطريداً ، ورحت أهيم فوق مخاوفي الراهنة ، أحلِّق بعيداً وآفاقي تتَّسع لحظة بعد لحظة .

وخلصت إلى أن الأمور لم تكن سيئة إلى هذا الحد . كنت ملاحقاً لا شك ، وذلك بالضبط لأنني حر طليق! في ذلك الصباح ، كنت أتوقع الأسوأ ، التعذيب ، المهانة ، الموت . وها أنا في المساء أجلس حراً في مطعم، أطلب طعاماً ، أشرب وآكل وأتذوَّق . ومن بعد – فالأهم من كل ذلك ، بل والأهم – أنني كنت ، إذا جاز لي القول ، أربح الحرب ! فبعد أيام قليلة ، حُرِّرت كورسيكا، في إيطاليا ، أطيح بموسوليني بل انضمت بلاده إلى معسكر الحلفاء ، معلنةً الحرب على ألمانيا النازية ، وعاود الروس الهجوم على الجبهة الشرقية ، واستعادوا القوقاز وتقدموا نحو شبه جزيرة القرم ؛ أما الأميركيون ، فقد نشروا من جهتهم على كل الجبهات

قوة عسكرية هائلة ، وعلى شـواطىء إنكلـترة ، كـان الإنـزال يتحضّـر . وفـي فرنسـا ، شـهد الـرأي العـام تحـولاً هـائلاً لصـالحنـا ، وبالكـاد احتفـظ البعض بشيء من الرأفة تجاه الماريشال العجـوز . كـانوا يعذرونـه أحيانـاً ولكنهم لا يتبعونه ، والمقاومة تشتد كل يـوم وتـزداد جـرأةً ، تشـهد علـى ذلك تلك العملية المذهلة التي أنقذت حياتي ...

بعد أن انتهيت من الطعام ، وطلبت القهوة ، كنت رجلاً مختلفاً ، فاتحـاً جديـراً بأسـلافي ، أدنـدن لحنـاً بيـن شـفتي المطبقتيـن . لقـد ولّـى الرعب، وتدجّن القلق ... ولم يبق سوى نشوة الحرية .

لوددت البقاء إلى الأبد في ذلك المطعم الصغير فقد شعرت فيه بالأمان . وفي الواقع ، لم أكن أعرف أين أذهب ، وأي باب أقرع ، دون أن أهدّد كل رفاقي في شبكة المقاومة . لم يعد بمقدوري ركوب القطار، دون أوراق ثبوتية ، إذ كنت سأعتقل عند أول نقطة تفتيش .
هل تؤمن بالحظ ؟ أو بالعناية الإلهية ؟ لدينا أمثال عديدة تقول إننا لا نموت إلا عندما تنطفىء جذوتنا أو شيئاً من هذا القبيل ، ويجب الاعتراف بأن جذوتي لم يزل فيها رمق ووهج . وإذ خرجت من المطعم، فبمن تعتقد أنني التقيت ؟ بجاك ! جاك – مزوِّر – الأوراق ! تلاقت أعيننا ثم شاحت نظراتنا . كانت في عينيه ومضة تعجب ، وفي عينيَّ بقية فرحة تتوهَّج . تبعته ، لم يذهب بعيداً . كان " مشغله" في مبنى متاخم للمطعم ، في الطابق الثاني، يعمل فيه ثمانية أشخاص دون انقطاع . لم أضطر لشرح الوضع فقد كان هو على علم بكل ما جرى، فقد تعرف عليَّ البعض لدى خرو جي من الشاحنة ، ولكن المجموعة الفدائية التي نفَّذت العملية لم تستطع الاهتمام بي في غمرة الأحداث ، وكان جاك يعرف بأنني لم أبتعد كثيراً .

كنت بحاجة بالطبع إلى وثائق جديدة وهوية جديدة لأتابع تنقلاتي، غير أن فكرة أخرى خطرت ببال منقذي وهي توظيفي في مشغله . فقد كان العمل الموكل إليه يفوق قدرته على إنجازه . لقد بدأ يعمل بمفرده ، ثم أصبح لديه سبعة مساعدين من كل الأعمار . وكان يرحب بمساعد إضافي " شرط ألا يكون خطك كخط الطبيب " . وقد امتحنني وبذلت

قصارى جهدي لأجتاز الامتحان بنجاح ، وقيل لي إنني أمتلك مواهب حقيقية في التزوير " مع مبادىء أخلاقية شديدة الصرامة للأسف لتسمح لك في زمن السلم بتثميرها ، ولكن لا أحد يتمتع بالكمال". كانت هذه كلمات جاك ، فقد علمني الكثير من الأشياء ، ولوددت لوعلمني أيضاً المزيد عن نفسه وحتى عن مرحه الفظّ .

سوف أحتفظ دائماً بذكرى مؤثرة عن مشغل تزوير الوثائق . كان وكر نمل هادىء يقوم بدور لا بديل عنه ، إذ لم يكن الأمر يتعلق بتزوير الوثائق فحسب بل كان عالماً موازياً يجب اختراعه وإدارته وإضفاء المصداقية عليه أمام عدو شديد البأس . فبدون المثابرة الدقيقة لجاك وأعوانه ، لما أمكن تنفيذ أية عملية مقاومة ولا حتى التفكير بتنظيم سري. ومع ذلك فقد بقيت أسماؤهم مغمورة . كيف تبرّر أن يكرّس بعض الأشخاص كل حياتهم لهذا العمل الجاحد الذي يجازفون فيه بحياتهم في كل لحظة دون أن يتوقعوا أقل مكافأة مادية أو معنوية بالمقابل ؟ كان بعض هؤلاء الرجال لا يؤمن حتى بالله ليتوقع أجراً في الآخرة .

هل كنت فخوراً بتقاسم مصيرهم ؟ نعم ، شعرت بالفخر ولا أجد حرجاً في قول ذلك ! وعندما كنت ألتقي بين الحين والآخر ، غداة الحرب ، شخصاً يهتم بهذا الجانب السري من المقاومة ، أمضي ساعات برفقته أشرح له بالتفصيل كل ما كنا نقوم به .

وبالعكس ، كنت أشعر بالضيق حين يطلب مني للمرة السادسة والعشرين بعد المئة ان أروي هروبي " المجيد " . فماذا فعلت في نهاية المطاف ؟ ركضت ستين متراً وتناولت وجبة شهية وقمت بلقاء سماوي . كنت بطلاً بفضل ذلك ! وماذا عن المرات التي لاعد ولا حصر لها حين جازفت بحياتي ، وانا أنسخ ممسكاً بقلم في يدي ، أو أنقل رسالة...

وفي مطلق الأحوال ، فأنا أظل أفلسف الأمور، فقد قمت بألف عمل لم يبق منها أيما أثر ، بينما اكتسب عمل واحد من أعمالي أبعاداً خيالية ؛ وبصورة إجمالية ، فأنا أجد نفسي في هذه الأعمال كلها !

لم التق أبداً للأسف بالزوجين اللذين يملكان ذاك المطعم الذي تناولت فيه الحساء بالكمّون . ففي الفترة الأولى ، لم أكن أغادر المشغل، وكانوا يجلبون لي الطعام وأنام فيه ، وبعد بضعة أشهر ، صرت أخرج وأغامر قليلاً بالتجوّل في الشوارع ، ولكنني أتحاشى المرور أمام مطعمهما . ففي تلك الفترة ، ونظراً للوضع الذي كنت أعيش فيه ، لو كنت أكن بعض العاطفة لأحدهم ، كان من الأفضل ان أتفاداه لكي لا أسبب له المتاعب . ولم أمر أمام المطعم إلا عند التحرير. كان مغلقاً منذ أشهر على ما يبدو . وقد أخبرني أحد الجيران أن " الملازم" رحل الى مسقط رأسه قرب مدينة غرونوبل ...

أما أنا فقد بقيت في مشغل تزوير الوثائق ، ولم أغادره حتى التحرير الذي احتفلنا به ببعض زجاجات الشمبانيا ، كان جاك الواثق من أن التحرير لا بدَّ آتٍ قد احتفظ بها في الثلاجة قبل أسابيع قليلة . كنا جميعاً، وسط الفرحة التي تغمرنا ، نشعر ببعض التعاسة ؛ فمع انتهاء المقاومة السرية ، انتهت مغامراتنا الجميلة ، فقلما يحدث في الحياة أن نختار حياة السوء دفاعاً عن قضية نبيلة .

ثم قصدت مونبلييه بعد حين، فقد استبقاني برتران إلى جانبه ثلاثة أشهر في ليون لتنفيذ بعض المهمات . وعندما وصلتها أخيراً ،

كان شعوري هو شعور أول عودة الى الوطن فقد اشتقت للتواجد في مكان عشت فيه قبل الحرب ، قبل أن أصبح باكو .

وفي غضون ذلك ، وصلتني بعض الأنباء بالطبع فقد تبلَّغت أن برونو ووالده اللذين اعتقلا في قضية شاحنة الجعة أمضيا شهرين فحسب في السجن ، ثم ألقي القبض عليهما بعد عام لأسباب أكثر خطورة وتم ترحيلهما الى معسكرات الاعتقال التي عاد منها الوالد بعكس برونو . وأصبحت الساحة الصغيرة قرب الحانة تحمل اليوم اسمه . كانت الحانة أول مكان أقصده . واذ رآني صاحبها ، ضمني طويلاً بين ذراعيه كما لو كنت ابناً آخر يعود اليه . كنا حتى الحين قد تصافحنا مرة أو ثلاث مرات فحسب ، ولا أذكر حتى أنني قد وجهت اليه الكلام يوماً ، الا لطلب كأس من الجعة أو تسديد الحساب . كانت زوجته قد وافتها المنية خلال الحرب ، وربما شعرتْ أن ابنها لن يعود.

واذ غادرت الحانة ، قصدت المرأة التي كانت تأويني ، السيدة بيروا ، وهي بدورها عانقتني ، وأخبرتني أن بعض الشائعات تسري بشأني في المدينة ، وقد تحققت من الأمر لاحقاً خلال النهار عندما ذهبت إلى كلية الطب . ولا أدري إذا كان ذلك بسبب اختفائي المفاجيء، أو جذوري أو تضافر الشائعات والأحداث، ولكن الجميع كانوا على يقين بأن المدعوَّ كتبدار قد أصبح بطلاً من أبطال المقاومة . فقد نسب الي مآثر جليلة بعضها عار عن الصحة ، والبعض الآخر ، بمعظمه ، يستند إلى وقائع حقيقية ، غير أن دوري فيها قد اكتسب أبعاداً ضخمة .

وبالعودة الى السيدة بيروا ، فما أن انتهى العناق والتأثر ، حتى أعربت عن دهشتها لأن لا أحد جاء ليستجوبها بشأني بالرغم من كل ما كان يقال في المدينة حول نشاطاتي .

- هل تعنين أن لا أحد داهم المكان بعد رحيلي ؟

- لا أحد .

- ولا الميليشيا ، ولا الدرك ، ولا الألمان ؟

- لا أحد ، أؤكد لك ! وأغراضك كلها محفوظة في القبو ولم يمَّسها أحد . وقد اضطررت فقط لإخراجها كي أتمكن من تأجير الغرفة ، فأنت تفهم ...

هذا يعني أن السلطات من جهتها لم تتوهم حول تقدير أهميتي ، أو ربما يجب أنِ أقول قلة شأني . غير أن مضيفتي ، من خلال تلميحاتها ، اعتبرت الأمر الدليل القاطع على الحذاقة الأسطورية التي نسبت إلي . كنت باكو الزئبق .

ومع ذلك ، لابد أنك ستذكِّرَني بذلك العسكري الذي كان يدخل المبنى الذي أقطن فيه ، في ذلك اليوم المشهود الذي لذت فيه بالفرار . ولكنني لم أنسه . هل قلت لك إن للسيدة بيروا ابنة تدعى جرمين . كانت صهباء ممشوقة القوام ولكن سمعتها ليست عطرة ؟ لا، لم أذكرها على ما أعتقد ... بسبب حيائي الشرقي...كان رفاقي غالباً ما يحدثونني عنها ويمازحونني ، ويسألونني إذاكنت قد ... وفي الواقع ، لطالما كنت خجولاً مع النساء ولم أتخيل أنني قد أجرؤ على القيام بأي شيء . وعندما كنت أصادف جرمين أحياناً، ألقي عليها التحية بابتسامة مهذبة فتبادلني الابتسامة ، وأتابع ارتقاء السلالم ، وقد تورَّدت وجنتاي قليلاً .

وقد قالت لي السيدة بيروا في ذلك اليوم : " ألا تعلم أن ابنتي قد تزوجت خلال غيابك ؟ سوف أعرِّفك إلى صهري ، فلا بد أنه سيكون سعيداً بمصافحة رجل مثلك . "

دخلت غرفة المعيشة ولا بدَّ أنك تعرف البقية ... فزوج جرمين كان يلبس بزة عسكرية ويحمل ندبة على خده تمتد من الفك حتى طرف العين . نهض ومدَّ لي يده مصحوبةً بابتسامة عريضة .

لقد تلاقينا مرة أو مرتين في السلالم على ما أذكر، حين كنت أتودَّد لجرمين . لقد سبَّب لي هلعاً ما بعده هلع ...

وهكذا ، فقد هربت بغير سبب ! فلو لم أصادف في ذلك اليوم عسكرياً يطأ عتبة المبنى ، لكانت حياتي اتخذت منحى مختلفاً .

هل كان ذلك للأفضل أم للأسوأ ؟ عندما نكون قد بقينا على قيد الحياة لنطرح هذا السؤال على أنفسنا ، فذلك يعني أن الأمور لم تكن بهذا السوء.

غير أن مفاجأة أخرى كانت بانتظاري . فبينما كنت أصعد السلالم برفقة المالكة لألقي نظرةً حنونة على غرفتي السابقة ، وإذ كنت أرتقي إحدى الدرجات ، باغتتني رائحة عفونة قوية ملأت أنفي وانتبهت في ومضة عين أنني لم أعد أعاني من أي ضيق تنفس أو عارض رئوي منذ أن غادرت هذه السقيفة ، وأنني لم أعان منها قط في السابق. لقد سئمت رائحة العفونة هذه وكذلك رائحة الرماد القديم ، لدى وصولي، ثم ، مع مرور الوقت ، لم أعد أشمها ، وها هي من جديد تخنقني .

قلت للمرأة الطيبة وكأنني ألفظ أنفاسي الأخيرة :

- سوف أنزل .

أوصدتْ الباب بالمفتاح ، وهي ترمقني بنظرة قلقة :

- أرى أنك ما زلت تعاني من نوبات الربو .

- إنها تعاودني بين الحين والأخر .

ـ لست وحدك ! فالشاب الذي استأجر الغرفة بعد رحيلك ، كان بدوره يعاني من الربو ، وقد اضطررت مرتين لاستدعاء الطبيب ليلاً .

وأردفت قائلة :

– في الوقت الحاضر ، الغرفة فارغة ، ولو شئت ، يمكنك أن تمضي الليلة فيها لا كمستأجر هذه المرة بل كضيف .

– أنت في غاية اللطف ولكن يجب أن أركب القطار هذا المساء وأعود الى مرسيليا .

كنت أكذب بالطبع ، اذ كنت لن أرحل قبل الغد . غير أنني قد سدّدت لهذه السقيفة المشؤومة أكثر من الدين المستحّق علي ...

أمضيت تلك الليلة في غرفة أحد الزملاء في كلية الطب، ليلةً لم يغمض لي فيها جفن، أحاول إقناعه أنني لم أقم بكل تلك البطولات التي تنسبها إليّ الشائعات و لكن عبثاً ...

و الحق يقال إن وضعاً معيناً قد أسعفني أو لم يسعفني، حسب الزاوية التي ننظر من خلالها الى الأمور، كان سوَ تفاهمٍ يبدو أنه أكّد أكثر الشائعات غرابةً .فغداة التحرير، عقدت مئات الأجتماعات، على كل المستويات، بين حركات المقاومة المختلفة و السلطات التي بدأت تتشكل لتسوية جملة من المشاكل: التطهير و عواقبه، مصير المعتقلين، نزع سلاح المقاومين، التموين، الخ... و في أحد هذه الإجتماعات، و بما أن لا أحد من المسؤولين في شبكة "حرية ! " استطاع الحضور، طلب مني برتران أن أحضر الأجتماع وأدوّن كلّ ما يقال فيه. و خلافاً لتوقعاته، فقد قرَّرت بعض الحركات الأخرى انتداب زعمائها البارزين للحضور ، وفضلاً عن ذلك، كان مصوِّرو الصحف في ليون موجودين هناك، اذ تم

اعتقال أحد المتعاونين المشهورين في الليل، فاكتسب الاجتماع الذي كان روتينياً أصلاً أهمية فائقة بالنسبة إلى الرأي العام. وهكذا وجدت صوري منشورة في الصفحة الاولى من صحيفة " التقدم" على أنني أحد زعماء المقاومة السريين .

لم يشأ أحد في مونبلييه الاقتناع بالالتباس الذي حصل. فحاول أن تنكر بأنك بطل، وسوف ترى أن الناس لن يصدقونك بل سوف يعتبرون إنكارك ضرباً من التواضع، وهو بالضبط من أرقى شيم الأبطال.

صباح الجمعة

أنا على يقين أن عصيان كان صادقاً عندما حاول التقليل من شأن بطولاته. فهو لم يكن يطيق منذ طفولته أن يعتبره الآخرون "زعيماً" ، ولذا فكان لا يأل جهداً لإنكار ذلك حتى أن إمعانه في النفي والإنكار كان يوقع محدّثيه في الحيرة والريبة.

وفي كل الأحوال، كانت تلك ردة فعلي. فبعد أن تفارقنا بوقت طويل، واذ كنت أعيد قراءة ملاحظاتي، ساورتني الرغبة في النظر إلى الأمور عن كثب. و قصدت جنوب فرنسا بحثا عن النساء والرجال الذين عاشوا تلك الحقبة العصيبة، بمقاومتها السرية واعتقالاتها وشائعاتها وشبكاتها. وبعد شهر من اللقاءات المذهلة والاستجوابات الساذجة والربط بين الأحداث، ترسخ يقيني بوجود أسطورة لدى البعض اسمها "باكو" وأن دور هذا الرجل في المقاومة لم يقتصر على مجرّد "ساعي بريد".

ولكن هل كان هذا هو بيت القصيد ؟ فأهمية دوره ليست ، بعد كل شيء سوى مسألة تقويم . لقد عهد إلي الرجل بحصته من الحقيقة أي بالوقائع والمشاعر التي رافقتها . وعندما يتحدث المرء عن نفسه ، أليست الموضوعية هي الطريق الممهّدة أمام الكذب ؟

عاهدت نفسي أن أقلع عن البحث والتمحيص ، وأكتفي بكلامه وبدوري الخاص في جعل هذا الكلام يبصر النور . فأنا أساعد على ولادة الحقائق والأساطير ، والأمر سيّان !

كنا قد وصلنا إلى الفترة التي غادرتَ فيها فرنسا عائداً إلى الوطن . أفترض أنهم كانوا ينتظرونك في بيروت .

لم أقل لأحد إسم الباخرة التي سأعود على متنها غير أن والدي علم بالأمر ، الله وحده يعلم كيف توصَّل إلى ذلك ، وأخطر المدينة بأسرها ، وسرت كذلك شائعات كثيرة حول دوري في المقاومة ، بل وتهامس الناس إسمي الحركي، باكو .

باكو ، جاك ، برتران ، الوثائق المزورة ، الحرب ، المقاومة. لم أكن قد بلغت السابعة والعشرين بعد ، وها قد ولَّت حياة ، وبقيت أمامي حيوات أخرى ، من يدري .

وصلت الباخرة إلى المرفأ . كانت الجموع محتشدةً على الرصيف . اغرورقت عيناي بالدموع لحظة عبوري الجسر . إقتربت مني فتاة متموِّجة الشعر ووضعت إكليلاً حول عنقي ، إنحنيت .

كان ذراعاها العاريان يلامسان وجنتي . إنتصبتُ واختلطت أصوات مجهولة ورائي . طلب مني أحد المصورين ألا أحرِّك ساكناً وأن أحتفظ بالابتسامة نفسها وأحدِّق في العدسة . توقف الجميع عن الحركة وحبسوا أنفاسهم لثوان طويلة . خيم الصمت ثم ، ببطء ، حركة تلو الأخرى ، عادت الحياة إلى المشهد وعلت الصرخات من جديد . تصفيق وهتافات . ها هو والدي يقترب معتمراً طربوشاً أحمر اللون .

طربوش المناسبات . أبعد الجميع ليفسحوا له مجالاً ، وتلاقت نظراتنا . بدت لي نظرته اليوم ، نظرة الانتظار التي كانت تنوء بوطأتها فيما مضى على كاهلي ، أكثر خفةً . نزع أبي طربوشه وطوَّقني بذراعيه وضمني بقوة . وعلا التصفيق مرة أخرى . أبعدني عنه وأمسك بي وحدق فيَّ . قرأت فجأةً في عينيه شيئاً مختلفاً عن الفرح المتوقع ، شيئاً

غير الاعتزاز . وعندما عانقني من جديد ، طرحت عليه متلعثماً سؤالاً فأجابني: " لاحقاً، عندما نصل إلى البيت، أشرح لك كل شيء ".

كنت قلقاً كما يكون المرء عندما يجد نفسه على حين غرة وسط فرحة عارمة لايستحقها بالفعل ، وشعرت بأن كارثة تتربص بي كالخصم الحسود عند المنعطف التالي . لم تكن حاستي السادسة فحسب فقد لاحظت أن العديد من الأشخاص كانوا غائبين وسط الحشد الغفير.

جاء والدي فقط من بين كل أفراد عائلتي . فأين الآخرون ؟ لاسيما جدي ، أفضل مصورّ في البلاد والذي كان حاضراً في كل المناسبات ، يصفُّنا ويعنِّفنا ويعشي بصرنا بوميض آلته . لم يكن ليفوِّت إلتقاط هذه الصورة قط !

نعم ، كان ذلك ما ينغِّص علي فرحتي قبل كل شيء ، تلك الصورة التي غاب عنها المصوِّر ! وإذ ركبت السيارة التي كانت تنتظرني ، كانت عيناي لا تزالان تبحثان عنه .

- أين جدي ، أنا لم أره ؟

- لقد رحل نوبار .

كانت عبارة قاتمة تقال عن رجل في السبعين من العمر . لم أجرؤ على التعليق خوفاً من سماع الكلمات التي أخشاها .

كنت أريد تأجيل سماع الحقيقة وذرف الدموع بضع ثوانٍ ... فأضاف والدي : " لقد رحل الى أميركا مع جدتك وخالك أرام ".

تنفست الصعداء ، بل كنت شبه سعيد كما لو رُدَّ جدي إلي . ألا نحلم أحياناً بعد موت شخص عزيز أننا إكتشفنا فجأةً أن كل ما رأيناه وسمعناه مجرَّد كابوس ؟ لقد خلت لثانيةٍ أنني عشت هذه المعجزة، غير

أنني لم أشبع فضولي ، فقد إعتقدت أن نوبار قد أقلع منذ عهد بعيد عن مشروعه بالهجرة .

وفجأةً ، إعتراني قلق آخر : " وإيفيت ، أين هي ، لم أرها بدورها ؟ "

– شقيقتك في مصر . لقد تزوجت مع بداية الحرب ولم نتمكن من إخطارك .

– من زوجها ؟

– لاتعرفه ، إنه محمود ، إبن عائلة عريقة من حيفا ، آل الكرملي . كان يعمل هنا في مصرف إنكليزي وقد نقلوه إلى القاهرة . وكان أبوه يعمل أصلاً في المصرف العثماني في إسطنبول . إن صهرنا شاب كريم ومستقيم ودمث الأخلاق ، ولكنه بعض الشيء...

وإذ لفظ والدي هذه الكلمات الأخيرة، أرفقها بحركة سبق لي أن رأيته يقوم بها بين الحين والآخر ، يدير راحتيه ووجهه نحو السماء ثم نحو الأرض ، ويعيد الكرة ثلاث مرات ، بسرعة فائقة كما لو أنه يقلِّد حركة السجود . كانت تلك طريقته ليصف أحدهم بأنه "متعبِّد " أو "متزمِّت" ولا يجب دائماً تصديق كلامه حرفياً ، فكل شخص يراه يتمتم مسبِّحاً يستحق منه هذه الدعابة الكافرة .

– أرجو ألا تكون شقيقتي تعسة ؟

– لا ، فهي التي اختارته ، وأعتقد أنهما متفاهمان . لا تخشى على إيفيت ، إنها تعرف كيف تفرض هيبتها ، وليست هي من يقضُّ مضجعي ...

يقضُّ مضجعي ؟ إن ماعانيته في السنوات الأخيرة كان يفوق ذلك . لا أريد أن أنغِّص عليك فرحة عودتك ولكن يجب أن تعرف أن

مأساة عظمى قد ألمَّت بنا . واليوم ، أحصل على أول لحظة سعادة منذ أربع سنوات . سوف ترى أن بيتنا سيعجُّ بالناس .

وتهكّمت في قرارة نفسي بمرح ساخط ، فبيتنا كان دائماً مزاراً، هذه الحشود ، والحركة المستمرة ، لم أحتفظ عنهما بأفضل الذكريات . أما والدي ، فكانت ردة فعله مختلفة تماماً ، إذ إغرورقت عيناه فجأة بالدموع وتشنجت يداه غضباً .

- منذ أربع سنوات ، لم يطأ إنسان عتبة منزلنا كما في أضنة، خلال طفولتي . لقد أصبحنا عائلة موبوءة ! وضعت يدي على يديه ، وقد غشت الدموع عينيَّ . كنت مفجوعاً قبل أن أعرف النكبة التي ألمَّت بنا .

- أخوك... سالم ... لعنة الله على اليوم الذي أبصر فيه النور !

- لا تقل ذلك !

- ولماذا ؟ ألأنه من لحمي ودمي ؟ وماذا لو كنت أعاني من ورم ينهش جسدي ؟ أيجب أن أطيقه لأنه من لحمي ودمي ؟ .

لم أقاطعه . كان اعتراضي شكلياً ، فأنا لم أشعر في حياتي بعاطفة صادقة تجاه شقيقي . قبل اندلاع الحرب ، حين رحلت ، كان سالم مجرَّد مراهق كسول وبدين ، يأنف الدراسة ، ولا يصلح لشيء ، خمولاً وحقوداً . كان الجميع يعتقدون أنه لن يفلح في حياته . فما المصير الذي سيؤول إليه ؟ سوف يبدأ بتبديد حصته من الميراث ، ثم يعيش بالتأكيد عالةً على شقيقته أو شقيقه ...

لقد قلَّلنا جميعاً من شأنه ، وما أعنيه هو أننا قلَّلنا من قدرته على الأذى ، فالحرب تشحذ ذكاء البعض، وتفجِّر الطاقات لما فيه خير في بعض الأحيان ، وغالباً لأغراض شريرة .

في سنوات الحرب تلك ، كان بلدنا، وسائر بلدان العالم ، يعاني من الشحِّ والتقنين ، وقد انتشر التهريب وكل أنواع المتاجرات المشبوهة ، فتعاطاه البعض من أجل البقاء ، والبعض الآخر من أجل الإثراء ، وانغمس شقيقي بدوره فيه لا بدافع البقاء ولا الإثراء .

كان غالباً ما يغيب عن المنزل ، ويخرج من باب سريٍّ في كل ساعة من ساعات النهار والليل ، إذ كانت غرفته منزوية قليلاً . لم يفطن

والدي لشيء ، ولو كانت شقيقتي ما تزال تعيش في المنزل ، للاحظت بالطبع أن شيئاً مريباً يحدث ، ولما أمعن سالم في غيّه ، ولكنها عندما رحلت ، لم يعد أحد قادراً على كبح جماحه .

وذات يوم ، حدث ما كان متوقعاً أن يحدث ، فقد حاصر جنود من الجيش الفرنسي منزلنا ، طالبين من أهله، عبر مجهارٍ ، عدم المقاومة والخروج مرفوعي الأيدي .

كان هجوماً بكل معنى الكلمة كما لو تعلّق الأمر بمداهمة موقعٍ للعدو . لم يفهم أبي ما جرى . كان يصرخ من نافذة غرفته مؤكداً لهم أن ثمة سوء تفاهم قد حصل ، ثم رأى مصعوقاً الجنود يخرجون من سقيفتنا أكياساً من القنب وصناديق وآنية بلاستيكية وعلباً من الورق المقوّى . كانت موزّعة في المرآب المهجور ، وفي خزانة تحت السلم الداخلي ، وحتى في غرفة شقيقي وفي خزانة ثيابه وتحت سريره . لقد حوّل هذا الإنسان منزلنا إلى مستودع للمهربين ، ولم يفطن والدي لحيلته . وحرص سالم أيضاً على تكديس بعض البضائع المهرَّبة في محترف التصوير الذي يملكه جدي ، وسوف يتعرض المحترف بدوره للمداهمة في اليوم نفسه وبالأسلوب عينه .

وما زاد الطين بلةً أن اشتباكاً وقع عشية المداهمة جنوب العاصمة قرب جونٍ صغيرٍ غالباً ما يتردَّد إليه المهربون ، وقد لقي أحد موظفي الجمارك مصرعه ، وجرح إثنان من المهربين ألقي القبض عليهما، وقد حصلت الشرطة على إسم شقيقي إثر التحقيق معهما ليلاً . وتبين – يا للشرف العظيم لعائلة كتبدار العريقة ! – أن سالم هو أحد أدمغة العصابة ، وكان موجوداً أثناء تبادل إطلاق النار على ضفة الجون مع الذين ينتظرون تسلم البضائع ، وهم نفسهم الذين أطلقوا النار على

موظفي الجمارك قبل أن يلوذوا بالفرار . هل أطلق شقيقي النار شخصياً ؟ لقد أنكر ذلك ، ولم تتمكن السلطات من إثبات التهمة عليه . كان منزلنا يحتوي على بنادق ، ولكنها لا تزال في صناديقها ، ولم تستخدم إحداها بعد ، ولم يعثر قط على أداة الجريمة .

زجَّ كل أفراد العائلة في السجن ، شقيقي ووالدي وجدي وخالي أرام ، أستاذ الكيمياء في الجامعة الأميركية ، وهو رجل علم صرف غارق أبداً في معادلاته ، لم يستوعب كوالدي ما يحدث له ، وكذلك اعتقل البستاني وابنه .

كان والدي يردّد : " لم يكن أخوك محروماً من شيء ! فلماذا فعل بنا هذا ! " .

كيف أشرح له ما كان ينقص أخي ؟ فحتى أنا ، خلال سنوات المراهقة ، ألم أشعر أحياناً بأنني سجين في هذا المنزل ، دون أمل بالفرار منه ؟ ألم تساورني الرغبة بتدمير كل ما حولي ، الأثاث والضيوف والجدران ؟ ما الذي كان يمنعني ؟ شعوري بأنني محبوب ، فقد كنت موضع عبادة ووله لا ريب ، تحثني على الرحيل بعيداً والعودة ما أن تكتمل رجولتي وأصبح واثقاً من طموحاتي ، قادراً على الدفاع عنها. ولو لم أكن على ثقة بأنني محبوب ، لتنامت المرارة في أعماقي ، ولأقدمت على خطوة لا تحمد عقباها تشجعني عليها أجواء الحرب كاقتراف جريمة أو الإقدام على الإنتحار ، ذلك أن أفعال سالم كانت ضرباً من هذا القبيل أو ذاك .

جريمة وانتحار شبه ناجحين . ففي سنوات الحرب تلك ، كان التهريب جريمة نكراء لا سيما عندما يرافقها تهريب الأسلحة والذخيرة. ولحسن الحظ ، كان الضابط الفرنسي المكلف بالتحقيق في القضية ،

الكولونيل ديلوار ، يعرف والدي جيداً . وقد زارنا أكثر من مرة لمناسبة تدشين معارض أو لحضور ندوات . كان طالبا سابقاً في مدرسة اللغات الشرقية ، ورجلاً مثقفاً يهوى جمع الصور القديمة ، ويعرف حق المعرفة كم كان والدي ونوبار رائعين و بريئين ، ويعي المصيبة التي ابتليا بها بسبب شقيقي منذ طفولته . ولذا ، فقد سعى لإطلاق سراحهما بسرعة ، ولكنهما كانا قد أمضيا خمسة وثلاثين يوماً في السجن ! أما الآخرون ، ومن بينهم خالي أرام ، فقد خرجوا من السجن بعد بضعة أشهر ، باستثناء شقيقي بالطبع ؛ غير أن الكولونيل سوف ينقذه بحكم سنِّه ، فهو لم يكن قد بلغ العشرين بعد عند وقوع الحادثة . وقد أعدم ثلاثة مهربين ، وحكم على سالم بالسجن خمسة عشر عاماً ، ولكن العفو المتكرر خفَّض مدة العقوبة إلى الثلثين .

كانت هذه الحادثة أسوأ أشكال المذلَّة بالنسبة إلى أفراد عائلتي، فقد أحجم كل الذي كانوا يتردَّدون إلى منزلنا عن زيارتنا لأشهرٍ عديدةٍ خوفاً من التعرّض للإعتقال . فلو كان منزل كتبدار حقاً وكراً للمهربين ومستودعاً للبضائع غير القانونية ، ألن يصبح كل الذين يتردَّدون إليه موضع شبهة بدورهم ؟ وعندما خرج والدي من السجن ، لم يجرؤ سوى قلة من الناس ، قلة قليلة ، على زيارته للترحيب بعودته . كان يشعر بامتنان عارم لهؤلاء الأشخاص " الذين يعدون على أصابع اليد الواحدة " . أما الآخرون ، كل أولئك الزائرين المخلصين المزعومين الذين كانوا في السابق مسمَّرين إلى مائدته ، فقد أقسم أنه لن يراهم من جديد .

في هذا المناخ ، قرَّر جدي وجدتي الهجرة إلى أميركا ، إذ لم يعد ابنهم الذي أصيب بصدمة جراء اعتقاله بسبب هذه التهمة الشائنة يجرؤ على المثول أمام طلابه . وقد زوَّده رئيس الجامعة بتوصية عطرة،

فتمكن ، في غضون أيام قليلة ، من الحصول على الإذن بالسفر مع كل أفراد عائلته ، لا سيما أن مؤهلاته الفذة كأستاذ كيمياء لامع رجحت الكفة لصالحه في زمن الحرب ، فما أن وصل إلى الولايات المتحدة حتى توظف في مصنع للمتفجرات في منطقة ديلاوير.

وهكذا ، غدا والدي وحيداً ، دون شقيقتي ودون نوبار ودون وجودي بقربه ، أو حاشيته المعهودة حوله . عاش وحيداً مع أمه العجوز المعتوهة التي كان يعتني بها بنفسه بين الحين والآخر بالرغم من الوجود المستمر لممرضة بقربها تقوم أيضاً بدور الرفيقة .

ولا أعتقد أنه كان يقوى على العيش مع وصمة العار هذه لولا أن الكولونيل ديلوار زاره بعد أشهر على خروجه من السجن ليزف له أجمل بشرى ، وهي أن ولده البكر عصيان قد أصبح بطلاً من أبطال المقاومة .

كيف عرف الضابط بالأمر ؟ بمحض الصدفة . فديلوار هذا كان ينتمي إلى قوات فرنسا الحرة التي اجتاحت المشرق عام ١٩٤١ وهزمت قوات بيتان بمساعدة الإنكليز . وبعيد الانتهاء من قضية المهربين ، ذهب في مهمة سرية إلى منطقة بروفانس الفرنسية ، والتقى هناك ببرتران ، وتحادثا عن بلادي وتاريخها والسلالة العثمانية ، وذُكر اسمي في معرض الحديث ...

وأعود إلى والدي ، فقد اكتسب انخراطي في المقاومة عنده دلالة في هذا السياق لم أفطن لها لدى وصولي إلى المرفأ في ذلك اليوم . فقد اعتقدت دوماً أنه سيكون سعيداً بموقفي بحكم المبادىء التي يؤمن بها ، وكذلك بسبب ذلك الحلم الغريب الذي كان يحتضنه على الدوام بأن يصنع مني " قائداً ثورياً" . لم تخمد جذوة هذا الحلم فقد ظل يداعبه ، ولكنه كان مطموراً تحت مشاغل أكثر إلحاحاً ، وما رآه فيَّ الآن هو الشخص الذي

سيمحو عن عائلتنا وصمة العار . ألم يمرّغ شقيقي إسمنا ومنزلنا في الوحل ؟ ألن يغسل انخراطي في المقاومة هذا العار ؟ ألم يحجم الناس عن معاشرتنا بسبب هذا العار ؟ وها هي عودتي المكلّلة بالغار سوف تعيدهم إلينا . كان مستعداً لاستقبالهم دون ضغينة ، تحدوه فقط الرغبة بالثأر من القدر .

كانت غداة وصولي مناسبة لتنظيم احتفال عظيم . كان منزلنا يعجُّ بالزائرين ، البعض منهم مدعوون والبعض الآخر أتوا من تلقاء نفسهم ، وتوزعوا في البهو الفسيح والمدخل والسلالم الداخلية . كان البعض يتنزهون في الحديقة ، ويخوضون أحاديث جانبية مرحة .

كان والدي يتبختر مزهواً ، وأنا بدوري ، لم أعد قادراً على الإنكار ، بالحماس عينه ، أنني كنت البطل الذي يعتقدون . فلم يكن الأمر يتعلق في ذلك اليوم بإظهار الحياء أو التواضع، أو تقدير مواهبي حق التقدير ، بل بغسل وصمة العار عن أبي ومنزلي . طبعاً لم أكذب أو ابالغ، فالتباهي لم يكن يوماً من عيوبي الكثيرة . لا ، لم أكذب ، ولم أكذِّب كذلك شيئاً . كنت أدعهم يقولون ، وأدعهم يصدّقون ، سعيداً لرؤية والدي يستعيد مرحه .

بعد عشرة أيام ، فقد والدته . كانت إيفيت المسكينة تلزم سريرها منذ بضعة أشهر وقد بلغت السابعة والثمانين.

" لو توفيت العام الماضي ، لكنت رافقتها وحيداً إلى مثواها الأخير " . كانت تلك الفكرة الأولى التي خطرت ببال والدي . لقد شعر أولاً بشيء من الإرتياح ، ولكنه ارتياح لا يتعارض مع حب الإبن لوالدته، ثم بكى. كانت تربطه بتلك الأم التي طالما عرفها معتوهةً علاقة من

تواطؤ وحده يعرفها . وقد شهدت في بعض الأحيان مشاهد محيِّرة لم أجرؤ قط على أن أطلب منه تبريراً لها . فحين كان يدرس قراره السماح لي أو عدم السماح لي بالسفر لمتابعة دراستي في فرنسا ، قام باستشارتها. لم تكن المرة الأولى ، ولئن كنت أتذكر الحادثة جيداً ، فذلك لأنه حرص على أن أكون حاضراً .

همس ببعض الكلمات في أذنها ، وبدت جدتي كأنها تصغي بإمعان ، ثم شقت شفتيها كما لو أنها ستنطق . غير أنها بقيت فاغرة الفم طويلاً دون أن تنبس ببنت شفة ، فماً مستديراً وأسود الظلال ، وانتظر والدي دون أن ينفذ صبره ، ثم أصدرت بعض الأصوات المخنوقة خلتها قرقرةً أو لهاثاً . وأصغى إليها والدي وهو يهز رأسه برصانة ، ثم جاء يقول لي إن جدتي لا ترى بأساً في سفري ، فهل كان الأمر دعابة ؟ كان كل شيء يشير إلى ذلك ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ، أؤكد لك ، فوالدي لم يكن ليشأ أن يسخر من إيفيت العجوز . لا ، كان يستشيرها على هذا النحو ، فذلك هو الجسر الوحيد نحو والدته ، ويجب الاعتراف بأنهما كانا يملكان لغة خاصة بهما ، وأنهما يتفاهمان .

لم يكن الوحيد الذي بكاها . فقد افتقدتها فجأةً . كانت تلك المرأة النبيلة المسلوبة منذ سبعين عاماً حضوراً مباركاً في منزلنا ، حضوراً طاهراً ، أثيرياً ، مدندناً ، طفولياً . وبفضلها ، كنا ننظر إلى الحياة والزمن والحكمة والعقل بفلسفة عفوية قائمة على الشك والسخرية .

عاشت حياتها متوارية عن الأنظار ، ولم يشأ جدي أن توارى الثرى وسط العار والخجل . فقد حرص أن يحشد في مأتمها أكبر أعيان البلد من كل الطوائف . وقد جعلت بطولاتي المزعومة وعودتي الظافرة

ذلك ممكناً . ولهذا السبب ، تحدثت منذ قليل ، عن " ارتياحي". وبالطبع ، لم يغفل التأبين التذكير بأنها ولدت إبنةً لسلطان وماتت جدة لبطل .

بقي والدي ، على ما بدا لي ، ممزقاً بين حزنه لفقدان والدته ورضاه لأنه قدَّم لها ، في نهاية المطاف ، مأتماً يليق بمقامها . كنت أراقبه، وأراه تارةً يستغرق في التأمل ، مكوّراً كتفيه ، وممسكاً بالكاد نفسه عن النحيب ، وطوراً يجيل بطرفه على الحضور والشخصيات ، منتصباً في تفجعٍ جليل . في الأيام العادية ، لم يكن ليتصرف على هذا النحو مما أظهر عمق الجرح الذي أصابه ...

غداة المأتم ، كنت جالساً إلى يمينه في البهو الكبير ، أتلقى التعازي حين همسوا لي بأن " زائرة غريبة " تطلب مقابلتي ، ونظراً للظرف الأليم ، فهي لم تشأ الدخول .

تلك الغريبة كانت كلارا !

لوددت أن أضمها بين ذراعي و أعانقها بقوة، و لكن لا شيء يعطيني حق القيام بذلك، لا علاقتنا السابقة ولا تلك الليلة اليتيمة التي أمضيناها نتحادث، جالسين في أريكتينا التوأمين قبل أن يرحل كل منا في سبيله، ولا الظروف الراهنة، و الحداد و المنزل المليء بالمعزّين المتشحين بالسواد. لم يكن حتى بوسعنا أن نبالغ في التعبير عن فرحة اللقاء. بدأت بالأعتذار عن "وصولها" المفاجئ في هذا اليوم الحزين، واقترحت عليها التنزه في الحديقة.

كانت هنا لفترة وجيزة، فقد رست سفينتها البارحة في مرفأ بيروت، وسوف تسافر مساء براً الى حيفا. لم تكن متأكدة أنها تريد العيش في فلسطين، و قد جاءت لترافق خالها العجوز.

و كما لو كنا نخشى التكلم عن أنفسنا، فقد دار الحديث حول هذا الخال: " أخبرني والداي أنه كان يتصرف كأعزب عجوز حين كان في العشرين من العمر، فهو الذكر الوحيد الذي جاء متأخراً بعد ست إناث، وقد ورث ثروة تغنيه عن العمل إلى الأبد ".

تمتمت وأنا أرنو إلى المنزل : " إنه يشبه والدي " .

- باستثناء أن عمي ستيفان لم يشأ أبداً أن يثقل كاهله بالزواج وتكوين أسرة ، ففي منزله في غراتز ، كان كبير الخدم الخبير بالأصول ينظم له حياته ويعرف متى يقدّم له القهوة وكيف يحضّر له كأس الويسكي مساءً. أما والدي الذي كدَّ طوال حياته ، فهو لم يكن يتحدَّث عن هذا الخال إلا بنقمة قاتلة ، وأمي بدورها لاتسعى للدفاع عن أخيها الذي

تعده نموذجاً سيئاً لأولادها . وكان كل اليهود في غراتز لا يحترمون ستيفان تميرليس وهو بدوره يعاملهم بالمثل ، فلم يكن لديه أي صديق يهودي بل كان يتباهى بذلك .

وإذ علمت أنه قد تم ترحيله ، تساءلت كيف سيكون بوسعه العيش في معسكر للإعتقال . فمنطقياً ، لابد أن يكون أول الذين سيقضون نحبهم . وقد ماتوا جميعاً بالفعل ، مات كل أهلي ... ماعداه ، ماعدا الخال ستيفان .

لاأعرف كيف استطاع البقاء على قيد الحياة . فهو لا يتحدَّث عن الأمر قط . وأنا لا أريد أن أنكأ جراحه . فأحدّثه فقط عن السنوات السعيدة ، ولا أثير ذكريات الأمس ، وأشعر في حضرته أنني أتصفح بلا هوادة ألبوماً عائلياً خيالياً . وهو "ينظر" إليه دون أن ينبس ببنت شفة أو يظهر أيما انفعال ، لا فرحاً ولا تعجباً ولا تنهيدة حنين ، لاشيء . وأرى أحياناً أنه ربما عاش فقط بسبب الإكتفاء . نعم بسبب الإكتفاء ، فالآخرون كان لديهم رغبات وتطلعات وطموحات وآمال تمزقهم بعد أن انقلبت ضدهم . أما هو فلم يكن لديه شيء من هذا القبيل . لم يتوقع شيئاً ، لاشيء غير ما كان يحصل عليه ، ولحسن حظه ، لم يأته أحدهم بالموت. وهو اليوم كل ما تبقى لي من عائلتي . ولا أدري إذا كان يمثل بالنسبة إلي سلفاً شاباً أو إبناً مسناً وربما كان الإثنين معاً بهذا القدر أو ذاك .

وقالت لي : "عندما عثرت عليه عبر جمعية تهتم بالمعتقلين ، سألته ماذا ينوي أن يفعل الآن . لم يشأ العودة إلى غراتز بل أراد أن يسافر إلى فلسطين . وها أنا أقوده إلى هناك ."

لقد تركته جالساً على الشرفة في الفندق ، وهو يحتسي كأساً مزدوجاً من الويسكي . لقد تصادق مع الساقي . وقد لمحتهما اليوم

غارقين في حديث طويل في حين أنه قلما يجد ما يقوله لي . لاريب أنهما يتحدثان عن قبعات النساء قبل الحرب والويسكي الذي كان يتم تقطيره بصورة أفضل .

لم تواجه كلارا أيما عناء لتستدلّ إلى منزلي :" لدي الإنطباع بأن الجميع يعرفك في هذه المدينة ."

ورويت لها قليلاً عودتي والإستقبال والإسطورة الصغيرة التي نسجت حولي . وقد أظهرت حماساً يفوق حماسي :"إنها لمغامرة رائعة!". وهززت كتفيّ غير مكترث ، ثم استعدنا معاً ذكرياتنا كمحاربين قديمين.

إستغرقت نزهتنا أكثر من ساعة . كان بوسعي أن أمشي هكذا أياماً وليال بطولها دون أن أشعر بالتعب . فكل كلمة نقولها ، عن أنفسنا، وعن الآخرين ، وعن صفحات التاريخ التي طويت لتوها ، وعن تلك التي قد تفتح ، عن مصير العالم ، تقرّبنا من بعضنا البعض، كذلك الإنطباع الذي شعرنا به في ليون منذ أربع سنوات خلت ، بأننا متلاصقان بالرغم من تباعدنا ! ومع ذلك ، كانت يدانا المتأرجحتان بالكاد تتلامسان .

في تلك اللحظة ، لم أقل لنفسي " أحبها "، لا لنفسي ولا – بالأحرى – لها . وما سأقوله قد يبدو مضحكاً أن يتفوه به رجل عجوز: كنت أشعر بكل أعراض الحب المفتون ، ولكن الكلمات لم تحضرني . ويبدو لي أن المرء بحاجة ، في مثل تلك اللحظات ، إلى صديق صدوق يتلفظ بكلمة " عاشق " حتى وهو يهزأ منك ، حتى ولو كان سيء النية بالمطلق ، من أجل أن تطرح على نفسك السؤال عينه ، وحينئذٍ تتيقن من الجواب .

غير أنها نظرت إلى ساعتها فشعرتُ كما لو أنها تمزّق عروقي . كنت أشعر فعلاً بوجعٍ لجهة القلب وقلت لها : " إبقي بعد ! " بنبرة متوسّلة . فعاودت المشي والكلام .

وبعد بضع دقائق ، نظرت إلى الساعة من جديد وتوقفت :

– لا أستطيع أن أفارق خالي طويلاً ، كما أن الناس ينتظرونك...

كنا قد وصلنا أمام المدخل الرئيسي للمنزل ، والضيوف مازالوا يتقاطرون . لم يكن بوسعنا أن نتبادل قبلة على مرأى من الجميع ، إذ لم نكن في فرنسا ... وإكتفيت بمصافحتها ، ثم راقبتها وهي تبتعد .

عدت إلى البهو ، لأجلس قرب والدي . كان الناس الذين وصلوا في غيابي والذين توزعوا في كل أنحاء البهو ، يقتربون مني ، الواحد بعد الآخر ، لتقبيلي وقول بعض عبارات التعزية . حاولت أن أكون لطيفاً مع كل واحد منهم ، بالرغم من أن فكري شرد بعيداً . كنت لا أزال أفكر بها بالطبع ، ولكنني لم أكتف بإستعادة تلك اللحظات الجميلة أو التحسر على رحيلها . كان الغضب يتصاعد في أعماقي . فالمرة الأولى ، رحل كلٌّ منا في سبيله تاركاً للصدفة أن تجمعنا من جديد . كان زمن المقاومة السرية وليس باليد حيلة . أما اليوم ، وقد تلاقينا بأعجوبة ، ها نحن نفترق وندع لقاءنا القادم لمشيئة الأقدار .

وماذا لو خانتنا الصدفة ؟ أو لن يقدَّر لي أن أراها أبداً ثانيةً؟! ألم أتصرَّف كالأحمق إذ تركتها ترحل من جديد هكذا ؟ تصافحنا ، ونأت حياتي وسعادتي ربما للأبد . وها أنا أترك الأمور تجري دون أن أحرّك ساكناً!

لم يكن بوسعي حتى أن أراسلها ، فهي لا تعرف بعد أين ستقيم في فلسطين ، ولا كم من الوقت . ربما أجد سبيلاً لأبعث لها رسالة ولكننا

لم نتجشم حتى عناء التفكير بالأمر . فطالما كنا معاً ، تكلمنا في شتى الأحاديث – وخاصةً عن خالها – كما لو أننا سوف نسير جنباً إلى جنب حتى أبد الآبدين . وافترقنا في ثوان معدودة لكي لا نزيد من صعوبة الوداع .

كلما فكرت بالأمر ، احتدم غضبي ، وحاولت على الرغم من ذلك عدم إظهار أي إنفعال ...

وفجأة ، وسط جملةٍ ، نهضت واقفاً وتمتمت اعتذاراً للشخص الذي كان يعزيني في تلك اللحظة ولوالدي . وخرجت مهرولاً تقريباً . صعدت في سيارة أجرة وقلت للسائق :" إلى فندق تدمر ، قرب المرفأ."

وخلال الطريق ، إذ كنت أعلِّق بصورة آلية على حديث السائق ، حاولت أن أهيىء في رأسي ما سوف أقوله لكلارا لتبرير هذه الزيارة المباغتة . وعندما وصلت إلى الفندق وبينما كنت أنتظر في أسفل السلالم أن يذهب الحاجب ليقرع بابها ويطلب منها النزول ، بقيت أحضِّر جملتي، وكنت أريد أن أظهر بمظهر ساذج قدر الإمكان. عندما نزلت كلارا ، وقد اعتراها القلق ، لم أجد ما أقوله لها أفضل من الجملة التالية :" نسيت أن أنتزع منك وعداً بمراسلتي ! " . لقد بدوت ساذجاً حقاً ، ولكن هذا أفضل، فكلما أظهرنا سذاجةً في مثل هذه الظروف ، نترك أثراً أعمق .

أصغت إليَّ كلارا مقطبة الجبين وهي تهز رأسها كما لو أنني أعلمها بأمرٍ بالغ الخطورة ، ثم نظرت حولها . لم يكن أحد يراقبنا . وطبعت على شفتي قبلةً خاطفة كأنها نقرة عصفور .

وعندما صحوت من المفاجأة ، كانت قد صعدت السلالم مهرولةً. وانصرفتُ بدوري . يا إلهي ، كم كانت السماء زرقاء في ذلك اليوم !

كتبت لي بعد شهرين رسالة من سبع أو ثماني صفحات خيَّبت أملي بعض الشيء . لم يخب أملي تماماً ولكن لنقل أن رسالتها لم تشبع جوعي . وأنا أعرف السبب . فقد اعتبرت أن تلك القبلة لم تحصل بيننا أصلاً . والأنكى من ذلك أنها كتبت لي بالألمانية بصيغة الإحترام في حين أننا قد رفعنا الكلفة عفوياً بيننا خلال نزهتنا في الحديقة حيث تبادلنا الحديث بالفرنسية .

لم يكن تصرُّفها يبشّر بالخير...

نعم، كتبت لي بالألمانية. اعتدنا التحدث بالفرنسية منذ لقائنا في ليون، كانت تجيد التعبير بهذه اللغة وترتكب بعض الأخطاء بين الحين والآخر، و لكنها ترتاح في الكتابة بلغة غوته أكثر من لغة شاتوبريان...

خاطبتني في رسالتها بصيغة الاحترام، كما لو أنها نادمة على تلك القبلة... و خلَتْ رسالتها من أي تلميح يخصها أو يخصنا نحن الاثنين في مطلق الاحوال .

حدَّثتني أيضاً عن خالها، وعن الصعوبة في إيجاد سكن يلائمه، فهل كان يأمل العثور على سكنٍ يشبه منزله في غراتز ؟ كل ما عُرض عليه هو شقة أرضية في مبنى جرى تشييده على عجالة ، مؤلفةً من غرفتين وغرفة معيشة ومطبخ وحمام مشترك مع عائلتين أخريين وفي حيٍّ من أحياء حيفا يتصاعد فيه التوتر بين العرب واليهود، ولا يمر فيه يوم دون حصول اشتباكات أو عمليات إرهابية. لم تكن كلارا تتوقع كل

هذا العنف، وتحدثت في رسالتها، مرتين أو ثلاث مرات ، عن "سؤ تفاهم مأساوي" يجب العمل على تبديده .

لم تكن تقبل أن يتصادم شعبان كان هتلر يضمر لهما الكراهية، وذلك غداة هزيمة النازية نفسها ، ويصل بهما الأمر إلى درجة الاقتتال، ويكون كل منهما مقتنعاً بأنه يدافع عن حقه المشروع، ويعتبر نفسه ضحية الإساءة . اليهود من جهة ، لأنهم قد عانوا أسوأ ما يمكن لشعب أن يعانيه ، من محاولة إبادة ، ولأنهم مصممون على بذل ما بوسعهم كي لا يتكرَّر ما حدث أبداً ؛ والعرب من جهة أخرى ، لأن تصحيح هذه الإساءة كان يتم نوعاً ما على حسابهم ، في حين أن لا علاقة لهم بالجريمة التي اقترفت في أوروبا .

كانت كلارا في رسالتها تقوّم الأمور بهدوء وموضوعية ، بينما النقمة على أشدّها لدى العرب واليهود على حدٍّ سواء . ولم تقتصر على التحليل بل قرنت القول بالفعل ، وراحت تقاوم كما فعلت خلال الحرب ، ولكنها كانت تقاوم الحرب هذه المرة .

وفي الواقع ، عندما تحدثت عن الخيبة التي شعرت بها لدى قراءتي رسالتها الأولى ، فما أردت قوله تحديداً أنني كنت أتوقع رسالة غرامية أو أقلّه رسالةً تأخذ علاقتنا الناشئة في الحسبان ، وعوضاً عن ذلك، تلقيت رسالةً من " رفيقة في النضال" .

كانت كلارا تبدو متأثرة تأثراً عميقاً بالنزاع الذي يدور حولها وتقول أنها مصممةٌ على النضال بكل قواها "لتجاوزه". و قد أخبرتني برصانةٍ أنها انضمت إلى مجموعة من المناضلين تدعى اتحاد العمال العرب واليهود في فلسطين. وأسهبت في شرح أهدافهم و كانوا لا شك

مفعمين بالنوايا الحسنة. وبالرغم من عددهم القليل - فهيئتهم لم تكن سوى مجموعة صغيرة شجاعة - كانوا يأملون تغيير مجرى التاريخ.

هل كنت أنظر الى الأمر نظرة شكٍّ ؟ ليس بالقدر الذي يستشفُّ من كلامي اليوم. فبعد ثلاثين عاماً من الصراعات، تنتزع فكرة إنشاء اتحاد العمال العرب واليهود في فلسطين في يوم من الايام ابتسامة منا، ابتسامة ساخرة عند البعض، وابتسامة حنونة عندي. وفي تلك الفترة، لم أكن أستجيب للأحداث بالطريقة نفسها. وحين أستحضر حالتي الذهنية في تلك الفترة، وهو تمرين شاق، فأعتقد أنني رحبت بمشروع كلارا ورفاقها لأنه ينسجم مع مثلي العليا وليس فقط لأنه نابع منها. كانت هذه الهيئة، كما يدل اسمها، يساريةً، بصورة لا يرقى إليها الشك . ولكن ماذا تفعل، ففي ذلك الحين، كان الذين يريدون الوقوف بوجه الحقد العنصري أو الديني لا يعرفون سوى أن يقولوا : " ياعمَّال العالم، اتحدوا ! ". وفي الواقع، لم يقدِّم هذا النداء أو يؤخر ولكنه كان الطريقة الوحيدة للقول: " كفوا عن الاقتتال! ".

ولكن لنعد الى كلارا ورسالتها. لقد أجبت عليها سريعاً ، يوم تلقيتها أو في اليوم التالي. كتبت لها بالفرنسية ورفعت الكلفة مباشرةً ، متمنياً أن تنتبه إلى الامر وتعاملني بالمثل. و لم أشأ الاعراب عن المزيد من الحميمية. كنت أحذو حذوها وأروي لها بدوري ما كنت أفعله منذ بضعة أسابيع، أي بصورة أساسية، محاضرات أروي خلالها " نضالي".

لم أتحدث عن هذه المحاضرات من قبل ، ولكنها كانت آنئذ نشاطي الرئيسي وربما الوحيد، وأسهمت في إرساء شهرتي عبر البلاد.

بدأ الأمر عرضاً بصورةٍ ما وبسبب ظرفٍ طارىء . فقد كانت هناك جمعية رياضية وثقافية غير بعيدة عن منزلنا قرر القيّمون عليها الذين كانوا يعرفون والدي تنظيم حفلة على شرف " المقاوم الصنديد" الذي كنت. وقد استأجروا صالة وتكبدوا نفقات. وقبل أسبوع من الموعد المقرر، توفيت جدتي. فلم يعد وارداً إقامة الحفلة ولا الموسيقى الراقصة والالعاب و الهدايا . و بدلاً من إلغاء كل شيء، اقترحوا علي التحدث عن " نضالي" في محاضرة مرتجلة وسرد بعض النوادر والاجابة عن بعض الأسئلة. فلا شيء يمنع القيام بذلك في فترة الحداد.

صُفَّت المقاعد على الحلبة المعدَّة أصلاً للرقص ووُضعت طاولة صغيرة لي مع كأس من الماء .

لم أحضّر شيئاً. وبدأت باستحضار بعض الذكريات بكلمات بسيطة ونبرة حميمة. خيَّم الصمت على الحضور المعتادين على سماع كلمات أشبه بالخطابات . كنت أشعر من خلال صمتهم وتنفسهم وتنهداتهم وأحياناً بعض همهمات الموافقة أو الدهشة أن شيئاً ما يحدث بين هذا الجمع وبيني. وتلقيّت في ذلك المساء ثلاث دعوات أخرى لإلقاء محاضرة ثم ، في الأسابيع التالية عشرين فثلاثين ثم ستين دعوة في كل أحياء العاصمة، وفي المدن الساحلية الأخرى وبعض قرى الجبل. وفي كل مكان، كان الناس يستمعون إلي بكل جوارحهم لساعتين بل و ثلاث ساعات ، وأنا أستعذب الأمر ، وأجد فيه نشوةً لم أعرفها من ذي قبل . كانوا منبهرين ، وأنا مسحور بقدرتي على إبهارهم ، ولم أبخل عليهم بوقتي .

أما والدي ، ومع كل الأحلام التي كان يتمنَّاها لي ، فغني عن القول كيف كان يتأملني خلال هذه اللقاءات . والجديد في الأمر أنني بدأت

أؤمن بعض الشيء بمصيري " كزعيم " وقائد للجماهير . وإذ جاءت هذه التجربة الجديدة عقب مغامرتي في صفوف المقاومة ، فقد حملتني على الاعتقاد ، وللمرة الأولى ، ورغماً عني على الدوام ، أن هنالك شيئاً من الصحة ربما في نبوءة والدي بشأني كما في نبوءة نوبار. فربما ، وبعد وضع كل الاعتبارات جانباً ، قد يكون لي مستقبل على شكل قدر أو مصير مكتوب ، وأقول ربما ، لأن تلك الفكرة ، وإن بدأت تروق لي ، فقد قوبلت بالممانعة ، وأكرّر ذلك ، من جانبي.

لقد قلت لك البارحة – أو هل كان ذلك قبل البارحة ؟! – أنني فقدت الرغبة بالدراسة بعد الحرب ، ربما بسبب تلك النشوة . نعم ، لا شك أن الأمور بدأت على هذا النحو .كان ينتابني الشعور بأن كل الأبواب ستكون مشرعةً أمامي ، وما عليَّ سوى المضيِّ قدماً كما لو أن العقبات لا وجود لها ؛ وعادةً ما يبدأ السقوط نحو الهاوية على هذا النحو.

غير أنني أستبق الأحداث قليلاً ، فأنا لم أعرف الانهيار بعد ، أملك جناحين ، ولم أستنفذ بعد كل أفراحي .

وفي أحد الأيام ، خلال إحدى محاضراتي التي نُظمَّت في صالة سينما بالحي ، خلتُ أنني لمحت امرأة جالسة في آخر القاعة ، ولها نظرة كلارا . لم تعلمني بحضورها ، ولم أعد قادراً على تمالك نفسي ، فقد غمرت السعادة العاشقَ الذي كنت . أما بالنسبة إلى المحاضر ، فكانت الكارثة ! ذلك أن التحدُّث كما كنت أفعل يتطلب الغوص في قرارة النفس، وبلوغ أرقى درجات التركيز والتفاني في العطاء كالممثل على خشبة المسرح . في ذلك اليوم ، ومذ لمحتها ، تشتت ذهني ، واجتاحته التساؤلات والتهيؤات ونفاذ الصبر ... ولذا ، فقد أوجزت الكلام ، وهرولت نحو الخاتمة ، ثم اعتذرت من الحضور عن عدم الإجابة عن

أسئلتهم ، وقد برّر عريف الحفل موقفي " بظروف عائلية" ، منتزعاً مني وعداً بالعودة .

وبعد نصف ساعة ، كنا جالسين في منزلي ، في البهو . قدَّمت كلارا إلى والدي الذي تبادل معها بعض الكلام ثم انسحب بلباقة .

كانت قد أتت وفي جعبتها مشروع لصحيفة الإتحاد الذي تنتمي إليه ، من أجل العدد الأول الذي سوف يصدر قريباً ، وكانت تنوي نشر قصص عن مقاومين عرب ويهود حاربوا النازيين في العديد من البلدان المحتلة . وكان الهدف واضحاً وهو إقناع هؤلاء وأولئك بأنهم يجب أن يرصوا الصفوف ويناضلوا معاً من أجل مصيرهم المشترك ... ومن هذا المنظور ، كانت شهادتي تكتسب بعض الأهمية.

في البهو ، جلست كلارا على أكثر الأرائك انتصاباً . اقترحت عليها الانتقال إلى أريكة مريحة ، ولكنها رأت أنها لن تساعدها على تدوين الملاحظات . ثم أخرجت كراساً وضعته على ركبتيها ، وكانت ترتدي تنورة طويلة مكسَّرة الأطراف مزينةً بمربعات اسكتلندية خضراء وسوداء وقميصاً أبيض ، وتشبه تلميذة مدرسة . طلبت مني أن أروي التجربة التي خضتها خلال الحرب ، من البداية إلى النهاية ، منذ وصولي إلى فرنسا وحتى عودتي إلى الوطن ... كان من المفترض أن يكون الأمر في غاية البساطة ، لا سيما وأنني لم أفعل سوى سرد القصة نفسها منذ أسابيع أمام حضور يتنامى عدده يوماً بعد يوم . ومع ذلك ، فقد بقيت صامتاً ، أحاول عبثاً البحث عن مدخل للحديث .

وبما أن الصمت طال ، فقد أرادت تهوين الأمور عليَّ : " تخيَّل أنك أمام قاعة تعج بالناس ، وأنك تتحدث أمام أشخاص لا يعرفون شيئاً عن حياتك ، وابدأ الكلام " .

- حسن ، سوف أبدأ ، ولكن الأمر ليس بهذه السهولة ، بيننا نحن الإثنين ، في هذا البهو ، فأنت تعلمين الكثير من الأشياء عن تلك الفترة ، غير أنني سأحاول . دعيني أركِّز بعض الشيء .

أعقب ذلك صمت طويل .

- كلارا ، أريدك أن تعديني بأنك لن تقاطعينني مهما قلت ، ولأي سبب كان ، قبل أن أفرغ من الكلام ، وأرجو ألا تنظري إليَّ بل إلى كراسك .

أعدك !

كانت تبتسم بسبب هذه التصرفات الصبيانية ، وقد انتابتها الحيرة وربما الحنان ، وخيَّم الصمت من جديد ، ثم قلت هذه الكلمات التي لم أنسها بعد :

- لقد فكرت كثيراً منذ لقائنا الأخير ، وأعرف الآن ، دون أدنى شك ، أنني مغرم بك . أنت امرأة حياتي ، ولن يكون لك بديل . أحبك بكل جوارحي حين تكونين هنا ، وأحبك حين تغيبين عن ناظريَّ. إذا كنت لا تبادلينني الشعور ، فلن ألحَّ عليك ، فالحب شعورجامح وعفوي يجب أن يجتاحك اجتياحاً كاملاً ، وليس ميلاً نكتسبه مع الوقت. وإذا كنت لا تشعرين به نحوي ، نستطيع أن ننتقل بعد دقيقة واحدة إلى موضوع آخر ، ولن أزعجك أبداً . ولكن ، إذاحالفني الحظ ، وكنت تبادلينني الشعور ، فأنا أسعد إنسان في الكون . كلارا ، هل تصبحين زوجتي ؟ سوف أحبك حتى الرمق الأخير ...

تحدَّثَتُ دون توقف خوفاً أن تقاطعني فأتلعثم . لم أنظر إليها ولو نظرةً واحدةً . وعندما فرغت من الكلام ، لم أنظر إليها كذلك . كنت أخشى أن ألمح في عينيها ما يشبه اللامبالاة أو الشفقة ، أو حتى الدهشة ، ذلك أنني ، وإن كنت أعرف تماماً أنني أباغتها بتصريحي ، فأي تعبير دهشة ألمحه على وجهها سوف يدعوني للإعتقاد بأننا لا نتبادل الشعور نفسه ... وكل ما ستقوله بعد ذلك ، سيكون من قبيل اللياقة والتعزية فحسب .

لم أنظر إليها إذن ، ولو استطعت أن أشيح بأذنيَّ كما أشحت بنظري ، لفعلت ، ذلك أنني كنت أخشى سماع اللامبالاة والشفقة في كلماتها ونبرة صوتها بقدر ما أخشى نظرتها .. كنت أصغي إلى تنفسها فقط ، حاراً كالتنهيدة .

– نعم .

لقد قالت : " نعم " .

كان أجمل جواب وأكثره بساطة ، ومع ذلك ، لم أكن أتوقعه.

كان بوسعها التفوه بعبارات ملتوية للقول بأنه ، ونظراً للظروف ، يبدو لها من الممكن...وكنت قاطعتها بحزم ، وقلت لها : " لننسى الموضوع ! " . ولو انتزعت مني وعداً بأن نبقى صديقين بالرغم من كل شيء ، لأجبتها : " بالطبع ". ولكنني لن أرغب برؤيتها ثانيةً ما حييت ، ولا سماع اسمها يلفظ على مسمعي .

وكان بوسعها ، على العكس ، أن تعترف لي بأنها تبادلني الشعور منذ لقائنا الأول ... فأعرف عندئذٍ ما أقول وأفعل أما هذه " النعم" البسيطة، هذه " النعم " المقتضبة ، فقد لجمت لساني .

كدت أسألها : " نعم ، ماذا ؟ " إذ ربما أرادت أن تقول ببساطة : " نعم، لقد سمعتك " ، أو " نعم ، أعي ما تقول" ، أو " نعم ، سوف أفكّر بالأمر."

نظرت إليها قلقاً وغير مصدّق . كانت " نعماً " حقيقية ، الأكثر صدقاً ، مصحوبةً بعينين مغرورقتين ، وابتسامة المرأة المعشوقة .

مساء الجمعة

تركت عصيان في تلك اللحظـة ..تذرَّعت بموعد لم أتمكَّن من إلغائه . كنت أشعر أنني يجب أن أنسحب وأدعه وحده مع ذلك المشهد الذي عاود الظهور على صفحة عينيه ، أن أتركه يستمتع باللحظة تطـول، ويصغي من جديد إلى الكلمات ويرى مرة تلو الأخرى وجه الحبيبـة ، ولا ريب أن بقية الرواية سوف تأتي لا محال .

فتح لي الباب بامتنانٍ ورافقني بضع خطوات حتى المصعد على السجادة الصفراء المغبرة في الرواق .

لدى عودتي في العشية ، كانت فرحته لم تخمد بعد . وإذ سألني: " أين وصلت هذا الصباح ؟ " ، فليس لأنه فقد تسلسل الأحداث بل فقط ليسمعني أردِّد : " قالت لك : نعم ! " .

هيَّأت قلمي وفتحت مفكِّرةً جديدةً كما فعلت في مستهل الجلسات الثلاث السابقة . كتبت " مساء الجمعة " على الصفحة الأولى قبل أن أقلبها وكان هو يبحث عن الكلمات .

- هل أستطيع أن أطلب منك عدم المباشرة في الكتابة فوراً ؟

فوضعت قلمي جانباً وانتظرت . سمعت صوته يأتيني من بعيد.

- لقد تبادلنا قبلة .

أقسم أن وجهه احمرَّ خفراً وهو يسرُّ لي بذلك . وأخفضت بصري بدوري . كان يشقُّ عليه أن يبوح بأسراره على هذا النحو . وبعد هذا الجهد الذي بذله ، عاد ليذرع الغرفة بخطى خفيفة دون أن يضيف شيئاً . ثم ، وكما لو انتهى من نزهة ممتعة في قرارة نفسه وتنبَّه فجأة لحضوري ، قال لي بإيماءة من يده :

- هكذا !

اعتقدت أنه انتهى من هذا الفصل الحميم ، فتلمَّست صفحات مفكِّرتي بحركة مألوفة ، متأهباً لمعاودة الكتابة بينما هو يملي عليَّ . غير أن التردّد كان يجعل يدي تحجم ، إذ لمحت بريقاً في عينيه أوحى لي بأنه لم يعد تماماً من حجّه الباطني . فأغلقت سدادة القلم الذي تعمَّدت وضعه في جيب سترتي الداخلي . وأطبقت كذلك المفكِّرة وشبكت ذراعيَّ . ابتسم محدّثي وقام بتحرير ياقته . وحدّقت في تفاحة آدم البارزة وسط عنقه . شعرت أن استحضار هذه الصفحة من حياته قد أحيا شبابه وألهب حماسه وجعل ذهنه يتوقّد بعض الشيء .

ماذا أفشي من أسراره دون أن أخونه ؟ هو لم يقل شيئاً يخرج عن الخفر الشرقي المحتشم ، غير أنني سألوم نفسي إذا نسبت إليه أقوالاً أغفلت تدوينها في حضرته ، وسوف ألوم نفسي بدرجة أقل إذا اكتفيت برسم الخطوط العريضة للمشهد .

رافق كلارا حتى فندق تدمر حيث استأجرت غرفة كما في المرة السابقة . ومرَّا بالمكان الذي طبعت فيه قبلة على شفتيه المدهوشتين . كان المكان خالياً هذه المرة ، فردَّ لها عصيان قبلتها ، نقرة العصفور نفسها ، ثم تشابكت أصابعهما وصعدا السلالم وقد تعانقت نظراتهما .

كانت للغرفة التي تقع في الطابق الثالث نافذة كبيرة تطلُّ لجهة اليسار على مباني المرفأ ، ولجهة اليمين على خط الساحل وامتداد البحر.

فتحتْ النافذة فدخل هواء دافيء حاملاً ضجيج المدينة ، وكانت يداهما المتعرّقتان تحاولان الواحدة أن تشدَّ أزر الأخرى ، وعيناهما قد استسلمتا للفرح والحياء .

وفيما كان يتحدَّث ، وإذ توقفت عن الكتابة ، رحت أراقبه . لقد سبق أن قلت إنه نحيل وطويل القامة، ولكنه بدا لي متطاولاً هذه المرة، متطاولاً كلياً ، كل ما فيه متطاول ، ساقاه وذراعاه وصدره ولا سيما عنقه الذي تراءى لي ممطوطاً بوضوح على حين غرةٍ بالمقارنة مع رأسه الطفولي الأشيب ، وربما لهذا السبب ، كان مائلاً دائماً ، هنا، أمامي ، كما في الصورة التي توجد في كتاب التاريخ المدرسي...

أما هو ، فكان يتابع طريقه ، وحبيبته إلى جانبه ، غير آبهٍ بنظراتي المتفحِّصة .

– في المساء ، خرجنا لنتمشى على الكورنيش قرب خليج سان جورج ، وتحدثنا عن الزواج .

أجل ، في ذلك المساء ، فلم التريُّث ؟ كانت السعادة تمرُّ كحبلٍ خشن الملمس على راحتينا ، وعلينا إطباق يدينا عليها بشدة كي لا تفلت منا ، ولم نشأ أن نترك للقدر ترتيب لقاءاتنا المقبلة ، ولدى كل منا الرغبة والعزم على العيش معاً كل لحظة مقبلة وإلى الأبد . وإذا اعترضت العقبات سبيلنا ، فسوف نقوم بتذليلها . وقد بدا لنا أن لا شيء بمقدوره أن يقف حجر عثرة في طريقنا ، فما علينا سوى اتخاذ بعض القرارات والقيام ببعض الخيارات ، وقبل كل شيء : ما هو الزواج الذي نريد ؟ فالزواج المدني لم يكن موجوداً في بيروت ، وكنا لا نريد زواجاً دينياً ، إذ لم نشأ الكذب من أجل عقد قراننا ، فلا هي ولا أنا كنا مقتنعين بالأديان السائدة ، فلماذا التظاهر بخلاف ذلك ؟

وفي مطلق الأحوال ، أي دين كنا سنختار لعقد قراننا ؟ دينها ؟ أم ديني ؟ فهذا الحل أو ذاك سوف يسبب المشاكل أكثر مما يساعد على

تسويتها ! لا ، خطرت ببـالي فكرة أصـوب ، وهـي اللجـوء إلـى جـاك – مزوّر – الأوراق .

سألتني كلارا مرتاعةً : " أتريد وثائق مزوَّرة للزواج ؟ " ، فهدَّأت من روعهـا وشـرحت لهـا أن جـاك كـان فـي حياتـه المدنيـة عمـدة لبلـدة صغيرة فـي ضواحـي بـاريس ، ولـم يخبرني بذلـك إلا عندمـا وضعـت الحرب أوزارها ، وكان يتهيأ حينها للعودة إلـى وظيفتـه . فمـن أفضـل منه يعقد قراننا وهو الذي عرّفنا ببعض أول مرة عن غير قصد ؟ ألم نكـن بانتظاره في تلك الليلة عندما كنا في مدينة ليـون ؟ حسـمنا أمرنـا بسـرعة، وقرّرنا السفر وحدنا إلى فرنسا وعقد زواج بسيط ثم العـودة للإحتفـال مـع أقاربنا .

لم يتردَّد والدي لحظة واحدة عندما أطلعته على مشاريعنا . "إنها امـرأة ذكيـة وجميلـة وحنونـة .. وثوريـة ! فمـاذا أطلـب بعـد ؟ ". كــانت السعادة تغمره ، فقد تبنّىكلارا منذ رآهـا للمـرة الأولـى ، وهـي بدورهـا ، كانت تكنُّ له عاطفة صادقة كما لو أنها وجدت أباً ثانيـاً، مرحـاً وصـاخبـاً وهشاً .

بقي الخال ستيفان . لم تكن كلارا واثقـة من ردة فعلـه ، وأرادت أن تطلب موافقته احتراماً له ، ولكنها صمّمت على عدم اعتبار رأيـه إذا أظهر ممانعةً . وهكذا ، اتفقنا على الافتراق لعدة أسابيع حتى يهتم كل منـا بالتحضيرات الضرورية وإعلام الأهل وتحضير الوثائق المطلوبة ثم اللقاء في باريس في يومٍ محدَّد وساعة محدَّدة ومكان محدَّد ..

كان موعدنا في ٢٠ حزيران ، الساعة الثانية عشرة ظهراً ، على " رصيف الساعة" ، لماذا هذا المكان تحديداً؟ لأنني عندما كنت أعمل في " المشغل " في ليون ، روى لي أحد الرفاق قصـة جـرت قبـل الحـرب عـن

عاشقين التقيا على رصيف الساعة ، وتحديداً " بين البرجين الصغيرين "، وقد فتح خارطةً ليدلني على المكان على ضفاف نهر السين . وقد انطبعت حركته في ذاكرتي ، وربما توسَّمت فيها خيراً ، فخطر ببالي هذا المكان للقائنا .

في باريس ، جرى كل شيء كما اتفقنا ، بل وأفضل مما توقعنا. فقد وصلنا قرب البرجين في اللحظة نفسها ، هي من جهة ، وأنا من الجهة الأخرى من الرصيف .

كان جاك – مزوّر – الأوراق قد اتصل بالشاهدين المتوقعين – ولا أستطيع أن أمنع نفسي من إطلاق هذا اللقب عليه بالرغم من أنه استعاد وظيفته الجليلة ووضعه المدني . كان شاهدي برتران ، وشاهد كلارا زوجته دانييل التي استضافت لقاءنا الواعد في ليون .

كانت دار البلدية معتمة والناس قليلين حتى ليخال المرء أنه عاد إلى الحياة السرية ، ولم يكن هذا الوضع يثير استياء أصدقائي الذين شعروا كلهم بغصة ، وهم يسترجعون ذكريات تلك الفترة القريبة التي تكتسب فيها كل حركة مغزى كالسير في الشارع مثلاً دون أن يتعرف عليك أحدهم ، وهو أشبه بإنجازٍ يتكرَّر على الدوام. أما الآن، فالسير في الشارع دون أن يتعرف عليك أحدهم ، فهو من قبيل اليأس اليومي . فكيف نستمتع بمآكل عديمة الطعم عندما أتخمنا طوال أربعة أعوام من مذاق البهارات ؟

لم أشعر في تلك الفترة بإحباطهم إذ لم أكن شخصية بارزة في المقاومة ، بل مجرَّد جندي مجهول . ولم أعاني من تلك الصدمة المباغتة

لدى الإنتقال من الحلم إلى الواقع . فما أن خرجت من السرية حتى عدت إلى بلدي حيث لا أحد يعيش مجهول الهوية .

ومن ثم ، فقد كانت هناك كلارا على وجه الخصوص ، وإذا اقتضى اندلاع الحرب لنلتقي ، فأنا كنت أرغب بالعيش معها في زمن السلم . لم أكن أدين للحنين إلا بضريبة اللياقة ، وإنما كنت أتعبَّد الغد ، وسنواتنا المشتركة العتيدة ، وكذلك المستقبل الراهن ، وتلك الخطوات الأولى برفقة المرأة التي ستحمل اسمي من الآن فصاعداً ، وكل الأشياء التي سنقوم بها معاً للمرة الأولى ، وعود العشاق ولكنها وعود سوف نفي بها ، فأنا لم أقبِّل كلارا قط ولا احتضنت يدها بين يديَّ بشعور التكرار والإلفة والعاطفة القديمة ، فالحب قديبقى على حاله وكذلك العاطفة ، شهراً بعد شهر ، سنة تلو السنة ، لأن الحياة ليست مديدةً بما فيه الكفاية كي نسأمها .

نظَّم والدي ، لدى عودتنا من فرنسا ، أجمل حفلة عرفها منزل كتبدار . وقد توسلت إليه قبل رحيلي ألا يسرف ، واكتفى بالقول : "أترك لي هذه المتعة ! " ، فرضخت لمشيئته . وقد أسرف بالقدر الذي كنت أخشاه فاستقدم فرقتين موسيقيتين تناوبتا على العزف ، واحدة شرقية والثانية غربية ، وعجَّ الحفل بمئات المدعوين وقالب حلوى ضخم توجب تخفيضه ليمرَّ عبر باب غرفة الطعام الذي كان مرتفعاً ، وأتحفَّظ عن وصف البذخ في الإنارة والعربدة في أطايب الطعام . .. فللمرة الأولى، تصرَّف والدي الذي أمضى طوال حياته يدين حديثي النعمة كواحدٍ منهم ، ولكنه كان سعيداً ، وكلارا بدورها كانت سعيدةً ، فماذا أطلب أكثر من ذلك ؟

وأنا ، ألم أكن سعيداً ؟ لا أريد أن أبدو منغِّصاً للأفراح ، ولكن البهرجة لا تهمني . بلى ، كنت سعيداً ، سعيداً للحدث الذي يجري الإحتفال به على هذه الشاكلة ، سعيداً لاحتضاني يد كلارا بين الحين والآخر ، وتبادل نظرة معها وسماعها تضحك وتهمس لي أنها سوف تأتي منهكةً ، بعد انتهاء السهرة ، لتضع رأسها على كتفي . وكنت سعيداً لرؤية أشخاص لم ألتق بهم منذ وقت طويل ، بدءاً من شقيقتي التي قدمت من مصر خصيصاً مع زوجها الذي لم أكن قد التقيته بعد...

وكان الخال ستيفان حاضراً كذلك ، فقد كتب له والدي ، ثم أرسل سيارة تقلُّه من حيفا إلى بيروت . كانت المسافة لا تتجاوز ١٥٠ كيلومتراً، والرحلة تستغرق في تلك الأيام أربع ساعات براً مع الاستراحات . وقد وصل باكراً قرابة الظهر ، فاستطعنا التعارف قبل أن يجتاحنا المدعوون . هل كنت أتهيب هذا اللقاء ؟ ليس بالفعل بل بالأحرى كانت كلارا هي التي تشعر بالتوتر ، فقد احتفظت تجاه خالها بمشاعر الريبة والحذر التي ورثتها عن والديها . فلماذا كانوا يلومونه؟ ألأنه رجل أعزب ثري ، مهووس بعاداته وطقوسه ، ولا يعمل؟ كنت على يقين أنه سينسجم مع والدي ، فكلاهما ينتميان إلى القرن التاسع عشر ولم يعرفا الإندماج في القرن الحاضر ، وبالتالي سوف يكتشفان أن الكثير من الحنين المشترك يجمع بينهما .

وقد انتابني بعض الخوف عندما دخلت شقيقتي التي غابت معظم النهار البهو متأبطة ذراع زوجها . فتخيَّل المشهد : من جهة ، صهري محمود سليل العائلة المسلمة العريقة في حيفا الذي اضطر للرحيل عن مدينته بسبب التوتر السائد.بين العرب واليهود والذي كان يشعر أصلاً أنه لن يكتب له العودة إليها على الأرجح ؛ ومن جهة أخرى ، ستيفان

اليهودي القادم من أوروبا الوسطى والذي جاء تحديداً للإستقرار في هذه المدينة ، وكلاهما قريبان للعروسين ...

قرّرت الإكتفاء بتقديمهما لبعضهما البعض بأكثر الأساليب اقتضاباً . محمود الكرملي ، صهري ، وستيفان تيميرلس ، خال كلارا، فتصافحا ، ثم قال والدي بالفرنسية وبصوت مرتفع :

– "لديكما قاسم مشترك ، فمحمود من حيفا ، وخال عروس ابني يقطن فيها ".

نظرت إلى كلارا ، كان كل منا يمسك بيد الآخر كما لو أردنا التصدي بصورة أفضل للعاصفة الوشيكة .

وأردف والدي قائلاً : " إجلسا معاً فلا شك أن لديكما أشياء كثيرة تتحدثان عنها " .

كان يلحُّ ، أليس كذلك؟ ولكن لا يتبادر إلى ذهنك أنه فعل ذلك عن سهوٍ أو قلة دراية بل من باب التحدي وروح الاستفزاز ، فقد كان يزدري كل الازدراء ذاك الموقف الشائع في المشرق الذي يدعى "مراعاة " الحساسيات والانتماءات، ذلك الموقف الذي يقضي مثلاً بأن يهمس المرء إلى مدعويه : " إنتبهوا ، فلان يهودي! " أو " فلان مسيحي ! " أو " فلان مسلم ! " ، فيجهد البعض والبعض الأخر لممارسة الرقابة على كلامهم الإعتيادي ، الكلام الذي يتفوهون به عندما نكون " بيننا " ، والتلفظ بالتفاهات المعسولة التي من المفترض أن تعكس الاحترام الذي نكنّهُ للآخر ، والتي لا تعبّر في الواقع سوى عن الاحتقار والمجافاة ، كما لو أننا ننتمي إلى فصائل مختلفة .

وهبْ أن الرجلين اللذين أجلسهما الواحد قرب الآخر راحا يتناهشان ؟ وإن يكن ، فذلك يعني أنهما يستحقان أن يتناهشا ، وكفى .

أما هو ، فواجبه أن يعاملهما ككائنين بشريين ، يخوضان معاً المغامرة الكبرى عينها . وإذا كانا غير جديرين بها ، فتباً لهما . وماذا لو تعكّر صفو الحفل بسبب خلافهما ؟ لا ضير في ذلك ، لأن ذلك يعني أننا لا نستحق مثل هذا الحفل !

كانت ردة فعلنا الأولى ، أنا وكلارا ، هي التخوُّف من الفضيحة. لم يكن موقفاً شجاعاً ولكن يجب أن يضع الآخرون أنفسهم مكاننا ، فنحن لم نشأ أن تحل العداوة والبغضاء بين العائلتين ، إذ لم يكن زواجنا أصلاً ، وفي الزمن الذي نعيش فيه ، بالأمر اليسير ، وكل ما نحتاج إليه هو حماية أنفسنا من الأحقاد السائدة ...

ولكنها كانت ردة فعل أولية وغريزية ، فالنظرة التي تبادلناها كانت تحمل من المرح بقدر ما تحمل من القلق ، وانسحبنا دون أن نضيف كلمةً واحدةً ، وكأننا نتراجع خطوةً خطوةً إلى الوراء ...

عدنا إليهما بعد ساعة ، وفوجئنا بهما يجلسان على انفراد في المكان نفسه ، وقد غرقا في قهقهة طويلة لم نفهم سببها بالطبع ، وقد شاركنا فيها من بعيد ، فتنفسنا الصعداء وخجلنا من شدة مخاوفنا .

وإذ لاحظ محمود والخال ستيفان حضورنا واستغرابنا بعد برهة، رفعا معاً كأسيهما بإيماءة خفيفة نحونا .

كنت تخالهما أعز صديقين في العالم ، ولوددت فعلاً أن يكون هذا هو الواقع ...ولكن ، لا ، للأسف ، ، ربما قد فات الأوان .

ولاحظ أنهما لم يتشاجرا كذلك ، لا إطلاقاً . فحتى النهاية ، سوف يظهر كل منهما كل اللياقة والتهذيب تجاه الآخر ، ويتسامران بهدوء في أريكتيهما المتلاصقتين ، ويتجاذبان ظاهرياً أعجب النوادر بالإنكليزية كرجلين من رجال الطبقة الراقية تصادفا في النادي ...كان صهري هو الذي يسرد النوادر ويرفقها بحركات هزلية وأصوات مبحوحة، تشجعه أمارات المرح البادية على وجه محدّثه .

وعلى حين غرة ، ودون سبب وجيه ، ساءت الأمور ، فقد اقترب بعض المدعوين منهما ، وتم التعارف وتبادل اللياقات ، فهمهم محمود معتذراً وانسحب .

بعيد ذلك ، وبما أن الطقس أصبح بارداً ، صعدت إلى الطابق العلوي لأجلب كنزة صوفية ، فوجدت صهري جالساً في العتمة ، متهالكاً، بل أعتقد أنه كان يبكي . وكدت أسأله عمّا أصابه ، ولكنني أحجمت خشية أن أسبب له الإحراج ، وتصرفت كأن شيئاً لم يكن . وسيبقى هو في خلوته بقية السهرة .

ما الذي سبب له الإحباط يا ترى ؟ وإذ عدت إلى الحفل ، تحدثت مع شقيقتي بهذا الشأن ، وقد ظهر عليها القلق بالرغم من أنها لم تتفاجأ . ففي الآونة الأخيرة ، كان زوجها غالباً على هذه الحال ، يتحمّس أولاً ويبدأ بسرد آلاف القصص من الماضي البعيد ومن ذكريات الطفولة ، فتلمع عيناه ويُسَرُّ محدّثه ويكون حديثه متعة للعين والأذن . وما أن يخيِّم الصمت حتى يقطِّب جبينه ويستسلم للكآبة .

لم يكن يبوح بلواعجه ، وإذ اقترحت عليه شقيقتي أن يؤلف كتاباً من كل هذه الذكريات التي يجيد استحضارها ، استبعد الفكرة بحركة

حاسمة من يده : " ذكرياتي ؟ إنني أنفض أكواماً من التراب وأعرّضها للنور كمايفعل حفار القبور " .

أما الخال ستيفان ، فقد كان لحديث محمود وقع مختلف بل عكسي عليه . فهو الذي كان عادة صموتاً بل ومتذمراً ، سوف ينطلق لسانه من عِقاله بقية السهرة ، ممازحاً الشبان ومغازلاً السيدات ، وعيناه تبحثان باستمرار عن رفيقه الذي توارى عن الأنظار . وفي نهاية الحفل ، إذ لمح كلارا ، هرع إليها وأخذها على انفراد ، وسألها بنبرة كتومة :

- ألا تعتقدين أن هناك مجالاً للصلح ... معهم ؟

- أنظر حولك يا خالي ستيفان ، نحن متصالحون .

- لم أكن أعني ذلك وقد فهمتِ قصدي تماماً !

وإذ كنت أتجاذب أطراف الحديث مع شقيقتي في ذلك المساء ، للمرة الأولى منذ سنوات طويلة ، انتهزت الفرصة لأسألها إذا كان زوجها ذاك الرجل المتديّن الورع الذي وصفه لي والدنا ، الخاشع أبداً فوق سجادة الصلاة . فضحكت وشرحت لي أن محمود قد استاء يوماً إذ كان والدي يتهجّم على الدين فحسب . هذا هو الفرق بين والدي وبيني ، إذ يصدف أننا نفكر بالطريقة نفسها ، غير أنني أتحاشى قول ما من شأنه أن يجرح مشاعر الحاضرين ، أما هو ، فيجاهر برأيه واثقاً من أنه على حق ...

ما هو الموقف الأصلح ؟ أشعر بالندم اليوم لأنني لم أكن مثله، ولا ريب أنني لم أصبح المتمرّد الذي كان يحلم به لأنني عشت في ظلّ شخصيته القوية ...

بعد هذا الحفل ، نُظِّم حفلٌ آخر في حيفا وكان مؤثراً بالرغم من أنه أقلُّ استعراضيةً . في البداية ، لم نجد الأمر ضرورياً بما أن الخال ستيفان استطاع الحضور إلى بيروت ، غير أن أعضاء اتحاد العمال العرب واليهود في فلسطين أصرُّوا ، إذ كان الحفل يكتسب أهمية بنظرهم، ولم نشأ مضايقتهم .

كانوا عشرين يهودياً وعربياً ، وربما كان اليهود أكثر من العرب. وقد ألقى نعيم ، أحد منشّطي الحفل ، كلمةً قال فيها إنه يرى في زواجنا حدثاً نموذجياً ، وفي حبنا رفضاً للحقد .

ما أعجب نعيم هذا، وسط الحضور ، بغليونه الذي لم يكن يملُّ إعادة إشعاله ، والذي كان ينبعث منه عطر يذكرٌ بعطر الكرز الحلبي ، وبإكليل الشعر الأشيب الذي يزيّن رأسه . لم يكن عاملاً ولا مثقفاً في الواقع بل صناعياً مفلساً ، يجب على الأعضاء الآخرين في الاتحاد أن يحذروا منه منطقياً بسبب ما تقوله كتبهم عن أصول الصراع الطبقي ، وعلى عكس ذلك ، فلا أحد كان يشكِّك بدوافعه الحقيقية ولا بإخلاصه بل كانوا جميعاً ينظرون إليه ، خلال إجتماعاتهم ، نظرة تقدير وإحترام. ويقال إن أهله كانوا يملكون فيما مضى نصف المدينة ، وهو أسلوب شرقي يعني ببساطة أنهم أثرياء . وقد تبددت ثروتهم إثر أزمة الثلاثينيات كما حدث للكثيرين غيرهم . وتوفي أبواه وأعمامه الواحد بعد الآخر غماً ويأساً ، وعهدت إليه المهمة الجاحدة بتصفية ثروة أسلافه لإرضاء الدائنين. فباع كل شيء وخسر كل شيء باستثناء منزل على شاطىء

البحر ، دار قديمة من العهد العثماني ، فسيحةً لا تـزال تحمل مسحةً من الفخامة الغابرة ، ولكنه لم يعد قادراً على تحمل نفقات صيانتها . وعندما عرفتها ، كانت في حالة خراب شديد ، فجدرانها مشققة بل وبعضها متصدِّع ، وحديقتها قد غزاها العوسج ، وغرفها لا تحتوي على أثاث سوى البسط والفرش القديمة ، وسقفها مبقورٌ ، غير أنها بقيت تحافظ على أصالتها وسكينتها وسحرها ، وقد أقيم فيها الحفل على شرفنا .

خلال السهرة ، سمعنا مرتين أصوات انفجارات بعيدة ، وكنت الوحيد الذي جزع ، أما الآخرون الذين اعتادوا الأمر فكانوا يتكهنون حول مصدر الإنفجارات ببرودة أعصاب ، وتوقف الرقص لثوانٍ معدودة فحسب ، ثم تابع على إيقاع الموسيقى الصادحة من فونوغراف مستأجر.

كم كان ذلك الصيف عامراً بالحفلات ، أليس كذلك ! وكنا نتحاشى ، أنا وكلارا ، وسط هذه الدوامة ، أن نطرح على أنفسنا سؤالاً حاضراً لا يغيب عن بالنا في كلِّ لحظة : أين سنعيش ؟ كان يقيننا الوحيد أننا يجب أن نكون معاً بالطبع ، ولكن أين ؟

لو اضطررت لاتخاذ هذا القرار اليوم ، فأنا أعرف تماماً ما كنت فعلت . كنا سافرنا منذ أواخر الصيف إلى مونبيلييه ، فتابعت دراسة الطب ، واستأنفت كلارا دراسة التاريخ . وأنا متأكد اليوم أن ذلك الشيء الوحيد الذي كان ينبغي القيام به . فلو أصغى الشاب الذي كنت لصوت العجوز الحكيم الذي أصبحت في داخله ، لقال له هذا الصوت : " أهرب! أمسك بيد زوجتك وتشبث بها واركض ، أركضا سوياً وأهربا ! " . غير أن شبابنا لم يجد مرشداً له سوى الأوهام الراهنة . كان إعصار جامح يتأهب لاكتساح الشرق ، ونحن نريد التصدي له بأيدينا العارية . كان هذا هو الوضع بالضبط . فقد رضخ العالم بأسره أمام مشهد التناحر بين

العرب واليهود لعقود وربما لقرون عديدة ، واقتنع الجميع بذلك ، الإنكليز والسوفيات والأميركيون والأتراك... الجميع ما عدانا نحن الإثنين وبعض الحالمين قبلنا . كنا نريد الحؤول دون نشوب هذه الأزمة ، ونريد أن يكون حبنا رمزاً لحلٍّ آخر .

تقول لي إنه موقف شجاع ؟ لا ، كان موقفاً لا يمت للمنطق بصلة ! فبإمكان المرء التعبير عن أمنيته بحلول السلام والمصالحة ، فهذا موقف محمود ونبيل ويستحق الإكبار والتقدير ... أما المراهنة بحياتنا على ذلك ، ووضع سعادتنا وحبنا وزواجنا ومستقبلنا في مهب الريح دون التفكير ، ولو للحظة واحدة ، أننا قد نخسر الرهان ؟ فأنا اليوم أعتبر موقفنا ذاك " عبثياً " و"محيِّراً " و"مجنوناً " و"غبياً" و" انتحارياً" ! وفي تلك الفترة ، كان رأيي مغايراً فلم يخطر ببالي أننا يمكن العيش ثلاثة أو أربعة أشهر في فرنسا . كان ذلك في عام ١٩٤٦، وبوسعنا أن ندع الإعصار يمرُّ ... أرجوك ، أطلب مني التوقف ، فبإمكاني أن أجتَّر هذه المعزوفة إلى ما لا نهاية ، ولطالما أعدتُ اجترارها !

قررّنا بالتالي البقاء في المشرق بين حيفا وبيروت . وعندما كانت الحدود مفتوحةً ، لم تكن المسافة بعيدةً على الطريق الساحلي . كان لدينا مرفآن للعبور أو " ميناءان" كما كان يقال فيما مضى ، وسبحة من المنازل، ولكننا لا نملك منزلاً خاصاً بنا وحدنا . في حيفا ، ننام تارةً في شقة الخال ستيفان ، وطوراً عند نعيم . وفي بيروت ، لم يكن وارداً السكن في منزل آخر غير المنزل العائلي الذي يعيش فيه والدي وحده، فعشنا فيه بطبيعة الأحوال ، وكانت كلارا تشعر فيه أنها في بيتها وتتصرف كأنها سيدة الدار . وكنت مفتوناً بها ووالدي يحبها .

هل كنا نفضل منزلنا اللبناني ؟ ربما ... لم أعد أدري ... لأننا كنا نقصد حيفا في بادىء الأمر بصورة منتظمة. وقد وعدت كلارا بأن تزور خالها كل شهرين ، وأرادت كذلك ألا تنقطع عن حضور اجتماعات الاتحاد ... بل كنا نشعر أن صداقتنا مع نعيم تتوطّد ، ويبدو لي أنه أصبح أعز صديق مشترك لنا . وكان منزله ساحراً ، والعوسج في حديقته يمتد حتى الشاطىء ، وكنا نقصده دائماً بانبهار ، غير أننا نعيش في بيروت معظم الوقت ، وفي بيروت ، تابعنا دراستنا .

وفي ما يتعلق بي ، يجب الإعتراف بأنني حاولت متابعة دراستي، فانتسبت إلى كلية الطب الفرنسية التي يشرف عليها الآباء اليسوعيون . كان مستوى التعليم فيها يضاهي مستوى جامعتي في مونبلييه بل ربما كان بوسعي أن أتابع كل دراستي فيها منذ البداية . ولكنني كنت أرغب ، في الثامنة عشرة ، قبل كل شيء ، الإنعتاق من هيمنة والدي ، وأدرس لأرحل أكثر مما كنت أرحل لأدرس .

أما اليوم فقد تغير موقفي . لم أعد أريد الابتعاد عن والدي الذي أضحى وحيداً ، وتغيرت علاقتي به رأساً على عقب منذ أن أصبحت بطلاً مزعوماً من أبطال المقاومة ، وتوطّدت بعد زواجي ، فقد هرم في السن ، وأصبحت زوجتي سيدة الدار .

وقد انتسبت كلارا بدورها إلى الجامعة حيث كانت كعادتها كثيرة النشاط ، مناضلة ومجتهدة في دراستها بل وبدأت تتعلم العربية .

وبالعودة إليّ ، أوضحت أنني " حاولت" الدراسة ، نعم " حاولت" فقط .

عانيت ، منذ عودتي إلى مقاعد الدراسة ، صعوبة هائلة للتركيز على ما أقرأ ، فاستحال عليَّ حفظ أي شيء في بادىء الأمر ، وقلت لنفسي أن الأمر طبيعي بعد خمس أو ست سنوات من الإنقطاع كانت لديَّ خلالها اهتمامات بعيدة كل البعد عن الدراسة . غير أن صعوبات التركيز استمرت وسببت لي الضيق أكثر مما كنت مستعداً للإعتراف به ، فأنا الذي كنت شديد الفخر والاعتزاز بذاكرتي الحادة في السابق ، وبقدرتي على الاستيعاب ، أدركت عجزي ، وشعرت بالخجل والعار بسبب ذلك...

بالطبع ، كان يجب أن أسعى لإيجاد حلّ غير أنني رفضت الإعتراف بأنني مصاب بمرض يحتاج إلى العناية ، وفضلت القول إن الأمور ستتحسن لا ريب مع الوقت ، ورحت أبحث عن تسليات أخرى...

أي تسليات ؟ محاضراتي أولاً ، فقد عاودت تقديم بعضها ، وكانت تدور دوماً حول ذكرياتي في المقاومة ؛ ومن ثم سعادتي ... بالرغم من أنه لا يليق بي الحديث عن السعادة كتسلية غير أنها كانت تؤدي هذا الدور أيضاً . كنت في غاية السعادة بصحبة كلارا لدرجة أنني قرَّرت عدم تنغيص سعادتي بما قد يطرأ خارج حياتي العاطفية . وكلما تعانقت أيدينا ، خفق قلبانا فلا أعود أسمع مخاوفي ولا ضجيج العالم من حولي ، وأحاول أن أقنع نفسي بأن كل شيء يسير على ما يرام .

ومن ناحية معينة ، كانت الأمور لا تزال تسير بالفعل على ما يرام ...

لا ، لم يكن ذلك صحيحاً إذ ما عادت الأمور تسير على ما يرام حولنا ، ولكن ، ونظراً لما كان علينا أن ندركه منذ وقت طويل ، كنا لا نزال نعيش في جنة عدن .

حدث ذلك ، تذكّر جيداً ، في الفترة التي بدأ الحديث يكثر فيها عن تقسيم فلسطين إلى دولتين ، دولة لليهود وأخرى للعرب ، عام ١٩٤٧. وقد تعاظمت الضغائن بحيث لم يعد بالإمكان التصريح عن الأفكار الداعية للمصالحة ، وتصاعدت الإعتداءات والمظاهرات والمواجهات وصرخات الحرب ، وأصبحت الطرقات بين حيفا وبيروت محفوفة بالمخاطر يوماً بعد يوم . ووجدنا نفسنا ضحيتين مع وقف التنفيذ ، ثم انقضت علينا بشاعة العالم وأنشبت براثنها .

ربما كانت نقطة التحوُّل يوم خرج شقيقي من السجن ، بعد أن استفاد من عفوٍ أخير .

حدث ذلك عصراً ، وكنا لا نزال جالسين إلى مائدة الغداء نحن الثلاثة نتجاذب أطراف الحديث . وقد زُفَّت إلينا في صباح ذلك اليوم أجمل بشرى ، فقد كانت كلارا حاملاً وذهبت لاستشارة طبيبها بعد أن أصابها الغثيان . كان الفرح يغمرنا ، لا سيما والدي الذي راح يتخيَّل نفسه وهو يحمل حفيده بين ذراعيه . كان يتحدَّث عنه كما لو كنا على وشك أن نتحفه بأجمل هدية في العالم . وفجأةً ، سمعنا هدير سيارة تتوقف، ومن ثم تبتعد ، وباباً يصطفق ، وخطى حثيثة على السلالم... لقد عاد شقيقي سالم .

هل زرته في السجن ؟ لا ، أبداً ، ولا مرة واحدة . لا تنسى كيف تصرَّف هذا الأرعن ! وماذا عن والدي ؟ هل ذهب لزيارته ؟ لم يقل لي شيئاً . وخلاصة القول ، كنا نرغب جميعاً بطيِّ هذه الصفحة بل وأعتقد أننا نجحنا في نسيانها .

ولكنه عاد ، وفي أسوأ لحظة ، أي عندما لم نكن نتوقَّع عودته، ولا نرغب بحضوره . عاد مباشرةً من السجن إلى المنزل ، إلى غرفته التي أوصد بابها على الفور حتى لا يفكِّر أحدنا بالصعود والتحدَّث إليه .

وخيَّم فجأة صقيع على الأجواء . ولم يعد المنزل كما كان ، لم يعد منزلنا . كنا نتحادث بصوت خفيض ، وتغيَّر والدي بين

عشيةوضحاها ، فتلاشى مرحه وتجهَّم وجهه . ولم يعد ينبس ببنت شفة، لا ليتذمَّر من تصرفات سالم ولا ليصبَّ عليه اللعنات أو يطرده أو يغفر له. ولا كلمة واحدة ، فقد تقوقع على نفسه . أما أنا وكلارا فقد رحلنا قبل نهاية الأسبوع إلى حيفا .

لا ، لم نتشاجر مع شقيقي فلم تحدث مواجهة بيننا وبالكاد تحادثنا. وتسألني لماذا رحلنا بالرغم من ذلك ؟ أفهم استغرابك وربما يجب أن أبوح لك بسرٍّ يشقُّ عليَّ التحدث عنه ، وقد لزمني بعض الوقت لأتقبله ، ولكن، إذا حاولتُ إخفاءه فسوف تصبح أشياء كثيرة غير مفهومة : كنت أخاف من شقيقي . لا ، لم يكن خوفاً ، فهذه مبالغة، لنقل إنني كنت أشعر بالإنزعاج في حضرته ، وأتحاشى النظر إليه .

لأي سبب ؟ لا أجرؤ على الخوض في تفسيرات معقدة ، فنحن لم نترعرع بالطريقة نفسها ، إذ نبتت له براثن وأنياب بعكسي ، فلطالما كنت مدلَّلاً ولم أضطر أبداً للمقاومة . جاءتني كل الأمور بسهولة وبصورة طبيعية ، كلها حتى البطولة والهوى ، فالتقيت برتران ثم كلارا . كان كل شيء يأتي إليَّ كما في الحلم ، وما عليَّ سوى أن أوافق . وفي كلِّ مكان ، حتى في المقاومة ، كنت الطفل المدلَّل . لم أضطر أبداً لخوض معركة من أجل انتزاع موقع لي ، وكلما اصطدمت بعقبة على طريقي ، تظهر أمامي ، وبأعجوبة ، طريق أخرى ، أكثر رحابةً وأفضل تمهيداً من تلك التي انسدَّت في وجهي . ولذا لم يشتد عودي ، وهذا الأمر ينعكس على أفكاري ، فأنا دائماً أميل للتسوية والمصالحة ، ولئن كنت متمرِّداً ، فأنا متمرد على الحقد والضغينة .

أما شقيقي ، فكان نقيضي تماماً ، وأكاد أقول إنه قاتل ليبصر النور ، ثم اضطر دوماً للقتال ، ضد والدي ، ضدي أو ضد ظلِّي

بالأحرى . كان كل شيء بالنسبة إليه معركة حقودة ، حتى الطعام الذي يزدرده .

وقد تساءلت أحياناً إذا كان شقيقي ذئباً ، وهذا ليس صحيحاً ، فالذئب يقاتل فقط من أجل البقاء أو الحرية. وإذا لم يكن مهدَّداً ، يمضي في سبيله متعجرفاً ومثيراً للشفقة . أما شقيقي فأنا أشبّهه، بالأحرى، بتلك الكلاب التي استعادت وحشيتها ، وأضحت تتحسَّر على المنزل الذي ترعرعت فيه وتمقته في آنٍ معاً ، ومسارها في الحياة يعزى دوماً إلى جرحٍ سابق أصابها : هجران ، خيانة ، كذب .. وهذا الجرح هو ولادتها الثانية والوحيدة التي تحتسب .

كانت المواجهة بيننا غير متكافئة ، ولم يبق أمامي سوى الهروب، ولا أجد كلمة أخرى للتعبير عن ذلك.

قصدنا حيفا ، وكنا ، منذ بعض الوقت ، ننوي الرحيل أصلاً ، وتأجّل المشروع لأن طرقات الجليل لم تكن آمنةً . ونظراً للأجواء التي باتت تخيِّم على المنزل ، فقد حسمنا أمرنا وإن كان في الأمر مجازفة . لم تكن خطوة حكيمة لا سيما وأن زوجتي حامل ، غير أننا لم نكن حذرين ، ولو كنا كذلك ، لما انخرطنا قي صفوف المقاومة والتقينا ، أليس كذلك ؟ كان لدينا نحن الإثنين سجل حافل بالتهوُّر والجرأة .

في ذلك اليوم ، كانت الطرقات مهجورة بصورة ملفتة ، ولكن ذلك لم يثنينا عن عزمنا . فمضينا في طريقنا ، وكنت أقود السيارة بسرعة عادية ، وبين الحين والآخر ، نسمع دوياً مخيفاً يشبه انفجارات بعيدة ، غير أننا تصرفنا كما لو أننا لم نسمع شيئاً .

في المرحلة الأخيرة من الرحلة ، في الجليل ، اقتربت الأصوات وتحدَّدت . كانت عيارات نارية وانفجارات مصحوبة برائحة حريق ، ولكن فات الأوان للعودة أدراجنا .

وعند مدخل حيفا ، بين شارع فيصل والكينغزواي ، على مقربة من سكة الحديد .. إذا كنت لا تعرف حيفا ، فلن تعني لك هذه الأسماء شيئاً ... خلاصة القول ، كنا قد وصلنا إلى مدخل المدينة الشمالي ، عندما أصابت طلقتان طائشتان سيارتنا أعقبهما انفجار هزَّها رأساً على عقب . رحنا نصرخ معاً تعليقاتٍ سخيفة تخطر على البال في مثل تلك المواقف : " حذار ! " ، أو " يبدو أنها قادمة من هناك ! "، كما لو أن الحذر أو معرفة مصدر إطلاق النار قد يجديان نفعاً .

وإذ تشبثت بالمقود ، تابعت بشكل مستقيم لا ألوي على شيء ، وبما أنني كنت عاجزاً عن الإنعطاف يمنةً أو يسرةً ، فقد تقدمت بسرعة قصوى ، مردِّداً بنبرة مرتعشة :" لا تجزعي ، لا تجزعي ، لاتجزعي! "، وأصطدم طوال الوقت بحجارة وإطارات وهياكل سيارات وربما بجثث ، لم أعد أدري ، لم أعد أميِّز شيئاً أمامي ، بل أقود السيارة بسرعة فائقة . وعندما وصلنا في نهاية المطاف ، والله وحده يعلم كيف ، أمام منزل نعيم، في الطرف الآخر من المدينة قرب " ستيلا ماريس " ، لم أستطع نزع أصابعي التي تشنجت على المقود قبل مرور بضع دقائق ...

لم نواجه في ذلك اليوم أسوأ من هذا الرعب ، وأعني أننا لم نصب بجروح . غير أن الرعب أمر لا يستهان به، فأكثر شعور لا يطاق هو ذاك الإحساس بالعجز الذي ينتاب المرء ، في سيارة سياحية، على طريق مزروع بالحرائق.والشظايا ، حين تبدو الطلقات والانفجارات وكأنها تنطلق في كل الاتجاهات . لم نكن من الأشخاص الذين يجزعون

بسهولة ، ولكن الأمر هذه المرة كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير ، إذ أمست حياتنا مهدَّدة ، حياتنا نحن الثلاثة ومستقبلنا وحبنا وسعادتنا . أليس ضرباً من الإجرام الإستخفاف بكل هذه الأمور ؟

لقد زعزع هذا الحادث كياننا وانتابتنا فجأة الرغبة بالسكينة بل والجمود . ولأسابيع طويلة ، لم نعد نرغب بمغادرة المنزل ، ولو للقيام ببعض الخطوات الخجولة في الحديقة باتجاه الشاطىء .

كنا نقضي نهاراتنا متعانقين ، نتناجى ونتحدث طوال الوقت عن طفلنا الذي سوف يبصر النور ، والعالم الذي سيعيش فيه ، ونستمتع بتصوُّر عالم مختلف .. وكانت آمالنا بحجم ضياعنا .. وكلما كان الغد قاتماً ، بدت الأيام المقبلة أكثر إشراقاً .

ربما أوحيت لك بأن علاقتنا لم تشهد لا مشاجرات ولا مشادات بالرغم من كل التوتر والضغينة اللذين يحيطان بنا . بلى ، كنا نتشاجر ، ولكن مشاجراتنا لم تكن من النوع المألوف . وأكاد أقول إن الأمور كانت تجري دائماً ، دون استثناء ، خلافاً لما كان سائداً . فعندما تعارضني كلارا ، فهي تفعل ذلك لتؤكد على مساندتها للعرب ولتطلب مني أن أظهر المزيد من التفهم لموقفهم ؛ و أنا أرد عليها وأقول لها إنها شديدة القساوة مع أبناء طائفتها . لم يأخذ النقاش منحى آخر ، ليس بسبب اتفاق بيننا أو بحكم علاقات الجيرة ، بل لأنه كان بسيطاً وصادقاً. كان كل منا يضع نفسه عفوياً في موقع الآخر .

لقد سمعت ، منذ بضعة أيام ، في باريس ، مناظرة إذاعية بين عربي ويهودي ، وأعترف لك أنني صدمت ، فهذه الفكرة التي تقوم على وضع شخصين في المواجهة ليتحدث كل منهما باسم قبيلته ، ويتبارز

الإثنان في إظهار النوايا السيئة والحنكة المجانية ، هذه الفكرة تصدمني وتثير اشمئزازي . فأنا أجد هذه المبارزات الكلامية بذيئة وهمجية وتنم عن ذوق سيء ، بل أضيف صفة أخرى تبرز كل الفرق: غير لائقة ؛ فاللياقة الأخلاقية ، وأعذرني لأنني أمدح نفسي ولو مرة ، نعم ، اللياقة الأخلاقية ، كنا نجسدها أنا وكلارا ، هي التي تسعى لتفهم أسوأ عيوب العرب ولا تراعي اليهود، وأنا الذي لا أراعي العرب وأحتفظ في ذهني بكل أشكال الإضطهاد القديمة والحديثة لأغفر تطرُّف اليهود .أعرف ، كنا ساذجين لا شفاء لسذاجتنا ! إنما أكثر تبصراً مما يبدو . نعرف بأن هذا المستقبل الذي نحلم به ليس لنا أو لأطفالنا ، وربما احتفظنا بالقدرة على التطلُّع إلى ما وراء الأفق بسبب هذا الطفل الذي سوف يبصر النور عما قريب .

كل صباح ، كنت أتلمَّس بطن كلارا المتكوّر وأغلق عينيَّ . وعندما أسمع في الإذاعة أن الطريق الساحلي لا يزال مقفلاً ، لاأكترث للأمر ، فلم أعد أريد مفارقة هذا المنزل العثماني القديم الكائن بعيداً عن الشوارع الدموية . لقد نسيت العالم الخارجي ، ونسيت دراستي ، ونسيت الحرب ، فطفلي سيولد هنا .

ثم رحلتُ .

صباح السبت

لم أذكر كل ما قاله لي عصيان عن إقامته في حيفا ، ونزهاته مع كلارا ، وتفاصيل حياتهما اليومية ، ومواقفهما وأحلامهما ، وقد خامرني الشعور بأنه يراوح مكانه ، وكلما أوحى لي بأنه على وشك الانتقال إلى المرحلة التالية، يعود أدراجه ويستفيض في التحليل . كنت أصغي إليه بصبر ، ولكنني كففت عن التدوين ، بل رحت أتأمله . كان يصارع ، كما حين يستيقظ المرء فجراً ، وقد استسلم لحلمٍ لذيذ ، ويجهد لإبقاء عينيه مغلقتين لمقاومة اليقظة .

لفظ جملته الأخيرة مستسلماً كما يعلن المرء هزيمته :

- ثم رحلتُ ...

وفجأة توقف عن الرواح والمجيء وجلس على حافة السرير ، وسكتنا عن الكلام المباح في ذلك المساء . استأنفت استجوابي له في اليوم التالي :

- هل تعني أنك رحلتَ بمفردك ؟

- نعم ، بمفردي ، وبدون كلارا .

تسألني ما الذي أبعدني عنها ؟ لقد وصلتني برقية تعلمني أن والدي يحتضر . لم تكن هي الكلمات بالتحديد ، ولكنني فهمتها على هذا النحو .

لقد استولى عليَّ هذا الرعب منذ الطفولة ، وهو رعب منطقي ، بأن أعلم يوماً بأن والدي يموت . وطوال سنوات عديدة ، كنت أخشى هذا النبأ أكثر من أي شيء في العالم . وبعد أن كبرت ، لم يعد هذا الرعب يستحوذ عليَّ بهذه الحدة ، ولكنه بقي كامناً في أعماقي ، متأهباً لينشب مخالبه فيَّ .

كانت البرقية مقتضبة ومكتوبـة بالإنكليزيـة : " والـدك مريـض"، وقد أرسلها محمود من القـاهرة ، بطلـبٍ مـن شـقيقتي التـي كـانت تسـتعد للسفر بالطائرة إلى بيروت . فقد أخطرها شـقيقي ، وافـترضت عـن حـقٍّ أنه لم يبلغني النبأ مثلما أبلغها ، زاعماً أنه لا يعرف أين ولا كيف يتصـل بي .

غير أن الوقت لم يكـن مناسباً للـوم والعتـاب ، إذ كنـا سـنجتمع قرب والدي المحتضر .

لقد أصيب بشلل نصفي ، وكان فمه ملتوياً ، ولكنه يحاول النطق. وإذا جلس المرء أو قعـد القرفصـاء قربـه ، وقـرَّب أذنـه ، يمكنـه أن يفهـم كلامه .

سألني أولاً عن السبب الذي حملني على مبارحة زوجتي في مثل هذه الظروف . لم يكن بوسعي أن أجيبه: " لقد قدمت لأبقـى قـرب والـدي المحتضـر " . كـان مـن الأفضـل أن أجيـب بصـورة ملتويـة : " لا تخـشَ عليها، فالحي الذي توجد فيه هو أكثر أحياء المدينة أماناً " .

– إنها في شهرها التاسع ، أليس كذلك ؟

كانت في شهرها السابع ، و لم أشأ تصحيـح معلوماتـه إذ أيقنـت أن حساب الأشهر لا يعني له ما يعنيه لي ، فهـو كـان يتسـاءل إذا كـان سيرى حفيده قبل أن توافيه المنية . وكان بإمكانه أن يراه بـالفعل ، فعندمـا وضعت كلارا مولودها ، كان والدي لا يزال على قيد الحيـاة ، ولكنـه لـم يتمكن قط من رؤية الطفل .

بالرغم من هذا الخطأ الحسابي المفهوم ، كان يملك كامل وعيه :

– كيف استطعت المجيء بالرغم من كل ما يجري ؟

- أتيت بحراً .

لم تعد الطرقات آمنةً بين حيفا و بيروت ، ، ولم أحاول حتى السفر براً . إذ كنت سأجد نفسي مرغماً على العودة أدراجي قبل الخروج من المنطقة . فاضطررت للذهاب إلى المرفأ والحصول على بطاقة باهظة الثمن على متن سفينة شحن رومانية متجهة نحو الشمال...

خلال الأسابيع التالية ، سوف تنتكس صحة والدي وتتحسَّن على التوالي . وإذ تمدَّد كالسلطان على سريره الواسع ، بشعره الأبيض المشعث ووجهه الملتوي ، كان يوحي بأنه لا يكترث للأمر بل كنت أشعر أحياناً أنه يستمتع بدوره الجديد . وقد أكَّد لي طبيبه ما أعرفه عن الحالات المرضية الشبيهة بحالته ، وهو أن العلم لا يستطيع التكهن بشيء: " قد يفارق الروح ليلاً ، وقد ينهض معافى في غضون أسابيع قليلة ويسير من جديد ، بمساعدة عصا ويبقى معكم لعشر سنوات . ويجب ، بشكل خاص ، عدم تعريضه للإنفعالات القوية ومنعه من الإستفاضة في الكلام أو المبالغة في الحركة " .

ولكن كيف نحمله على السكوت دون أن نجرح مشاعره ، أو نظهر وكأننا نعامله كطفل ؟ كنا نتساءل جميعاً بهذا الشأن ، وذات يوم، وجدت شقيقتي الحل .

كنا نملك في الدار مذياعين توأمين من الخشب الأحمر البرّاق، اشتراهما والدي قبيل اندلاع الحرب ، ووضع الأول في غرفته والثاني في بهو الإستقبال .

لم يلمس أحد منا قط المذياع الأول . وعندما كان والدي ينسحب إلى غرفته ليلاً ، أو عند ساعة القيلولة ، كان معتاداً على تلمُّس أقراصه

باحثاً عن الموجات القصيرة لإذاعات بعيدة ، مثل كاراتشي وصوفيا وفرصوفيا وبومباي أو هلفرسوم ، مدوّناً على دفترٍ إسم المحطة والساعة واللغة وجودة الإرسال .

أما مذياع البهو فلم يكن يسافر بعيداً عبر الأثير ، فهو عادة يكون مفتوحاً على إذاعة الشرق الأدنى، وهي محطة قبرصية تابعة لهيئة الأذاعة البريطانية، أو بصورة أقل، على إحدى المحطات الاقليمية كبيروت، دمشق أو القاهرة.

كان الاستماع يخضع لطقوس معينة فالكل يلتزم الصمت طالما أن المذياع يتكلم. وقد نسمع أخطر الأنباء وأكثر الآراء تطرفاً ، ولكن لا أحد يوافق أو يعترض، بل من المستهجن قول : " آه ! " تعجباً، وعندما يوجد في البهو زوار لا يعرفون هذه القواعد، فما أن يفتحوا فمهم حتى يدوّي صوت والدي ناهراً : "صه ! " ، مصحوباً بحركة حاسمة من يده، بل وعندما يتكرَّر الإزعاج، يقوم بحركة أخرى بذيئة بعض الشيء إذ يجمع أصابعه الخمسة على شكل لجامٍ فيخيِّم الصمت. ولا يبدأ النقاش إلا بعد أن يسكت المذياع.

ولا زلت أذكر تلك اللحظة عندما كان والدي في سريره مصراً على الكلام وهو يحرّك في الهواء ذراعه الوحيد الذي لا يزال سليماً، فقامت إيفيت غاضبةً وأدارت قرص المذياع. فما كان من المريض الا أن صمت غريزياً. وقد غمزتُ شقيقتي غمزة إعجاب لأنني انبهرت بالأثر الفوري الذي حصلتْ عليه. كان المذياع في تلك الفترة يحتاج إلى ثوان قليلة قبل أن يصدر أي صوت. وعندما ينبعث الصوت، يكون ضعيفاً في البداية كما لو أنه قادمٌ من نفق بعيد .

لا أنسى الكلمات الأولى التي سمعناها في ذلك اليوم: " الحرب التي اندلعت لتوّها..." . كانت شقيقتي لا تزال تضع يدها على القرص، فأسرعت وأدارته إلى الجهة الأخرى. انتصب والدي في سريره و قال لي: "زوجتك...". كان وجهه يرتعش، ولو كنا نسعى لمراعاة قلبه العليل، فلقد اخترنا أسوأ الأساليب!

إنه المشهد الذي أستحضره كلما أتذكّر اندلاع الحرب العربية- الاسرائيلية الأولى. حدث ذلك عام ١٩٤٨في أواسط شهر أيار . وقد تسارعت الأحداث فانتهى الإنتداب البريطاني في فلسطين، وأعلن مجلس الشعب اليهودي الملتئم في متحف تل أبيب قيام دولة اسرائيل، ودخلت الدول العربية الحرب في الساعات القليلة التي تلت هذا الإعلان .

وفي الواقع، لم تعد هذه الأحداث السياسية والعسكرية تؤثر فيَّ. فالجميع كان يعرف منذ أمد بعيد أن المنطقة على قاب قوسين من الاشتعال. كان شيءٌ واحدٌ يروّعني، وهو مصير كلارا والطفل الذي سيولد، ذلك أن هنالك حدوداً باتت تفصلنا الآن ، حدوداً بات عبورها مستحيلاً ، ولأمدٍ طويل .

سوف تقول لي ، لا ريب ، أن عبور تلك الحدود كان مستحيلاً أصلاً، فمنذ بعض الوقت، لم يعد التجول بحريةٍ أمراً سهلاً... ولكن الأمر لم يعد كذلك، لا ، أبداً . فقد صار التجوُّل على طرقات الجليل محفوفاً بالمخاطر، غير أنه يمكن تدبر الأمر دائما بحراً ، جواً، أو براً عبر طرق ملتوية. وهكذا، قبل أيام من اندلاع الحرب، جاء صحافي عضو في هيئة حيفا في مهمة إلى بيروت، حاملاً رسالة من كلارا. كانت تطلب مني فيها ألا أقلق وأنها قد وجدت في الجوار قابلةً متمرسة وعدت

بأن تهتم بالولادة عندما يأتي حينها . وكانت تطمئن على صحة والدي وترسل له عبارات تشجيع مكتوبة باسم الطفل الذي سيبصر النور... وكما ترى ، كان التجوُّل والتواصل لا يزالان ممكنين. ولكن الحرب قضت على كل شيء ، وسوف يصبح عبور الحدود مستحيلاً ، لا مسافرون ولا رسائل ولا برقيات ولا خطوط هاتفية . كانت المسافة نفسها تفصل بيننا ، ثلاث أو أربع ساعات براً ، ولكنها ساعات افتراضية ، إذ كنا على بعد سنوات ضوئية ، يعيش كل منا على كوكب . أنا في الجهه الأخرى من تلك الحدود المنيعة ، قد تركت أغلى ما لديَّ في العالم ، أواجه القدر كما يواجه الفأرالقطَّ عندما ينتهي هذا من اللهو ويتوثب لقتله . ألا يقال إن الفأر في تلك اللحظة ، إذ ينتابه الهلع ، يدور حول نفسه ، عاجزاً عن الهروب ، عاجزاًعن الإختباء ، عاجزاً عن إيجاد مخرج لينجو بنفسه ؟ كان الآخرون يتابعون أخبارالحرب ، أما أنا فلا .

من سوف ينتصر ؟ من سوف ينهزم ؟ كنت لا أكترث للأمر . فقد خسرتُ حربي لحظةَاندلعتْ حروبُ الآخرين.

وسرعان ماسوف أقلع عن سماع البيانات والموسيقى العسكرية . وعندما كانوا يديرون المذياع في البهو ، أصعد لأنزوي في غرفتي ، أفتح الخزانة حيث توجد ثياب كلارا ، أغمر وجهي فيها لأشم رائحتها وأنتحب.أردِّد اسمها عشر مرات ، عشرين مرة ، مرةً تلو الأخرى ، ثم أخاطبها كما لو أنها ماثلةٌ أمامي، أناجيها مناجاةً طويلة مفعمةً باليأس والهيام .

وبين الحين والآخر ، أستعيد وعيي وألوم نفسي ، فأجفف دموعي وأذهب لأكون بجانب والدي . كان لايزال يتشبَّث بالحياة وأنا أحاول

بصعوبة الإحتفاظ ببصيص أمل . ولا أدري من منا كان أكثر قلقاً على الآخر.

كان يسألني أحيانا : من يتقدَّم ؟ من يتقهقر ؟ أين تدور المعارك ؟ ماذا يفعل الإنكليز ؟ ماذا يقول ستالين ؟ والأميركيون ؟ لم أكن أدري في البداية ، ربما تخيَّلَ أنني متواطىء مع الآخرين الذين كانوا يبخلون عليه بالأخبار رفقاً بوضعه الصحي . غير أنه أدرك في نهاية المطاف أنني لا أكذب وأننا نتشارك في الجهل نفسه ، ولا ريب أننا كنا على القدر نفسه من الهشاشة .

وقد شاءت الأقدار أن يترافق انهياري مع انهياره .

أسلم والدي الروح في شهر تموز ، في يوم مـن تلك الأيـام التـي تجعل المرء يتحسَّر على الصقيع في دول الشـمال فيمـا الحـرب مسـتعرّة بلا هوادة . وعلى طريق المقبرة ، كان مكبرٌ للصوت وطني يعلـن نصـراً كاذباً أعقبه نشيدٌ سرعان ما تم إسكاته احتراماً للموكب الجنائزي . وعلـى حافة الطريق ، كان الرجال يقفون حاسري الرأس ، حريصين على البقاء في الظل إتقاءً لأشعة الشمس الحارقة . كان رأسي محموماً ، وبين الحيـن والآخر ، أرفع يدي إلى جبيني محاولاً عبثاً أن أتقي لهيب الشمس .

دخلتُ المقبرة متقدّماً الموكب وكانت ممراتها تعج بالنـاس بحيـث يتعذّر رؤية أي شاهد من شواهد القبور . كنا واقفين في الهواء الطلق غير أنني أحسست بالإختناق . كانت الشمس منخفضةً وتنوء بثقلها على عنقـي وكتفي وصدغيَّ ، وعيناي تلتهبان . أخذني أحدهم مـن ذراعـي ليقرّبنـي من المكان الذي دفن فيه والـدي. مـا كـادت الصلـوات ترتفـع حتـى أغمـي عليَّ ، وكل ما أتذكره هو أنني شعرت بالإنهيار لدى رؤية بيـاض الكفـن فأغلقت عينيَّ اللتين كانتا تؤلمانني ولم أفتحهما أبداً .

لزمت السرير أكثر من شـهر . كـانت كـل الأعـراض تشـير إلـى إصابتي بضربة شمس ، الحمَّى والصداع والهذيان والتقيؤ والتهالك . غير أن الشمس لم تكن وحدها السبب ، فقد جعلتنـي جملـة مـن الأحـداث هشـاً ضعيفاً • الإنفجار على طريق حيفا الذي بقي يعاودني فـي أحلامـي حتـى بعد فترة طويلة ، وموت والدي بالطبع، وانفصـالي القسـري عـن كـلارا ،

وهاجسي الذي يتعاظم أسبوعاً تلو الآخر حول ولادتها التي ربما حصلت أصلاً، لا سيما وأنني لاأعرف إذا كانت بصحة جيدة ، وإذا كان الطفل حياً ، وهل أصبحتُ أباً لولد أم بنت . وقد يبدو الجهل الذي كان ينهشني حول هذه النقطة الأخيرة سخيفاً ولكنه كان يمضُّني ويصفعني كالإهانة.

ولا ريب أن الشمس الحارقة كانت العامل الحاسم الذي جعل حالتي تتدهور . فعندما خفَّت الحمَّى ، لاحظ من حولي أنني لم أتماثل للشفاء ، فقد أصبحت مهزوزاً ، مستلباً ، متصدّعاً ... وثمة العديد من المصطلحات المضحكة التي تعبِّر عن الحقيقة نفسها ، وكلمة "معتوه " لا تزعجني أكثر من غيرها . لنقل أنني أصبحت غريب الأطوار والسلوك .

وأعتقد أن أكثر ما يدعو للقلق – وما أنقذني في نهاية المطاف – هو أنني لم أفقد صوابي تماماً . وأقول تماماً فقد حدث أن فقدت ثلثي صوابي أو ثلاثة أرباعه أو تسعة أعشاره ، هذا إذا كانت هذه النسب تعني شيئاً ، ولكنني كنت أحتفظ دائماً ، حتى في أحلك الأوقات، بأنا صغيرة ، بل متناهية الصغر تقبع داخل رأسي كما وراء متراس ، بمأمن من العواصف التي تجتاحني . وأرغب بأن أدعو هذه الأنا ، الأنا الطبيبة ، إذ كنت أحمل دائماً في أعماقي هذا الكائن الآخر الذي يعتبر المريض مريضاً ويقول إنه يجب العمل على شفائه يوماً .

منذ البداية ، عندما بدأت أفقد السيطرة على أفعالي ، أدركت الأمر . ولا أدري إذا كنت أستطيع التعبير عنه اليوم كما شعرت به حينئذٍ ولكنني سوف أحاول .

ذات ليلة ، إستيقظت مذعوراً تحدوني فكرة عنيدة : يجب أن أبعث على الفور برسالة إلى كلارا . وبما أنني أعرف أن البريد قد توقف بين بيروت وحيفا ، فقد قررت أن أكتب لها رسالةً ثم أبعثها إلى جاك في

فرنسا وهو يتكفل بإرسالها دون صعوبة . كانت فكرةً نيِّرةً ، وعندما خطرت لي ، شعرت بفورة من الحماس ، وفي الوقت نفسه ، كنت أعلم أنني لست في وضع يسمح لي بالتفكير في مضمون رسالة على هذا القدر من الأهمية . كنت أعاني من نوبات صداع رهيبة وأشعر كأن كلَّ خلية عصبية في رأسي تشتعل . وبالتالي ، قررت أن أؤجل تنفيذ الفكرة حتى أشفى وأستطيع الكتابة . كان الوقت ليلاً واستلقيت مستكيناً. وبعد دقائق معدودة ، إنتفضت من سريري ، وأشعلت المصباح ، وتناولت قلماً وورقاً وشرعت في الكتابة ، ثم رحت أعيد القراءة وأصحّح وأخربش وأشطب وأكتب من جديد ، ولكن دون أن أتمكن من إنهاء الجملة الأولى . توقفت واستلقيت ثانيةً ثم نهضت مرة أخرى ... لن أثقل عليك بهذه التفاصيل المملّة حول كل حركة قمت بها بل سوف أصلُ مباشرةً إلى الخلاصة ؛ ما أن بزغ الفجر حتى كنت أنتظر ساعي البريد أمام المنزل. أعطيته الرسالة والنقود للطوابع – لم تكن تلك طريقة معهودة ولكنها قد تحصل في حالة المرض – ثم عدت لأنام ، واستيقظت ظهراً ، مذعوراً ، غير قادر على تذكر ما قد كتبته في تلك الرسالة ، ومصمِّماً العثور على الساعي لإسترجاعها .

وبالطبع ، لم أتمكن من اللحاق به ، وقد ندمت على ذلك لسنوات طويلة . أما اليوم فأعتبر أن الأمور ما كانت لتتغير . وعندما تخطر ببالي فكرة مزعجة ، تبقى تطنُّ وتطنُّ حتى أستسلم وأنفذها...

وفي ما يتعلق برسالة كلارا ، سوف يعتريني المزيد من الإضطراب . لم أعد أذكر أبداً ما كتبت لها ، وحتى اليوم لا تزال ذاكرتي تخونني . وفي الحالة التي كنت عليها ، ربّما أرسلت لها كلَّ ما خربشته طوال الليل ! كنت أعرف فقط أنه يجب ، وبأقصى سرعة ، كتابة رسالة

أخرى لتوضيح كلامي . وهل من داعٍ للقول إن رسالتي الثانية كانت أكثر تشويشاً من الأولى ؟ فما كدت أبعثها حتى اعترتني نوبات فظيعة من تأنيب الضمير، فكتبت رسالة ثالثة ، على الأرجح أسوأ من الرسالتين السابقتين ، ثم رسالة رابعة ... يا إلهي ، كلما أعاود التفكير بالأمر ، أرغب بالعويل !

أعرف أنني كنت أنهار ، وبالرغم من ذلك ، مضيت قدماً نحو الهاوية ...

ثم هدأت الحمَّى ، وأعني بها ذلك الإضطراب . وتملَّكني هوس آخر ، فكنت أمضي النهار بطوله أهيم في الحديقة ، وأدور حولها ثلاثين بل وأربعين مرةً على التوالي ، أخطُّ في رأسي رسائل وهمية ، وأبني خططاً ومشاريع ...

أخاطب نفسي وألوّح بيديَّ ، وأنا أمشي على هذه الحال . وعندما يمر الناس بقربي ، بالكاد أراهم كما من خلال غشاوة ، ولا أسمع من يلقي عليَّ التحية منهم حتى أن الذين سبق وصادفوني ، كفوا عن تحيتي، مكتفين بتمتمة أسفٍ أو دعاءٍ ليقيهم الله وأقاربهم شرَّ هذا البلاء ! فوأسفاه على هذا الشاب الوسيم الذي كانت البلاد بأسرها تكنُّ له الإعجاب ! اتهم البعض الشمس ، وألقى البعض الآخر اللوم على الحسَّاد ، أو الدراسة ، أو عوامل الوراثة . وفي الواقع ، كانت ذكرى جدتي المعتوهة لا تزال حيَّةً في الأذهان .

كان ساعي البريد هو الزائر الوحيد الذي أكترث له ، فما أكاد ألمحه حتى أهرع إليه وأمطره بوابل من الأسئلة . ومن يدري ، فربما كنت أهيم في الحديقة مترقّباً ساعة قدومه . لم أعد أدري حقاً ، فأنا

أحتفظ عن هذه الفترة بذكريات ضبابية ، وعلى الأقل ، يمكنني اليوم الحديث عنها والابتسام كما لو أنني أراقب سلوك شخص آخر ، أو كما لو تعلَّق الأمر بحياة سابقة عشتها . أليس هذا دليلاً قاطعاً على شفائي ؟

كنت أنتظر أن يحمل لي ساعي البريد جواباً من كلارا . وقد وصلني بعد شهر ، بعد أن طال انتظاري وتملَّكني اليأس . وفي الواقع، لم أنتظر طويلاً عندما نعرف المسافة التي يجتازها البريد من بيروت إلى باريس ، ومن باريس إلى حيفا ، ومن حيفا إلى باريس ثم إلى بيروت . وأعتقد أنها ردَّت على رسالتي بسرعة وأنها بكت كثيراً ، فقد تبيَّن لها ، ومنذ السطور الأولى ، الاضطراب العقلي الذي ألمَّ بي، ولا شك أنها أدركت كل ما أصابني ، دون أن تقرأ كلمة واحدة ، بمجرَّد رؤيتها خطِّي.

كانت رسالتها حنونةً ، ولكنه حنان تشوبه الشفقة ، لا الحنان الذي تشعر به المرأة تجاه الرجل الذي تحب ، بل حنان الأم لطفلها الذي بلَّدَهُ السقم .

كتبت لي تقول : " حبيبي باكو "، وهكذا كانت تدعوني في لحظاتنا الحميمة . " لدينا إبنة تتمتع بصحة جيدة وتشبهك . أبعث لك صورتها الأولى . لقد أسميتها "ناديا" نزولاً عند رغبتك ، وقد وضعت في إطارٍ ، قرب مهدها ، إحدى صورنا ، تلك التي التقطها برتران لدى خروجنا من مركز البلدية ، وأحياناً أشير إليها وأقول : "بابا " ، فترنو إليك ويفترُّ ثغرها عن ابتسامة " .

كانت لا بدَّ للجمل الأولى في رسالتها أن تغمرني بالسعادة ، أليس كذلك ؟ وصورة ابنتنا أيضاً ! تأملتها مطوَّلاً ، وطبعت قبلة على وجهها المنقَّط ، ثم وضعتها في جيبي الداخلي ، ومنذ ذلك الحين وأنا أحملها دائماً لجهة القلب .

وتوقفت عن القراءة لشدة ما كنت أنتحب من الفرح .

وعندما تابعت القراءة ، ساءت الأمور .

أضافت كلارا : " لقد عشنا جميعاً أقسى المحن ، فوفاة والدك التي أضيفت إلى فراقنا الطويل وكل ما يجري حولنا ، كانت تجربة مضنية لا ريب . يجب أن تخلد للراحة وتعتني بنفسك . أريدك أن تعدني أنك ، وفور أن تتلقى هذه الرسالة ، سوف تذهب عند طبيب كفؤ يساعدك على الشفاء .

لا تقلق بشأن ناديا وبشأني ، فأوضاعنا على ما يرام ، وقد استتب الهدوء هنا في الوقت الحاضر .

تسألني أين سنعيش معاً . أنا على ثقة بأننا سنجد حلاً لأننا متحابان . أريدك الآن أن تخضع للعلاج ، وما أن تتماثل للشفاء ، نعاود الحديث في كل هذه الأمور بهدوء ..." .

عندما وصلت عند هذا الحد من رسالتها ، رحت أبكي وأنتحب لا ابتهاجاً ، كما في بادىء الأمر ، بل غضباً ويأساً .

لقد صعقت بسبب هذه الجملة : " ما أن تتماثل للشفاء ، نعاود الحديث ..." ، فأنا أنزلق نحو شفير الجنون ، وأعرف أنني أنزلق لا محالة ، وأحتاج لكلارا كي تمنعني من الانزلاق وتقول لي : تعال نلتقي في المكان الفلاني في فرنسا ، على سبيل المثال ، ونستأنف حياتنا معاً ، وسوف تتحسَّن على الفور . ولكنها فعلت العكس : " ما أن تتماثل للشفاء ، نعاود الحديث " ! كم من الوقت يلزمني للشفاء ؟ سنة ؟ سنتان ؟ عشر سنوات ؟ بعيداً عنها ، بعيداً عن ابنتي ؟ كنت واثقاً أنني لن أقوى على التماثل للشفاء أبداً .

وبدأ العالم يكفهرُّ من حولي .

هل أنا متأكد اليوم أنني لم أسيء فهم جملتها تلك ؟ نعم ، دون أدنى شك . غير أنني أتفهم بصورة أفضل الخيار الذي قامت به كلارا . فقد أخافتها رسائلي ، وقبل أن تغامر وتلاقيني وتعيش معي مع ابنتنا ، كانت حريصةً على التأكد من سلامة عقلي .

نعم ، أفهمها اليوم ، ولكنني نقمت عليها في ذلك الحين . كنت أشعر بالخيانة ، وبأنها أفلتت يدي في اللحظة التي كنت أتخبَّط فيها لأجعل رأسي يطفو فوق سطح الماء . ولذا فقد كان ردّي أسوأ حلّ ، فعوضاً عن الانزلاق البطيء نحو الهاوية ، قفزت قفزةً مباشرةً .

كانت الهواجس تقض مضجعي في تلك الفترة . كانت تلك هي الطريقة التي أفكِّر بها ، أو لنقل بالأحرى الطريقة التي أعمل بها ، وهاجسي الجديد أن ألتقي كلارا وأتفاهم معها وجهاً لوجه . صممت على ذلك . واضمحّلت العقبات في رأسي ، فلا حرب ، ولا حدود . حزمت حقيبتي ونزلت من غرفتي ، ولا بد أن أحدهم لمحني ، وأعلم شقيقي الذي هرع يسألني ، وقد بلغت الباب :

– أين أنت ذاهب ؟

– إلى حيفا ، أنا بحاجة للتحدث مع زوجتي .

– أنت محقّ ، فهذا أنسب حلّ .إجلس ، وسوف أطلب لك سيارة تقلُّك مباشرة إلى هناك !

جلست بوقارٍ على كرسي في المدخل ، شامخاً وحقيبتي بين قدميَّ كما في محطة القطار . وفجأةً ، فتح الباب ، وانقضَّ عليَّ أربعة

رجالٍ باللبـاس الأبيض ، فأمسكوا بـي وشدُّوا وثاقي ونزعـوا حزامـي . غرزوا إبرةً فـي مؤخرتـي فغبت عـن الوعـي . والصـورة الأخيرة التـي أذكرها هي للبستاني وزوجته وهما يبكيان . وأذكـر أيضـاً أننـي اسـتغثت بشقيقتي التي غادرتنا منـذ فـترة طويلـة ، ولكننـي لـم أنتبـه لرحيلهـا . فقـد عادت إلى مصر بعد أسبوع على وفاة والدنا إذ لم يعد بوسعها البقاء بعيـداً عن زوجها وأولادها . ولو كانت موجودةً ، لما تجاسر شقيقي وأقدم علـى مثل هذا العمل .

وفي الواقع ، كان يتصـرَّف على هواه في تلك الفترة . فقد أصبـح منزل العائلة ، أمام الجميع ، منزله بعد أن انتشر خبر جنونـي ، علـى مـا أظن ، في المدينة وكل أرجاء البلاد ، أسرع مما انتشرت أخبار بطولاتـي في المقاومة . وأعتقد أن سالم لم يجد أية صعوبة في إثبات اختلالي العقلي وتعيين نفسه وصياً عليَّ مما يمنحه اليد الطولى على حصتي في الميراث.

هو أرعن العائلة ، أصبح وصياً علـيَّ ! هـو الـذي ، لـولا العفـو المتكرِّر ، لكان لا يزال قابعاً في السجن بتهمة التهريب وتشـكيل عصابـة من المجرمين ، أصبح وصياً عليَّ !

هكذا بلغت بنا الأمور أنا وهو !

هذا ما آل إليه منزل كتبدار العريق !

وهكذا ، وجدتُ نفسي ، وقد بلغت التاسعة والعشرين من العمر ، في ذلك المصحّ المعروف بمصحّ الطريق الجديدة . نعم، كان مصحّاً ، ولكنه ذلك المأوى الراقي المزعوم للمجانين الأثرياء. وعندما استعدت وعيي ، رأيت جدراناً نظيفةً وباباً أبيض معدنياً وواجهةً زجاجية . كانت رائحة الكافور تلفُّ سريري . لم أشعر بأي ألم في جسدي بل ببعض الإرتخاء ، لا ريب بسبب المهدّئات التي أعطوني إياها. وحين حاولت النهوض ، تنبهت إلى أنني مقيَّدٌ، وكنت على وشك الصراخ عندما فتح الباب .

دخل رجل يلبس سترةً بيضاء ، وبدأ على الفور يحلُّ وثاقي. كان يزعم أنني أتحرَّك كثيراً في الليل ، فاضطروا لشد وثاقي خوفاً عليَّ من السقوط أرضاً . كان يكذب ، غير أن مزاجي لم يسمح لي بالمشاكسة ، وطلبت منه بتهذيب إذا كنت أستطيع الإنصراف ، فأجابني قائلاً : " نعم ، ولكن تناول قهوتك أولاً ".

صارت هذه هي العادة . في الصباح ، كان عليَّ أن أبتلع ، أمام المراقب ، رجلاً كان أم امرأة ، شراباً يدعى قهوة له طعم الدواء، فأصبح هادئاً كالجثة الهامدة طيلة النهار حتى اليوم التالي . تبلَّدت أحاسيسي وانفعالاتي ، وتخدَّر فيَّ كل شيء وتكاسل . كنت أتكلَّم ببطء – وما زلتُ حتى اليوم ، ولعلَّك لاحظت ذلك – ، ورحتُ في هذا

المصحّ ، أتكلّم بمزيد من البطء ، أمشي ببطء وآكل ببطء ، ملعقة تلو الأخرى ، حساءً عديم الطعم ، ولا أعترض.

لم أعرف أبداً المواد التي كانت ممزوجة بهذه القهوة . وقد تساءلت لاحقاً فيما لو كانوا يجرّبون عليَّ وعلى سائر المرضى علاجاً عبقرياً يجعل الأشخاص مطيعين وخاضعين ، وهو الحلم الذي يراود كل الطغاة . لا شك أن هذا الشراب كان يحتوي على البرومور وعددٍ من المخدّرات ... ولا شكَّ أنني أتهيّأ الأمور فحسب ؛ فمصحُّ الطبيب "دوّاب" كان ، قبل كلّ شيء ، مشروعاً رابحاً يستقبل زهاء عشرين معتوهاً أبَتْ عائلاتهم أن تجعلهم يتقاسمون مصابهم مع الفقراء.

"دوّاب" ؟ لا ، لم يكن الرجل بالسترة البيضاء الذي رأيته عندما عدت إلى وعيي ، فهذا كان ممرّضاً ، أما "دوّاب" فهو المدير وسيّد مصحّ التعاسة هذا . لم يستقدمني إلى مكتبه إلا بعد عشرة أيام من وصولي . بعد عشرة أيام ، هل تدرك ماذا يعني ذلك ؟ يدخلونني المصح بصورة طارئة ، ثم ينتظرون عشرة أيام قبل إخضاعي للمعاينة ! كان ذلك أسلوبه في العلاج . فهو يمضي معظم الوقت يراقبنا عن بعد ، وقلمّا يظهر للعيان . وقد أقام لنفسه غرفة صغيرة فوق القاعة الكبرى حيث كانوا "يفلتوننا " طوال النهار ؛ فيجلس فيها في العتمة ، خلف نظاراته السميكة والمستديرة ، كما في مقصورة المسرح .

دعني أوضّح لك منذ البداية أن هذا الرجل كان بالنسبة إليَّ مجرّدَ دجّال . ولا تعتقد أنني أتحدّث بدافع النقمة . أجل ، أنا أشعر بالنقمة بالطبع ، ويحقُّ لي ذلك ، فقد غيَّر هذا الإنسان وأمثاله مجرى

حياتنا ! غير أنني لا أطلق عليه هذه الأحكام عن ضلالٍ بل عن بصيرةٍ استرجعتها ، وأعتبره دجّالاً لأنني لم أشعر قط في مصحّه المزعوم أنهم يحاولون شفائي ، لا أنا ، ولا سائر المرضى .

هل هو طبيب ؟ ومصحٌّ الطريق الجديدة ، هل هو مشفى ؟ قل بالأحرى أنه كان قفصاً، والممرّضون والأطباء فيه مروّضين، ونحن لم نكن مرضى بقدر ما كنا حيوانات سجينة ومغلولة ، ليس بأثقال من حديد في أقدامنا ؛ لا ، لا شيء سوى أقراص صغيرة ذات ألوان فاتحة وجميلة ، ولكنها أثقال وأغلال تكبّل عقولنا وأرواحنا ، تعتصرها وتطحنها حتى يفرّ الدم !

لم أدرك قط دوافع هذا الرجل .لا ريب أنه كان يسعى وراء المال والربح ، ولكن المسألة ليست مسألة مالٍ فحسب ولا تلصصاً على مآسي الآخرين . ربما كان يسعى وراء السلطة أيضاً، والرغبة في الهيمنة إذ كان يسيطر على العديد من العائلات الثرية التي تفوّض له أمرها ليزيح عن كاهلها عبئاً ثقيلاً.

في المصح ، كان زعيماً في معقله ، يكفي أن يمرَّ في الأروقة حتى يحبس الموظفون والمرضى أنفاسهم ، ولا يحتاج للكلام كي يحملنا على الخضوع لمشيئته .

كان مقتنعاً أن مؤسسته طليعية ونموذجاً لسائر العالم ، ومبدأه بسيط يقوم على إبقاء المرضى بمنأى عن كل أشكال الإضطرابات ، وكل ما يستثير الإنفعالات والهيجان العاطفي كان محظوراً . لا يجب أن يرشح أي نبأ من الخارج ، إلا بعد فترة متأخرة جداً ، وبصورة ملطّفة . لا بريد ، لا اتصالات هاتفية ، ولا مذياع على وجه الخصوص . لم يكن يسمح للموظفين أن يتحدّثوا أمامنا عن أي حدث

جديد . ولا يحقُّ لنا الخروج أو استقبال الزوّار إلا لماماً . ولو شعر المريض بحاجات عاطفية ، يعمدون إلى قمعها بدلاً من إشباعها .

هل كنت أشعر بالسأم ؟ لا ، على الإطلاق . فالسأم ينتابنا عندما لا نستطيع الحصول على الأفراح التي نتوق إليها . وكان دوّاب يستأصل الشرّ من جذوره أي يسلبنا طموحاتنا ! وعلى مدى النهار، كنا نلعب الورق أو طاولة النرد ، ونستمع إلى موسيقى هادئة تنبعث في كل الغرف وحتى في الليل . كان يُسمح لنا بالمطالعة أيضاً ، ولكن لا كتب ولا صحف حديثة . وكان دوّاب قد اقتنى مكتبة قديمة تتضمَّن بضع عشرات الكتب العربية والفرنسية، وكذلك مجموعات قديمة من المجلات المجلَّدة. وقد قرأتها كلها بدون استثناء ، بل قرأت بعضها مرتين وثلاث بل وأربع مرات ...

ماذا كنا نفعل بعد ؟ لا شيء يذكر . نزهات ؟ كانت النزهات تقتصر على بعض الخطى في الحديقة ، بين الحين والآخر ، لا نبتعد كثيراً ونبقى تحت المراقبة ...ومع ذلك ، أعترف أنني سرعان ما اعتدت على هذا النظام ، بفضل " القهوة "الصباحية.

أرى أن عينيك تجحظان هلعاً ، ولكن لا تسيء الفهم ! فهذه الحياة مغرية . قد نتصوَّر وضعاً أفضل ، لا ريب ، كما قد نتصوَّر الأسوأ . وربما اعتبر الملايين من الناس أن هذه الحياة هي بمثابة الجنة أو أشبه بها . وبالطبع ، لو تساءل المرء : ماذا أنا فاعلٌ بحياتي ؟ فلا ريب أنه سيتمرَّد على هذا الوضع . ولكننا لم نطرح هذا السؤال في المصح ، بل قل لي كم شخص في هذا العالم يطرحونه ولو مرةً واحدة في حياتهم .؟

في ذلك الحين ، ووسط الإضطراب الهائل الذي كنت أضيع فيه ، لم تحملني هذه الحياة تلقائياً على التمرُّد والثورة . فقد تحرَّرت من شياطيني وهواجسي وانفعالاتي ونظرات الشفقة التي يرمقني بها الآخرون . نعم ، كنت أعتاد على نظام المصح وأترك نفسي أتهاوى ، وأشعر بتلك اللذة التي يقال إن الأشخاص الذين ينامون في الثلج ولا يستيقظون أبداً يشعرون بها . كان بوسعي ألا أستيقظ أبداً، فالعالم الخارجي كان يرعبني ويشعرني بالاشمئزاز ، إذ أضحى ملكاً لشقيقي !

في فترة من الفترات ، خلتُ أن العالم ملك يدي . الحرب ضد النازية ، والآمال العظيمة بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، والجموع التي تتقاطر إلى محاضراتي ، والسفلة الذين يقبعون في السجن ، والمرأة التي أحلم بها وأضمها إلى قلبي البريء . لا شيء كان يبدو لي مستحيلاً . أما الآن فقد ولَّت هذه الفترة وأصبح شقيقي هو الذي يصول ويجول في الخارج .

قلت " في الخارج " ، فهذه هي مصطلحات المصح . كان "الخارج " كياناً غامضاً ، لا نتحدَّث عنه بحنين بقدر ما نذكره بهلع. حتى أنا ؟ نعم ، حتى أنا ، نوعاً ما ، فلم يكن النزلاء الآخرون وحدهم يخشون أن يضلُّوا السبيل في الخارج . وأقول " نوعاً ما " لأنني لا أعرف عن أيِّ " أنا " أتحدَّث ! عن عصيان ؟ أو باكو ؟ فالشخص الذي كان في المصح لم يعد أنا ، أو كان بصورة مجتزأة جداً ، ذلك أنني لم أتخذ قط ، وبكامل وعيي ، القرار بالرضوخ والإذعان .

وبعد ، فأنا أفهم دهشتك . والحق يقال إنني لم أقاوم كثيراً وأدرك الآن السبب تماماً مع مرور الوقت . فقد تعقَّدت كل الأمور في حياتي . كنت أعرف حقَّ المعرفة أنني لن أتمكن من متابعة دراستي التي بدأتها بصورة لامعة ، غير أنني لم أستعد أبداً القدرة نفسها على التركيز ، ولا الحماس عينه. كنت في الثلاثين ، لا أزال أجرجرُ الخطى ، ولا أحسن الانفصال عن حياتي السابقة سعياً وراء مستقبل غير واضح المعالم . وما أن ظهرت أولى اضطراباتي العقلية ، حتى فهمت أنني لن أصبح طبيباً ما حييت ، فقررت عدم التفكير بالأمر غير أن هذا الفشل كان ينهشني في الأعماق .

وكنت أعرف أنني لن أستعيد كلارا إلا إذا استعدت صفاء ذهني وشيئاً من السكينة في الحكم والسلوك . وكنت لا أقوى على الثورة والتمرُّد كإنسان فاقد الصواب ، فحياتي كانت تتداعى ، ولكنني كنت مقتنعاً أن المزيد من التدهور يتربَّص بي إن بقيت على عنادي.

وأضيف أخيراً أنني، إذا ترددت ، بالرغم من كل شيء ، بين الرضوخ والتمرُّد ، فالأدوية التي كانوا يعطونني إياها كانت تكفي لترجيح كفة الميزان .

وهكذا ، وضعت نفسي في هذه الشيخوخة المبكِّرة. وانعدم في داخلي نفاذ الصبر . كان الوقت يمضي . كم سيدوم كل ذلك ؟ لم يكن في ذهني مهلة محدَّدة . بضعة أشهر ؟ بضع سنوات؟ كان أجلاً غير مسمًّى . غير أنني شعرت بأنني لن أبقى في هذا المكان إلى الأبد. كنت أترقَّب شيئاً ما أن يحصل ، وقل إنها إشارة، حتى لا نتحدَّث عن معجزة . كان شيئاً مبهماً ، غير أن ذلك الجزء مني الذي لا يزال ينبض بالحياة ، كان يؤمن بها .

وقد حصلت المعجزة ، أو بالأحرى ، تغلغلت ببطء ، ودون أن أدري ، إذ أمضيت فترة طويلة لا أرى شيئاً يلوح في الأفق ، ربما لأن الخلاص لم يأت من حيث كنت أتوقّع .

مساء السبت

حذّرني عصيان عندما وصلت إلى الفندق يوم السبت بعد القيلولة : "- ابتداءً من يوم غد ، لن نتمكّن من اللقاء ".

- وماذا لو لم تنته من روايتك ؟

- سوف أروي لك هذا المساء ما يسمح لي الوقت بسرده ، وإذا بقيت أشياء لم أقلها ، فلتبق معلّقة...

- لمناسبة أخرى ربما ؟

فأجابني : " دعنا نكسب الوقت، وسوف أحاول الإسراع ...".

ذات يوم ، جاء شقيقي ليأخذني من المصح ، في نهاية الصباح . كان خروجي الأول منذ أربع سنوات ، فأنا لم أخرج قط منذ احتجزني هناك ، ولم أكن أستقبل زواراً أيضاً . كان سالم يأتي مرةً في السنة ليسألني إذا كان كل شيء على ما يرام ، فأجيبه : "نعم"، وسرعان ما ينصرف .

كانت شقيقتي تزورني أكثر منه قليلاً . فقد اعتادت قضاء الصيف في الجبل هرباً من قيظ مصر وزيارتي مرتين أو ثلاث مرات خلال إقامتها . ويبدو لي أنهم كانوا يضاعفون جرعة المسكّنات أيام الزيارة ، إذ كنت أنظر إليها مخبولاً وهي تحاول جاهدةً أن تتحدَّث معي وتعيد لي بعض الذكريات وتطرح عليَّ بعض الأسئلة ، فأجيبها بكلام غير مفهوم ، تنصرف من بعده وهي تمسح دموعها .

كان من المفترض أن يكون هذا الخروج الأول حدثاً بالنسبة لي، ولكنني لم أشعر بالفرح أو بالحزن ، وبالكاد كنت مدهوشاً !

أعلمني المدير في اللحظة الأخيرة ، ولم أغيّر شيئاً من عاداتي . كنت ألعب الورق حين نادوا عليَّ ، فأعطيت مكاني لأحدهم وانصرفت .

فتح لي السائق باب سيارةٍ كبيرة سوداء وبيضاء . كان سالم يجلس فيها وأخبرني ، بنبرةٍ أكثر دماثةً من العادة أنه يقيم غداءً مهماً في المنزل ويحرص على حضوري . وبالطبع كان يكذب مرة أخرى. فلو أقام غداءً مهماً ، فهو ليس الشخص الذي قد تأخذه الشهامة أو النبل ليفكِّر : " يجب أن أخرج شقيقي من المصح..."

فالحقيقة كانت مختلفة ، إذ أن سالم أصبح من أشهر رجال الأعمال في البلاد ، وأقول ذلك بنبرةٍ لا تخلو من المرارة ، ولكن هذا ما حدث ... لقد نسي الناس أنه كان مهرّباً وضيعاً بالأمس . هل غيَّر مهنته ؟ هل تخلَّى عن مبادئه ؟ في مطلق الأحوال ، كان يجني الملايين ، ودائم الأسفار ، وقد بنى لنفسه إسماً ومركزاً اجتماعياً مرموقين .

وقد بدت مظاهر الدعة على دارنا ، فجاءت ثروة جديدة لتغطِّي الثروة القديمة ، والحديقة التي كانت بالأمس دغلاً كثيفاً ، اكتست بالعشب المشذَّب وأزيلت أشجار الصبَّار التي كانت تنفح في المكان روحاً ، وتبدو قديمةً قدم الحجارة نفسها ، وبالكاد بقيت بعض أشجار الصنوبر المتهالكة .

وفي الداخل ، اختفى الأثاث العتيق الذي استقدم من أضنة، واحتلت مكانه أرائك مذهَّبة كأنها ضفادع جاثمة ، وأزيل السجاد القديم الذي أبلته مئة وخمسون عاماً من الخطوات ، ووحدها غرفتي بقيت على حالها ، لا يدخلها أحد حتى لنفض الغبار عنها ، غير أن ذلك لم

يمنعني من الإستلقاء على سريري والنوم ، فقد أرهقتني المسافة التي لم تستغرق أكثر من دقائق معدودة .

أيقظوني مع وصول أول المدعوين . لم أعرف من هم ، ولم أسأل ، ولم يقل لي شقيقي شيئاً ما عدا أنه يفضل أن أكتشف بنفسي المفاجأة التي حضَّرها لي . كان عددهم قليلاً ، ولكنهم من الشخصيات المرموقة لدرجة أن سالم استأجر رئيس خدم . كانت السيارة الأولى التي وصلت تقلُّ السفير الفرنسي الذي قدم بصحبة أحد الوزراء في حكومة بلاده .نعم ، كان هذا الوزير هو برتران ! أو الشخص الذي كان يدعى برتران أيام المقاومة !

لقد سأل عني كثيراً على ما يبدو وكتب إلى كلارا التي أخبرته بالقليل الذي تعرفه عني ، ثم كتب إلى السفير الفرنسي الذي تحرَّى عني ، وعندما علم بأنني أعيش في المصح ، وما أصبحت عليه، لم ينصح الوزير بمحاولة لقائي .

غير أن برتران يعرف كيف يصرُّ على رأيه ، وبما أن السفير لم يشأ مضايقته ، فقد اقترح فكرة هذا الغداء ، وافترضَ أن شقيقي الذي يلهث وراء التقدير والتبجيل ، سوف يكون سعيداً باستضافة وزير فرنسي إلى مائدته . وفي الواقع ، لم يكن ممكناً أن يتناول مسؤول رفيع المستوى ، في زيارة رسمية إلى بلد غريب، عشاءً خاصاً لا سيما إذا كان المضيف رجل أعمالٍ ذا ماضٍ مشبوه ، أما القائد السابق لشبكة من المقاومين فيمكنه، بالمقابل ، الجلوس إلى مائدة أحد رفاق السلاح . لقد عاد منزل كتبدار ملكاً لي طوال الوقت الذي استغرقه الغداء .

كانت مهزلة ، ومقايضة شائنة ، ويوماً مذِّلاً غير أنني استفدت من الوضع في نهاية المطاف .

لماذا مذِّلاً ؟ بسبب التفاوت ... وسوف تفهم ما أريد قوله .

عندما جاء شقيقي لاصطحابي في ذلك اليوم ، كنت أحمل في رصيدي ، إذا جاز لي القول ، أربع سنوات من السكينة القسرية . وفي صباح ذلك اليوم ، أعطيتُ الشراب الذي لا بديل عنه . وقبل الذهاب مع شقيقي ، أمضيت الساعات الأخيرة مع نزلاء المصح ، ونحن نلعب الورق بحركات متثاقلة .كنا نعيش جميعاً بالطريقة نفسها، نتحادث ونتحرّك بالوتيرة عينها ، وربما اعتقد من يراقبنا من الخارج أنه يرى مشهداً بطيئاً ، مؤثراً أو هزلياً ، ولكنه مشهد من الحياة اليومية التي نعيشها .

وعند الظهر ، وجدت نفسي جالساً إلى المائدة مع عشرة أشخاص يعيشون على وتيرة العالم الحقيقي ، موظفين في السفارة، ومديري تحرير صحيفتين، وأحد المصرفيين ... كانوا يتحدَّثون بسرعة فائقة ، أسرع من قدرتي على المتابعة ، ويلفظون أسماء لا تعني لي شيئاً ، "بانمونجوم" ، "ماكارثي" ، "جمهورية ألمانيا الإتحادية"، "مُصَدِّق" ؛ ويعلِّقون على أحداث لم أسمع بها قط ، ويضحكون لأمور لا تعني لي شيئاً . كان برتران يرمقني طوال الوقت ، بفرحٍ في بادىء الأمر ، ثم بدهشة ، وأخيراً بحزن شديد . كنت لا أفعل شيئاً سوى تناول الطعام ، وعيناي تشخصان إلى الصحن الموضوع أمامي . خاطبني برتران مرتين أو ثلاث مرات، ولكنني كنت أستغرق وقتاً طويلاً لأنتبه وأفهم كلامه وأضع شوكتي

جانباً وأحضرّ في ذهني جواباً ... وأرى الآخرين ، حتى قبل أن أبدأ التفوّه بكلمة ، وقد انتابهم الحرج بسبب الصمت الذي خيّم ، يغيّرون الحديث . يا إلهي ! كم شعرت بالمذّلة ! وتمنيّت لو أموت !

ثم ، عند انتهاء الغداء ، حاولت أن أستجمع قواي ، وإذ ركّزتُ ذهني ، ألّفتُ جملةً وقرّرت أن ألفظها بأسرع ما يمكن . كنت أتحيَّن لحظة صمت لم تأتِ أبداً ، أو لم أنتهزها في الوقت المناسب . كان السفير ينظر إلى ساعته ، ويذكّر برتران بموعده التالي .

نهض الجميع ، أما أنا ، فكنت أتحرّك حسب وتيرتي ، وكانوا قد غادروا جميعاً غرفة المائدة ، واتجهوا نحو الباب ، وأنا قد نهضت لتوّي ، متكِّئاً بكل ثقلي إلى المائدة ، وما بلغت الثالثة والثلاثين بعد !

وفجأةً ، عاد برتران أعقابه كما لو شعر بالندم . اقترب مني وطوّقني بذراعيه وعانقني طويلاً كما لو أراد أن يمنحني الوقت لأتكلّم. كانت مناسبة لأقول له كلَّ ما لم أقوَ على التعبير عنه على المائدة، كلَّ ما يتأجج في أعماقي ، هنا ، في صدري ، بين شفتيَّ ، كلَّ ما أردت أن يفهمه أخيراً ...

لم أنبس ببنت شفة ، ولا كلمة واحدة . ربما بسبب التأثر أو بسبب المفاجأة لرؤيته يعود نحوي ، بينما وقف الأخرون وقد لمحتهم من وراء كتفه ينتظرون . ومرة أخرى ، عجزت عن التفوّه بأية كلمة . كنت أشعر أن الأمر على قدر كبير من الأهمية ، وربما فرصتي الوحيدة للإتصال من جديد بعالم الأحياء ، ولكن المراهنة على هذه الأهمية تحديداً هي التي كانت تشلُّني .

وإذ عجزت عن النطق كما قلت ، استطعت ، في اللحظة الأخيرة ، أن أتحرَّر من قيودي الخفية قليلاً ، لأقوم فقط بحركة إنسانية ، فاحتفظت بيد برتران في يدي لأمنعه من الإنصراف وبحثت في جيبي عن صورة ابنتي التي أرسلتها لي كلارا . نعم ، صورة تلك المولودة التي تشبه كل المواليد في العالم ، أريته إياها ثم قلبتها ليتسنى له قراءة اسمها : ناديا . وقد هزَّ رأسه وربَّت على كتفي وتمتم بعض الكلمات ، ثم رحل وفي عينيه حزن وشفقة ورغبة بالابتعاد سريعاً .

هل أدرك أنني كنت أستغيث به ؟ لا ، لم يفهم . فقدكان لديَّ متسع من الوقت لو أردت قول شيء . كنت أستطيع القيام بذلك خفيةً، أكثر خفيةً من تلك الحركة التي سحبت فيها صورة قديمة من جيبي لأريه إياها . ولم ألمح في عينيه حين ابتعد ، أكثر مما ارتسم فيهما ، أي الحزن والشفقة . وأعرف الآن أنه كتب إلى كلارا فور عودته إلى فرنسا ، وكانت رسالته بمثابة نعيٍ لي . فقد أعلمها أن باكو المسكين قد تغيَّر لدرجة أنه لم يعد بالإمكان التعرف إليه ، وأن الشاب الذي عرفته في الماضي ، وعرفه هو ، غافروش شبكة "حرية! " لم يعد موجوداً ، وبالتالي عليها نسيانه واستئناف حياتها . لم يرَ من الفائدة أن يذكر لها الحركة التي قمت بها عند انتهاء الغداء . وربما تساءل عن جدوى ذلك ، وأنه من الأفضل لها أن تحتفظ عني بصورة ذلك الشاب العاشق والمفعم حيويةً عوضاً عن صورة الكائن المسكين الذي شاخ قبل الأوان .

كنت متلاشياً بينما سائق شقيقي يعود بي إلى المصح ، فقد تركت كل الفرص تضيع مني . ولا شك أن سالم كان مبتهجاً . هل

شكٍّ أحد المدعوين أنه قد احتجزني في هذا المصح ؟ لقد أثبت حسن نواياه وسمح لي أن آتي بملء إرادتي ، وأحضر الغداء ، وأتحدَّث ، إذا جاز التعبير ، مع المدعوين ، بل وعلى انفراد مع أحدهم ، وقد لاحظ الجميع أن حالتي العقلية يرثى لها ، وأن وجودي في مؤسسة متخصّصة كان مبرَّراً وكذلك الوصاية القانونية التي يمارسها على حصتي في الميراث ...

وقد نجح شقيقي كذلك ، بفضل هذه الدعوة ، في محو وصمةعارٍ أخرى ، أقل افتراضاً ، تتعلّق به وهي إدانته السابقة بالتهريب التي زجَّت به في السجن . فقد اكتسب بفضل ثروته قدراً من الإحترام في المجتمع وأنت تعرف ، دونما شكٍّ ، بأن الإحترام أشبه بالمومس ... وهذه المرة ، تمكَّن من ردّ الإعتبار كاملاً ، فإذا كان الفرنسيون أنفسهم ، بعد أن أدانوه عشر سنوات ، يقبلون الآن أن يتناول سفيرهم ووزيرهم الغداء في منزله ، فذلك لأنهم متأكدون من براءته ، لا ريب ، فمن يجرؤ على قول العكس ؟

لقد كانت هذه الدعوة التي يفترض بها أن تبشّر بخلاصي مجرَّد مرحلة أخرى من صعود شقيقي ، ولعلَّ الكثيرون كانوا يتساءلون ، في ذلك الحين ، كيف خرج هذا الرجل العظيم وذاك الحطام من المنزل نفسه والرحم عينه ...وربما أغفل الذين يعرفون ما أصابني إثارة هذا الموضوع احتراماً لذاك الإنسان الجليل الذي سوف يتأثر كبرياؤه بسبب هذه العاهة التي ابتلت بها عائلته ، غير أن معظم الناس نسوا حتى وجودي ،.ودفنوني بدون الصلاة على روحي .

ليس الغرباء وحدهم ! بل الأقارب أيضاً ! كانت شقيقتي دون غيرها الشخص الوحيد الذي يستطيع مساعدتي . فقد توفي جدي نوبار وجدتي بعيد وصولهما إلى الولايات المتحدة ، ولم يشأ ابنهما أرام الذي غادر البلاد في ظروف مهينة ، الإتصال بعائلته أو من تبقى منها .

من كذلك ؟ رفاقي في المقاومة ؟ لا شك أن الذين عرفوني قد علموا من برتران بما أصابني ، وأعتقد أنهم حزنوا ثم نسوا . وكيف لي أن ألومهم ؟ فلم أكن أول رفيق شاب لهم ينهار دون سبب ظاهر غداة الإنتصار ... فللحرب أحياناً مفعول رجعي !

من أيضاً ؟ كلارا ؟ في الفترة الأولى ، بعثت لي ، كما قيل لي ، بعض الرسائل التي لم أستلمها قط . وقد كتبتْ أيضاً لشقيقتي التي نصحتها بعدم محاولة رؤيتي . لماذا ؟ لم تشأ إيفيت أن تراني زوجتي على الحال التي كانت هي تراني عليها خلال زياراتها الصيفية ، كما أن الإنتقال من حيفا إلى بيروت أصبح مستحيلاً ، ويجب الحصول على أوراق مزوَّرة والإتفاق مع بعض الأشخاص ، والمجازفة بإثارة ريبة العرب والإسرائيليين على حدٍّ سواء ... لقد اعتبرت شقيقتي أن كلارا ، إذا نجحت في تذليل كل هذه العراقيل ، وتركت ابنتها أو ، الأدهى من ذلك ، اصطحبتها في هذه المغامرة ، ووجدت نفسها بعد هذه الرحلة ، أمام هذا الإنسان المحطَّم اللاهث ، المتثاقل الخطى ، العاجز عن الكلام وعن الإستجابة ، فهي قد تيأس إلى الأبد . أليس من الأفضل لها أن تتريَّث حتى أعود إلى رشدي قليلاً ؟ ومن يدري ، فقد يكون اللقاء بكلارا وناديا ، عندئذٍ ، بمثابة خشبة خلاص .

في تلك الفترة ، كانت شقيقتي.لا تزال تأمل أن تتحسَّن حالتي، ولكنها بدأت تفقد الأمل بعد كلّ زيارة . وفي يوم من الأيام ، يئست تماماً . وحدث ذلك في أسوأ لحظة ، حين بدأت أترقَّب حضورها . غير أنني لا ألومها ، ولا ألوم كلارا أيضاً ، فكيف تفطنان إلى أنني كنت سجيناً في قوقعتي ، مدفوناً حياً ؟ فأنا لم أطلق صرخة استغاثة واحدة .

في ذلك المساء ، وبعد هذا الغداء التعس ، إذ شعرت بالرغبة في تصحيح خطأي ، وبما أنني لم أعد أثق بقدرتي على الكلام ، بذلت جهداً لأكتب على قصاصة من الورق هذه الجملة البسيطة : "أرغب بالخروج من هنا واستئناف حياة طبيعية " . كانت صرخة استغاثة أندم الآن لأنني لم أعرف إيصالها إلى برتران ، وكنت أتهيَّأ لأسلِّمها بنفسي إلى إيفيت حين تأتي لزيارتي في الصيف القادم . وقد احتفظت على الدوام بهذه القصاصة في جيبي مع صورة ناديا . ولئن أجبرت نفسي على خطِّ هذه الكلمات ، فذلك لم يكن خشية أن تهرب مني يوم أحتاجها ، بل لأنني كنت أخشى ألا أتمتع بالحالة الذهنية نفسها . كنت بحاجة لاستجماع القليل من النقمة التي تراكمت في داخلي ، كما يجمع أحياناً بعض الأشخاص الذين يضلُّون السبيل في الصحراء ويتهدَّدهم الظمأ ، الندى الذي يتراكم على الأوراق والتويجات ، قطرةً قطرةً ، لإرواء ظمأهم . لقد أصبحت النقمة والسخط ونوبات التمرُّد النادرة بالنسبة إليَّ وقوداً ثميناً لكي تبقى كرامتي المخدَّرة على قيد الحياة .

لم تعد شقيقتي في ذلك الصيف لقضاء العطلة في الجبل ، ولا الصيف الذي تلاه ، ولم أرها أبداً مرة أخرى .

أخبرني سالم يوماً أن صهرنا محمود قد واجه بعض المشاكل مع السلطات في مصر ، واعتقل ثمانية أشهر مع غيره من أصحاب المصارف ، فقرَّر بعد أن جرحت كرامته وأصابه الإحباط ، أن ينفي نفسه أبعد ما يمكن عن الشرق الأدنى ، ورحل إلى ملبورن في أستراليا .

وأغلب الظن أن أموراً أخرى قد حصلت ، وإلا لجاءت شقيقتي على الأقل لتودّعنا . ويبدو لي أن شقيقي ، بحيلة ما من حيله وألاعيبه ، قد حرم إيفيت من حصتها في الميراث . ولا أملك الدليل اليقين إلا حدسي وبعض المؤشرات المبهمة التي استقيتها هنا وهناك، ولكن لا داعي للخوض في هذه المسائل الوضيعة !

ربما أتت شقيقتي لرؤيتي لو أظهرتُ لها أنني أرحّبُ بزياراتها ، ولكن ما جدوى السفر بالباخرة أو الطائرة ، والقدوم من أستراليا لسماع كلماتي المتعثِّرة ثم الرحيل باكيةً !

لم تعد أبداً لزيارتي ، وكنت أنتظرها مع حلول الصيف ، وأفقد الأمل برؤيتها ثانيةً سنةً بعد سنة. كان أملي الأخير يتلاشى...

ولئن بقيت على قيد الحياة ، فذلك لأن المرء يجب أن يتحلّى ببعض الإرادة لكي يموت . وقد فقدت هذه الإرادة ، ولم أعد أقوى أن أمدَّ يدي للموت وأختلس زجاجة دواء ، أو أرتقي السلالم وأصعد إلى السطح وأقفز في الفراغ ... كان المبنى مؤلفاً من طابقين ، وقد يحالفني الحظ فتتهشَّم ضلوعي ...

لا يجدر بي أن أقول هذا الكلام ، فعلى العكس ، أسعفني الحظ لأنني لم أملك القوة على الموت حين اعتقدت أن آخر أمل لديَّ قد ذهب أدراج الرياح . فحتى عندما لا نبصر نوراً في نهاية النفق ، يجب أن نؤمن بأن النور لا بدَّ أن يظهر .

يتحلَّى البعض بالصبر لأنهم يؤمنون بالغد ، والبعض الآخر لأنهم لا يملكون الشجاعة الكافية ليضعوا حداً لحياتهم ، ولا شك أن الجبن مذموم ولكنه من سنَّة الحياة ، فهو أداة للبقاء وكذلك للإذعان.

ولكنني أخطيء حين أتحدَّث عن الجبن والرضوخ كما لو أنهما وحدهما قد أبقياني على قيد الحياة . فقد كان هناك "لوبو " ، وهو أحد نزلاء المصح ، وغالباً ما كنا نتجاذب أطراف الحديث. لقد أصبح صديقي الصدوق والوحيد ، وسوف أتحدَّث عنه بعد قليل. وطوال سنوات عديدة ، كان أمره يهمُّني أكثر من أيِّ شخص آخر ، وأريد أن أروي أولاً كيف أقنعني لوبو بعدم الإنتحار .

لم يكن سهلاً عليَّ أن أبوح برغباتي الإنتحارية بسبب أجواء النميمة الطفولية التي كانت تسود في المصح ! وكنت أعتقد أنهم سوف يشدُّون وثاقي إلى السرير كل ليلة ، إذا شكُّوا برغبتي في الإنتحار ... أما لوبو الذي ربما فطن للأمر وأراد أن يحملني على الكلام ، فقد أسرَّ لي يوماً بأنه فكَّر أكثر من مرة " بالإنتهاء من كل شيء " . وحين اعترفت له بأن الفكرة تراودني أيضاً ، راح يعظني منطلقاً من فارق السنّ بيننا والسنوات العشرين التي أمضاها في المصحات .

" يجب أن تعتبر الموت خشبة الخلاص الأخيرة ، واعلم أن لا أحد يستطيع أن يمنعك من اللجوء إلى الإنتحار ، ولكن ، وبما أنه

في متناول يدك ، فاحتفظ به احتياطياً إلىأجلٍ غير مسمًّى . لنفترض أنك رأيت كابوساً في الليل ، إذا عرفت أنه كابوس ويكفي أن تهزَّ رأسك قليلاً لتتحرّر من وطأته ، فكل الأمور تغدو أكثر بساطةً وأكثر احتمالاً ، بل سوف تستمتع بما كان يرعبك .إذا أخافتك الحياة وسببت لك الألم ، ووضع أقرب الناس إليك قناعاً بشعاً ... قل لنفسك إنها الحياة ، وهي لعبة لن تدعى للمشاركة فيها ثانيةً ، لعبة تقوم على الملذات والآلام ، لعبة تتراوح بين الصدق والرياء ، لعبة أقنعة، فالعبها حتى النهاية ، ممثِّلاً كنت أم مشاهداً ، والأفضل أن تكتفي بالمشاهدة ، إذ يسعك دائماً أن تنسحب منها . إن "خشبة الخلاص " هذه تساعدني على الاستمرار لأنها بمتناول يدي وأعرف أنني لن ألجأ إليها . ولو لم تكن يدي ممسكةً بباب الآخرة ، لشعرت بنفسي واقعاً في فخٍّ ولرغبت بأن ألوذ بالفرار سريعاً ! " .

لم يكن لوبو مريضاً أكثر من الناس العاديين . وكلُّ ما كان يعاني منه ، كما يقال ، " عادات خاصة" . وقد اختارت عائلته ، رغبةً منها "بشفائه " أو اتقاء للفضيحة فحسب ، أن تحتجزه في المصح . أمضى معظم حياته في مؤسسات عديدة ، وكان هذا المصح هو المؤسسة الرابعة أو الخامسة التي ينتقل إليها على ما أظن ، وقد تعرَّض لكلّ أشكال العلاجات ، بل قرَّر أحد الأطباء يوماً إخضاعه لجراحة في الدماغ "ليستأصل ميوله السيئة ". ولحسن الحظ ، تدخَّلت والدته في لحظة تعقُّل أو هداها حدسها فمنعته من إجرائها . وقد بقي له من تلك المغامرة الفظيعة ، لقبه ، لوبو ، الذي اختاره بنفسه ، على ما أعتقد ، للسخرية ... كان ينظر إلى كلّ ما يحيط به ، حياته وماضيه ، بتجرُّد هائل .

كان يتمتّع في المصح بوضع خاص ، فقد وضعوا له بيانو في غرفته ، وكان يمضي سحابة نهاره، منتعلاً خفين ، وقد عقد منديلاً من الحرير الأخضر حول عنقه ، يعزف غيباً ، أو يتحدث معي دون أن يبارح مقعده أمام البيانو ؛ ويستطيع ، بعكسنا ، تلقي الاتصالات الهاتفية والرسائل ... وفي الواقع ، لا أحد كان يعتقد بأنه مجنون .

كان هو الذي أخبرني يوماً بأن شقيقي قد عُيّن وزيراً إثر تعديلٍ حكومي. نعم ، أصبح وزيراً ! كان لوبو يعرف بأنني سأصعق لهذا الخبر ، فقد سبق أن أخبرته بالتفصيل عن سالم . وقد تأكّد من أنني قد تجرَّعت " قهوتي" بكاملها في ذلك الصباح قبل أن يعاجلني بالنبأ .

بقيت مخبولاً ، وأعني أنني خبلتُ أكثر من العادة ، ذلك أن الخبل كان وضعي الطبيعي . ولذا فقد قدَّم لي العزاء على طريقته :

– إنّ ما يجري لا يجب أن يدهشك يا عصيان ، فشقيقك سوف يتفوّق دائماً عليك بميزة لا تتمكّن أن تضاهيه فيها .

– وما هي ؟

– إنه شقيق مقاوم سابق، أما أنت ، فلست سوى شقيق مهرّب سابق.

ضحكت وتبدَّدت مرارتي .

وهكذا ، بينما كانت أوضاع شقيقي تزدهر ، ونجمه يتألق في سماء الثروة والشهرة ، كنت أغرق وابتسامة المعتوهين مرتسمة على

شفتيَّ . .. ومرَّت السنوات ، وكنـت قد فقدت معنـى الأمـل منـذ أمـد طويل جداً .

وبدأت الأمور تتحرّك فجأةً حين تناول المكلَّف بالعناية الإلهية ملَّف حياتي ونفض عنه الغبار ليلقي عليـه نظـرة جديـدة ، أكـثر رأفـةً ورحمةً ...

لم تكن أداة العناية الإلهية ، كما يقال ، سوى ابنتي ناديا التي انتقلت لباريس لتوّها من أجل الالتحاق بالجامعة .

أجـل ، ناديـا . أنـا بـدوري احتفظـت عنهـا بصـورة الطفلـة المولـودة حديثـاً ، ولكنهـا أصبحـت شـابة فـي العشـرين ، تتـأجج فـي أعماقها كل أشكال التمرُّد . لقد سئمت مشرقنا الذي كانت الحروب فيه تتوالى ، وكانت تتوق إلى الرحيل .

وقد انتزعت كلارا منها وعداً ، بما أنها لـم تفلـح فـي إقناعهـا بالبقـاء إلـى جانبهـا ، واعتراهـا القلـق لرؤيتهـا ترحـل وحدهـا ، بـأن تتصل ببعض الأصدقاء القدامى من فترة البطـولات . وهكـذا قصـدت برتران الذي لم يعد وزيراً على ما أظن ، ولكنه ظلَّ رجلاً نافذاً وأحـد أبرز وجوه المقاومة .

شعرت ابنتي بالحياء أمام هذا الرجل الذي استقبلها فـي بهـوٍ فخم الرياش ، وفي أرائك يغوص فيها المرء ، وراح يتأملها بابتسـامة خفيـة ، واعتقـدت أنهـا يجـب أن تـبرّر زيارتهـا . وفـي الواقـع، كـان برتران يحاول أن يرى على وجهها ملامح أبويها .

– لقد شجعتني والدتي على زيارتك وأعتقد أنك عرفتها أثنـاء الحرب ...

– إذن ، أنت ناديا ، ناديا كتبدار . لقد عرفت والدتك بالطبع ووالدك أيضاً . كانا رائعين أثناء الإحتلال ، رفيقين رائعين، وصديقين يصعب على المرء أن ينساهما .

شعر برتران بالاضطراب وهو يلفظ كلمة : " والدك " . كان شعوراً خاطفاً سرعان ما تبدَّد . حدَّثها مطوَّلاً عني وعن لقائنا في مونبلييه ونقاشاتنا ونضالنا ومخاوفنا وبطولات باكو ، باكو الزئبق . كانت ناديا متعلِّقةً بشفتيه وتعرف أصلاً بعض الأشياء التي سمعتها من والدتها ، ولكنها تجهل أشياء أخرى . وصارت تتخيَّل بصورة أفضل ذلك الشاب الذي سوف يصبح والدها .

ثم ذكر برتران سريعاً مرضي واحتجازي في المصح . وعندها فقط ، خطر بباله نداء الإستغاثة الذي رميت به في البحر ، وروى لابنتي بالتفصيل حادثة الصورة التي أخرجتها من جيبي في نهاية ذلك الغداء المشؤوم ، تلك الحادثة التي بدت له حتى الساعة مثيرة للشفقة ومضحكةً لدرجة أنه امتنع عن ذكرها لكلارا ومحاها من ذاكرته حتى لا يحتفظ بتلك الصورة المحزنة عن صديقه ... وقد اكتسبت تلك الحادثة لديه دلالةً أخرى على حين غرَّة ، بعد أن رأى هذه الشابة أمامه ، وهي تتهيَّأ للقيام بخطواتها الأولى في حياة الراشدين ، وتشعر بأنها الإبنة اليتيمة لأب لم يمت.

كانت ناديا تبكي ، فحتى تلك الساعة ، كنت أحد أفراد عائلتها، أما الآن فقد أصبحت من لحمها ودمها ، فتلك الاستغاثة التي كانت موجهَّة لها أصلاً والتي وصلت متأخرة جداً ، بدت لها وكأنها الحركة الأخيرة لإنسان يغرق . وتساءلت ماذا حلَّ بي منذ ذلك الحين، وهل يمكن القيام بشيء لانتشالي .

وعندما استودعت برتران ، نظر إليها متخوّفاً وهي تبتعد. فقد تخلّت عن مشية المراهقة . أما أنا فكنت ، في ذلك الوقت ، ألعب الورق للمرة الثامنة عشرة مع ثلاثة نزلاء غشاشين .

كيف تستطيع ناديا أن تكفَّ عن التفكير بذلك الرجل الذي يحمل على صدره صورتها كالتعويذة ؟ ، ذاك المعتوه - أجل ، أجل، لماذا أخشى الكلمات ؟ - ذاك المعتوه الذي يري صورتها لأعزّ صديق له كما الأيقونة ! سحنة طفلة مولودة حديثاً ، تحمل بهجة العالم الرصينة !

تحوّل كلُّ ما تحمله ابنتي في سنِّها من مثل عليا واندفاع وأحلام نحو ذلك العجوز الشاب المحتجز . كانت تردّدُ لصديقتها في السكن الجامعي : " ولكنه والدي ، إنه ليس شخصاً غريباً ، فهو والدي، نصف خلايا جسدي منه ، ونصف دمي ، ولون عينيَّ وشكل ذقني . إنه والدي " . كانت تعشق طعم هذه الكلمة .

وماذا لو كان هذا الوالد حيواناً هزيلاً ، طريداً ، جريحاً ، ومهملاً ، بدلاً من أن يكون ذلك الوحش الكاسر والحامي ؟ وماذا لو أصبحت ابنته أمه الرؤوم بدلاً من أن تحتمي في كنفه ؟

كانت ناديا تفكِّر بي بالحنان الذي يميِّزُ سنَّها . غير أن أحلامها لم تتوقف عند هذا الحد ، فقد كانت تبحث عن وسيلة للوصول إليَّ ، والرد على الإشارة التي وجهتها إليها قبل خمسة عشر أو ستة عشر عاماً .

وتحوّل العثور على هذا الأب وإنقاذه هاجساً لديها .

حتى لو كان متداعياً بسبب احتجازه في المصح وتناوله المهدّئات لدرجة ميؤوس منها ؟

لم تطرح هذا السؤال على نفسها . وقد أعمت هذه الغشاوة بصيرتها ، لحسن الحظ .

هل صارحت والدتها بمشروعها ؟ لا ، لم تبح لها بشيء ، فعلاقتهما لم تكن على أحسن ما يرام في تلك الفترة ، فكلارا تملك شخصية قوية وماض مهيب ، ونادیا بحاجة لأن تعيش مغامرتها الخاصة ، وحيث استسلمت والدتها تحديداً ...

ولم تبحث الأمر مع برتران كذلك ، أو لم تستشره على الفور. كانت تريد أن تتصرّف بمفردها ، فهذه مغامرتها ومعركتها ووالدها . وقد أصابت في تكتمها إذ كانت خطتها جنونيةً ، ولا ريب أن كلارا وبرتران لما كانا يسمحان لها بتنفيذها .

ولم تسرّ بالأمر ، كما عرفت لاحقاً ، إلا لتلك الصديقة التي تقاسمها غرفتها في المدينة الجامعية . كانت تدعى كريستين ، وتحمل كنية صائغ فرنسي معروف .

اقترحت نادیا على صديقتها انتحال شخصية ، إذ كانت الفتاتان متشابهتين بما يكفي ليخلط الناس بينهما على صورة الهوية. وقد لجأت كريستين إلى حيلة تضاهي حيل جاك - مزوّر - الأوراق، فتقدَّمت بطلب جواز سفر جديد ، وأخذت معها صور نادیا وانطلت الخدعة على الموظف في مركز الشرطة. وهكذا ، صارت ابنتي تحمل جوازاً باسم كريستين ، ويمكنها أن تعبر الحدود دون أن يشك

أحدهم بهويتها الحقيقية وجنسيتها أو مسقط رأسها . أما صديقتها التي كانت على خلاف مع عائلتها فقد كانت سعيدةً بالتخلُّص لبعض الوقت من كنية خانقة وانتحال شخصية فتاة مسلمة ويهودية معاً .

أجل ، بالضبط ، مسلمة ويهودية ! فوالدها مسلم ، على الورق مبدئياً ، وأمها يهودية من الناحية النظرية على الأقل . وفي الدين الإسلامي ، يُتوارث الدين عن طريق الأب ، وعند اليهود ، عن طريق الأم . وبالتالي ، كانت ناديا مسلمةً بالنسبة إلى المسلمين، ويهودية بنظر اليهود ، أما هي فكان بوسعها أن تختار هذا الدين أو ذاك ، أو لا واحد منهما ، ولكنها اختارتهما معاً ... نعم ، الإثنين معاً كما اختارت أشياء أخرى . وكانت فخورةً بكل هذه السلالات التي أفضت إليها ، معتزَّةً بدروب الفتوحات أو الهروب القادمة من آسيا الوسطى والأناضول وأوكرانيا وشبه الجزيرة العربية وبسَّارابيا وأرمينيا وبافاريا ... ولم تشأ انتقاء قطرات دمها ولا أجزاء روحها !

كان عام ١٩٦٨ ، وربيعه محموماً وحماسياً بالنسبة إلى الطلاب الفرنسيين كما قيل لي . غير أن ناديا لم تفكِّر سوى بالرحيل إلى هذا الشرق الذي تمقته . وقد حصلت على سمة دخول، وبطاقة سفر وحجزت في الفندق تحت إسم صديقتها .

غداة وصولها إلى بيروت ، أقلتها سيارة أجرة إلى مصح الطريق الجديدة . لم تكن تملك أية وسيلة للتأكد من وجودي هناك ، ولكنها افترضت أنني لم أبارحه .

استقبلها المدير في مكتبه وعرَّفت عن كنيتها المنتحلة . وعلى الفور ، سألها دوَّاب فيما لو كانت تنتمي إلى عائلة الصاغة

المشهورين ، فأجابت : " نعم " بالتجرُّد المطلوب دون زيادة أو نقصان كما تفعل كريستين عندما تسأل السؤال نفسه . وأردفت ابنتي قائلةً : " إن الأمر يتعلَّق بعائلتي تحديداً ، والموضوع دقيق ، ولكنني أفضل الحديث دون لفٍّ أو دوران .

لقد عاشت إحدى عماتي في لبنان منذ بضع سنوات ، وسمعت كل التقدير عن مؤسستك ، وهي التي أشارت عليَّ بزيارتك بشأن والدي ، فهو يعاني منذ سنوات عديدة من ... اضطرابات عقلية خطرة ويعالجه أخصائيون ..."

– من ، على سبيل المثال ؟

كانت ناديا قد حضَّرت المقابلة جيداً فذكرت بعض الأسماء المعروفة ، وهزَّ المدير رأسه موافقاً وطلب منها أن تتابع الحديث :

– إننا نعتقد بأن الإقامة في الخارج قد تفيد والدي وكل العائلة. فنحن عائلة معروفة كما تعلم ، وسمعة مؤسستنا على المحكّ ، ووالدي يدرك ذلك . لم أصارحه بعد بفكرة علاجه هنا ، وأعتقد أنه لن يمانع إذا وجد المصح مناسباً . وأشعر أن لديكم كل ما يرغب به ، الشمس والهدوء والسكينة والعلاج الجيد ، ولذا أتيت لأستكشف المكان الذي سيعيش فيه ، وقبل اتخاذ القرار النهائي ، ربما يجب أن تأتي لمعاينته في باريس ، على نفقتنا ، بالطبع ...

انطلت الحيلة ! واقترح الطبيب دوَّاب بنبرة معسولة أن يرافق الوريثة الغنية في جولة على مؤسسته النموذجية .

ولتكوين فكرة أولية ، بدأ بنزهة في الحديقة التي تشرف على الجبل ، وتطل على البحر القريب ، ثم انتقل معها في جولة على الأجهزة الطبية التي بدت جديدة خصوصاً أنها لا تستخدم إلا نادراً ،

ثم اصطحبها إلى الغرف ، وتحديداً غرفة لوبو الذي كان يعزف على البيانو ، ومن ثم القاعة الكبيرة المزينة بنباتات خضراء حيث النزلاء الذين لم يألفوا مثل هذه الزيارة ، توقفوا عن لعب الورق واقتربوا من الزائرة ، فقال لها دوّاب : " لا تخافي ، لن يصيبوك بأذى ! " .

طمأنته ناديا وحاولت الحفاظ على هيئة رصينة لمفتّشة دقيقة، نظرت يساراً ويميناً ، إلى أعلى وإلى أسفل ، كما لو أرادت التحقق من عدم وجود غبار في زوايا هذه القاعة الشديدة النظافة . وفي الواقع ، يسعنا أن نتخيّل المشاعر التي كانت تتأجج في قرارة نفسها بينما عيناها تبحثان وسط هذا الجمع من المعتوهين عن الوالد الذي لم تلتقيه قط .

في ذلك اليوم ، لم أكن ألعب الورق ولا الداما ولا النرد ولا شيء . تحدّثت قليلاً ، بتكاسلٍ ، مع لوبو الذي ذهب بعد ذلك ليعزف على البيانو ، وتناولتُ كتاباً استغرقت في قراءته ، وحين وصلت الزائرة ، وحدث هذا الهرج والمرج ، لم أقترب مع الآخرين ، واكتفيت برفع رأسي ، بعد هنيهةٍ ، دون أن أبارح مكاني ، لأنظر إلى الغريبة .

تلاقت أعيننا . من تكون هذه الشابة ؟ لم تكن لديّ أدنى فكرة. أما هي فقد تعرفّت عليّ . كنت أشبه صوري القديمة ، وجمدت نظراتنا ، وكانت دهشتي تنبع من الفضول والضيق بسبب هذه الزائرة الغريبة التي جاءت تراقبنا كما لو كنا حوض أسماك .

لا بدّ أن الإمتعاض ظهر جلياً على وجهي مما دفع بدوّاب للتعليق ضاحكاً ، كما لو أراد الاعتذار :

- لقد أقلقنا قراءته !

وفي الوقت نفسه ، حدجني بنظرة قاتلة ، ثم أضاف :

– هذا السيد لا يفعل سوى القراءة ، من الصباح إلى المساء، فهو شغوف بها .

لم يكن يقول الحقيقة بالضبط ، فقد قام بتجميلها للتأكيد على مستوى المؤسسة الثقافي .

وقالت ناديا : "إذا كان الأمر كذلك ، فسوف أهديه هذا الكتاب ، لقد انتهيت لتوي من قراءته".

وإذ فتحت شنطة يدها ، اقتربت مني ، فاعترض الطبيب قائلاً : " لاداعي لذلك ..." .

ولكنها أصبحت على مقربة مني ، ولمحتها تدسُّ شيئاً في الكتاب قبل أن تناولني إياه .

ثم عادت إلى دوّاب الذي اغتصب ابتسامةً . فتحت الكتاب وكنت لا أزال مدهوشاً . لم أقرأ العنوان ، ففي أعلى الصفحة ، إلى جهة اليمين ، فوق إسم الكاتب ، كان إسم صاحبته مكتوباً : ناديا ك .

نهضت على الفور ورمقتها باستغراب ، فقد اكتشفتُ فجأة في وجهها ملامح كلارا ، وأدركت ، في تلك اللحظة ، أنها ابنتي، وشعرت أن دوّاب يجهل هويتها . فاقتربت منها ، حريصاً على ألا أفضح أمرها ، ولكنها ، حين رأتني أدنو منها كرجل آلي ، أصابها الذعر إذ أدركت أنني تعرفت عليها وخافت أن أفسد خطتها.

اقتربت منها قائلاً : "شكراً ! " مشيراً إلى الكتاب .

مددت لها يدي فأمسكت بها ، وصافحتها بحرارة مردِّداً : "شكراً ! شكراً ! شكراً .! " دون أن أستطيع التوقف .

وبرَّر المدير حركتي بضحكة عصبية : " لقد تأثَّر لهديتك ".

واقتربت أكثر من ناديا لأقبّلها .

فصرخ دوّاب : " يكفي ، لقد تجاوزت الحدود ! ".

غير أن ناديا التي كانت تجهد للحفاظ على رباطة جأشها ، بادرت قائلةً :

- دعه ، لا بأس !

وعانقتها لوهلة قصيرة ، وتنشقت عطرها ، ولكن ها هو دوّاب يفرّق بيننا .

أما هي ، وإذ كانت مصمّمةً على عدم افتضاح أمرها بفيضٍ من العواطف ، فقد ابتعدت عني قائلةً :

- كم هو مؤثّرٌ هذا السيد .

ثم أضافت - وكان الموقف يحتاج إلى الجرأة ! - مخاطبةً الطبيب :

- والدي أيضاً مولع بالقراءة ، وسوف أروي له ما حدث فأنا متأكدة أنه سيتصادق مع هذا المريض .

وفي الواقع ، كانت تخشى أن يعاقبني الطبيب لسلوكي ويحاول ، مثلاً ، مصادرة الكتاب ...فأصرّت زاعمةً ، كما علمت لاحقاً ، أن هذا الموقف المؤثر قد جعلها تحسم أمرها ، وأنها باتت على ثقة أن لا مؤسسة أخرى سوف تلائم والدها ، أي والدها الصائغ طبعاً ...

كان دوّاب منتشياً ... أما أنا فقد نجوتُ وكذلك الكتاب ... والرسالة التي دسّتها بين صفحاته . سارعت في إخفائها بين ثيابي ، ثم ذهبت إلى المرحاض ، ومزّقت الصفحة الأولى ، فالحذر كان واجباً ... وعلى الظرف ، قرأت اسمي ، فناديا لم تعتقد أنها سوف

تجد الفرصة لتسلّمها لي شخصياً ، وربما عهدت بها ، في أفضل الأحوال ، إلى مريض جدير بالثقة على أمل أن يقوم بذلك .

ماذا تقول الرسالة ؟ الكلمات التي أحتاجها لترد إليَّ الروح:

" أبي ،

أنا ابنتك التي أبصرت النور في غيابك ، الطفلة التي تحتفظ بصورتها قرب قلبك ، والتي كبرت بعيداً عنك . بعيدةً ؟ فما يفصلنا ، في الحقيقة ، بضعة كيلومترات على طريق ساحلي رائع، غير أن حدوداً بغيضة انتصبت بيننا، وكذلك الحقد وعدم التفهُّم والأفكار الضيقة .

قبل ولادتي ، واجهت أنت وأمي الحرب والضغينة ، وكانت ضغينة جامحة ، غير أن أمثالكما تمرَّدوا وانتصروا عليها في نهاية المطاف. إن الحياة تهتدي السبيل دائماً كالنهر الذي يحيد عن مجراه ، فيمهّد لنهر آخر .

لقد تمرَّدتم واخترتم أسماء حركية لتضليل القدر . أما أنا ، فمعركتي ليست بهذا السمو ، ولكنها معركتي وسوف أخوضها بنجاح. وقد اخترت بدوري إسماً حركياً لتذليل العقبات وعبور الحواجز ، لأراك وأقول لك فقط : " إعلم أن لك إبنة في الخارج ، وأنت أغلى ما لديها في هذا العالم ، وهي تنتظر بشوق لحظة لقياك".

نزلت هذه الكلمات البسيطة عليَّ برداً وسلاماً ، فقد أعادت إليَّ كرامتي كرجل وأب وكذلك الرغبة في الحياة . لم أعد أكتفي بعدِّ الساعات المتثاقلة التي تفصلني عن غدٍ يخلو من المفاجآت . كان هناك حبٌّ في انتظاري . وحتى لو لم أعد إنساناً يجدي نفعاً ، فسوف

أحافظ على هذا الإنسان وأجمّله من أجل ناديا . كنت أشعر تجاه ابنتي بحبٍّ مراهق . ومن أجلها ، كنت أريد أن أعيد باكو إلى الحياة والحرية ، باكو الذي كان موضع الحب والإعجاب ، كنت أريد أن أكون لها من جديد الأب الذي تفخر بالتنزه معه وهي تتأبط ذراعه .

أما بعد ، فلم يكن يكفي أن أرغب بالمصالحة مع الحياة لتتمَّ هذه المصالحة . لم يكن وضعي أشبه بوضع رجلٍ فكَّر بالإنتحار ، وجاءت ابنته لتمسك بيده قائلةً : " أبي ، هذه الحياة التي ترفضها ، حافظْ عليها ، على الأقل من أجلي ! " ، فقررَّ العدول عن محاولته ، بل كان وضعاً أكثر تعقيداً . كنت بالطبع أدرك ما يحصل لي وأشعر بالسعادة . غير أن كلَّ شيء تراءى من خلال غشاوة ، غشاوة ذهني المشوَّش والصدىء بسبب عشرين عاماً من الاستلاب القسري حتماً، ولكنه استلاب قبلت به مغلوباً على أمري ، عشرين عاماً من المخبِّلات التي تجرَّعتها بكميات كبيرة كل صباح ، عشرين عاماً من الإرادة الضامرة ! عشرين عاماً من تثاقل الفكر والنطق وخدرهما .

ومرة أخرى ، لم يكن الأمر يتعلَّق بالعدول عن فكرة الموت فحسب ، والتوقف عند شفير الهاوية، ثم وحين يهمُّ المرء بالقفز ، يحجم ويتراجع ويمسك مرتعشاً اليد الدافئة التي تمتدُّ له . لم يكن الأمر بهذه البساطة .وإذا أردتُ إعادة هذا المشهد ، أرى نفسي على شفير الهاوية ، لا على اليابسة بل على حافة رصيف حجري ضيق ، بعد أن شربت زجاجة من الويسكي ، ولا يكفي في حالتي أن أتراجع، لأنني قد أقع في الهاوية معتقداً أنني أمضي نحو الخلاص . ففي بادىء الأمر ، يجب أن أصحو من سكرتي وأستعيد وضوح الرؤية وصفاء الذهن لأعرف أين أضع قدمي في كلّ خطوة ...

هذا في ما يتعلّق بي ، ولم أكن وحدي معنياً بل كذلك الأشخاص الذين احتجزوني ، كشقيقي الذي لا يرغب أن أستعيد منزل كتبدار وحصتي في الميراث ، ودوّاب الذي كنت أمثِّل بالنسبة إليه مصدراً للرزق وأداةً للسيطرة ... ولا يجب إثارة شكوكهما طالما بقيت تحت سيطرتهما بل توخي أقصى الحيطة والحذر .

فعلى سبيل المثال ، كان يجب أن أتحايل وأتخلّص من الأدوية الممزوجة في القهوة الصباحية لاستعادة وعيي . لم تكن الرقابة مشدَّدة كل يوم ، وببعض الجهد والإرادة والتسلسل المنطقي، يمكنني أن أحقِّق غايتي .أما لو أقلعت فجأة عن تناولها ، فسوف تقع الكارثة ، ففي غضون ثمانٍ وأربعين ساعةً ، سوف تظهر عليَّ علامات التوتر الشديد ويفتضح أمري ، وقد يقرِّر الطبيب إعطائي المسكِّنات نفسها عن طريق الحقن، وتشديد الرقابة عليَّ .

أما الموقف الحكيم الوحيد فيقتضي تخفيض الجرعات تدريجياً ، وقد لاحظت أن طعم الدواء في "قهوة" الصباح أقوى في الجرعات الأخيرة .ولذا ، طوَّرت أسلوباً يقوم على إبقاء الثمالة في فمي ثم بصقها لاحقاً في المغسلة . وفي غضون أسابيع قليلة ، تحسنت حالتي ، وأصبح ذهني أكثر صفاءً . كنت أشعر بهذا الصفاء حين أقرأ وأراقب تصرفات الآخرين ، وأحسُّ إحساساً غريباً كما لو أنني استبدلت حواسي المهترئة بحواس كائن جديد ، أو اكتسبت حاسةً إضافية .

والشيء الذي اكتشفته لدى استعادة حواسي هو أن الممرضين والممرضات معتادون على تبادل التعليقات في حضور المرضى ، بعضها علمي بحت ، والبعض الآخر مجرَّد تهكم لاذع،

يتفوّهون بها بسرعة فائقة بتورية وإيجاز . وطالما كنت تحت تأثير الشراب اللعين ، لم أكن أعي ما يقولون ولا أفقه كلمة واحدة . أما الآن ، ومع بعض الجهد ، صرت أفهم كلامهم ، وأسمع أحياناً ألقاباً غريبة تقترن بالمرضى أو معلومات مقلقة حول الوضع الصحي لهذا المريض أو ذاك ، وحتى رهانات مرحة حول وفاته الوشيكة ، ولكنني حرصت على عدم الرد أو الإنفعال .

لم أخطِّط لشيء في الواقع ! لا مشروع فرار ، لا شيء من هذا القبيل بل حاولت استعادة صوابي فحسب و لملمة ذاتي قليلاً للردّ على ابنتي عندما تتصّل بي .

بلى ، ثمة شيء آخر ، فقد صرت أقوم بتمارين لتنشيط الذاكرة . وذات يوم ، كنت أقرأ ،كما صرت أفعل في أغلب الأحيان ، رواية مغامرات قديمة مترجمة عن البولندية ، الحبكة فيها بارعة ، وأنا أتشوَّق لمعرفة تطور الأحداث . رحت أقلب الصفحات بسرعة متزايدة . وفجأةً ، إذ رفعت رأسي ، فوجئت بالممرضة تنظر إليَّ نظرة استغراب . لقد تخليَّت عن بطئي المعهود وغدت حركاتي نشيطة وعصبية وحيوية ، وقد لاحظت المرأة ذلك . استمرَّت تحدِّق بي كما لو أرادت التيقُّن من الأمر قبل إبلاغ الطبيب . فأرغمت نفسي على إبطاء وتيرتي وقراءة بعض الفقرات مرتين . وهكذا ، خطر ببالي أن أحفظ عن ظهر قلب جملاً بحالها ، ولا أدري إذا كانت هذه الطريقة مفيدة "لإعادة تأهيل عقلي " غير أنها ساعدتني على استعادة الثقة بقدراتي .

بلى ، بلى ، لا بدَّ أنك فهمت قصدي ، فهذه المرأة كانت ستشي بي إلى دوّاب لمجرَّد أنني أقرأ بصورة طبيعية ! فالفكرة التي كانت سائدة في المصح هي أن المرضى جميعاً مضطربون بالقوة مما يخفي نوبات عنيفة كامنة . وطالما يتم العمل على " إبطائهم " فلا خوف من حدوث ذلك ، وكل حركة عنيفة ، كل علامة اضطراب ، تنذر بوقوع نوبة عصبية بالفعل .

كان يجب أن أتوخَّى الحذر بانتظار ناديا أو إشارةٍ منها . وأفترض أن ابنتي ، من جهتها ، لا تتمنى سوى إنقاذي . ولكن ما السبيل إلى ذلك ؟ فالتسلل إلى داخل سجني لرؤيتي شيء ، ومساعدتي على الفرار شيء آخر .

كانت فخورة جداً بنجاح مهمتها وبأنها احتالت على مدير المصح طوال الوقت الذي استغرقته زيارتها ، وتمكنت بأعجوبة من تسليمي شخصياً رسالتها والتحدث إليَّ ومعانقتي وتقبيلي . لقد قبَّلتني كما نقبِّل شخصاً غريباً ، بل أسوأ من ذلك ، كما نتنازل ونعانق شخصاً متطفِّلاً ، ولكنها كانت قبلتنا الأولى ! ها أنا أتحدث عنها كأنها حبيبتي ! قبلتي الأولى لابنتي ، القبلة الوحيدة خلال عشرين عاماً ! بقيت متأثراً لأسابيع عديدة بعدها ! وحتى الساعة ، عندما أستحضر تلك اللحظات ... أعذرني ! أين كنت ؟

آه ، أجل ، كنت أتحدث عن مشاريع ابنتي ... لقد تمت زيارتها على أكمل وجه ، حتى اعتقدت بأن كل حيلها سوف تنجح، وأمضت الأسابيع اللاحقة تضع أكثر الخطط جرأةً ... خططاً لاختطافي ! وخلصت إلى أن الحيلة لا تكفي ، ويجب اللجوء إلى

وسائل أخرى . نعم ، الخطف ! يا لابنتي المسكينة ، كانت عاطفتها تعمي بصيرتها !

ومن جديد ، قصدت برتران علّه يساعدها . لم تقابله منذ عودتها ، وراحت تطلعه على زيارتها إلى المصح ولقائها بي . وقد أصغى إليها بتعاطف في بادىء الأمر بل وبإعجاب . كان يرى شبابه وشبابي وشباب كلارا في حركات ابنتي ونبرة صوتها ، وإذ تشجعت وكشفت له عن خطتها الجديدة ، تجهَّم وجهه، وقال لها :

- ما قمتِ به حتى الساعة يشرّفك ، ويمكن أن تشعري بالفخر ، فأنا بدوري ، بصفتي صديقاً قديماً لوالديك ، لا أقدر أن أمنع نفسي من الشعور بالاعتزاز . ولكن ، حذار ! فما تخبرينني عن والدك يذكّرني، وبصورة محزنة ، بلقائي الأخير معه . ولا أكون صديقاً إذا أخفيت انطباعاتي الحقيقية في مسألة بهذه الخطورة: لقد تداعى والدك ، وبات يعبرّ عن عواطفه بحركات ودودة أو بالبكاء ، ولكنه عاجز عن الذهاب أبعد من ذلك . هل قال لك شيئاً ؟

- لم يقل سوى : "شكراً ! " ، ولم يكن بوسعه أن يقول المزيد لأن الطبيب كان يراقبه يجب ألا يفتضح أمره !

- هذا ما تقومين بتبريره كشابة متفانية وشهمة . وللأسف، فالحقيقة هي غير ذلك . لقد قابلت والدك وأمضيت ثلاث ساعات إلى جانبه ، وكان يعرف أنه يستطيع الكلام بحرية ، ولو قال لي : "إصطحبني معك " ، لرحل فوراً برفقتي وبرفقة السفير ، ولما تمكن شقيقه الأفاق من الاعتراض . ولكن لا ، لم يتفوّه عصيان بكلمة واحدة. وحين اقتربت منه يائساً ، وأنا أهم بالانصراف ، كان يملك

الوقت الكافي ليقول لي ما يريد ، إذ كنا وحدنا ، ومع ذلك ، لم يقل شيئاً . اكتفىبإخراج صورتك من جيبه ، وكانت حركته عاطفية ومؤثرة ، ولكنها حركة إنسان محطَّم .

عندما أخبرتك ما حدث في المصح ، وإذ رأيتك قبالتي ، شابة في العشرين من العمر ، لم تنعم برؤية والدها قط ، اغرورقت عيناي بالدموع . لا شك أنك شعرت بتأثر بالغ أكثر مما شعرت . لقد ذهبتِ لتقبيله ولتقولي له إنه حاضر أبداً في بالك . هذا رائع ، وأنا أثني على تصرفك . ولكن يجب أن تنظري إلى الحقيقة ، هذا الرجل أصبح حطاماً ، أكرِّر ذلك . إنه أمر محزن وغير عادل إطلاقاً ، ولكنه الواقع . عندما رأيته آخر مرة ، لم أتعرف عليه . كان يعبر عن عواطفه بالدموع والبكاء أو المعانقة، ولا شيء غير ذلك . ولا ريب أن السنوات الستة عشر التي أمضاها في هذا المصح لم تحسِّن وضعه .

لا أريد حتى أن افكِّر بالمخاطر التي كانت تحيق بك عندما نفذت خطتك . أنت لا تهابين الخطر وأنا كذلك ، وأرجو أن تصدِّقي كلامي . ولنفترض أن اختطاف والدك سيجري كما تتوقعين، وأنك ستتمكنين من إخراجه من هذه المؤسسة دون أن يلقى عليه القبض ويحتجز تحت المراقبة المشددة . وسأذهب أبعد من ذلك ، وأفترض أنه ، خلال شهر ، سيكون معنا في هذه الشقة ، جالساً على هذه الأريكة ... ماذا سيحدث ؟ سوف تدركين حالته وتضطرين بنفسك لاحتجازه من جديد في مصح ، فثمة مشاكل طبية ونفسية وفيزيولوجية لا يكفي إخلاص إبنة وصديق لتسويتها . تكونين قد سلختيه عن مصح له فيه عاداته وأصدقاؤه لاحتجازه في مصح آخر

قد لا يحظى فيه بالرفق والعناية ، ويعيش فيه في ظروف أقل إنسانية...

انصرفت ابنتي ثائرةً ، ولكن تصميمها تزعزع ، والكلمات التي سمعتها لتوها انطبعت في ذهنها .

وفي حين كنت أعود إلى رشدي وأنتشل نفسي من الحضيض، متعلِّقاً بوعدها عدم التخلي عني ، كانت هي – دون أن تعترف بالأمر صراحةً ، على ما أظن – قد عدلت عن خطتها . لم أكن قادراً على معرفة نواياها من الموقع الذي كنت فيه . كنت مقتنعاً أنها ستظهر من جديد يوماً وأردت أن أكون مستعداً للقائها .

عشت بانتظار ناديا . وطوال سنوات عديدة ، تساءلت كل ليلة ، قبل الخلود للنوم ، إذا كنت سأراها غداً ، وكيف ستتخفًى ومن سيساعدها في مهمتها .

غير أن الغد الذي كنت أرتقبه قد ولًى.

لا لم تعد ابنتي لزيارتي أبداً . وأنا لا ألومها ، فلماذا تعود ؟ لإنقاذي ؟ لقد أنقذتني أصلاً ، ونطقت بالكلمات الشافية . كنت أستعيد صوابي وأتسلق ببطء جدران هاويتي الداخلية ، وأصارع ! أصارع لتبديد الغشاوة واستعادة بصيرتي ، وترميم ذاكرتي ، وإحياء رغباتي وإن تعذَّبتُ لعدم قدرتي على إشباعها ... كانت معركة أخوضها بمفردي .

وقد خضتها بحكمة مضاعفة ، فثابرت على مراقبة رفاقي في المحنة لمحاكاة تصرفاتهم وعاداتهم ، إذ صرت أدرك يوماً بعد يوم أن

لا شيء ، لا شيء حقاً كان مماثلاً بين حالة التخدير وحالة اليقظة . وهكذا، عندما كنت أتكلّم ، لم يكن إيقاع الكلام أو النبرة أو " التأوهات" التي تختفي ، هذه الأصوات التي تطيل الجمل والمفردات والحروف بل كانت مفرداتي هي التي تتحوّل ، فثمة كلمات ينساها المرء عندما تتخدّر الرغبات التي تدلُّ عليها . كل شيء يتغيّر ، الكلام والنظرة وتعبير الملامح أو جمودها عند تناول الطعام ، بالإضافة إلىجملة من التفاصيل الدقيقة الأخرى التي تميّز الشخص الذي ابتلع طوعاً في الصباح جرعة من المهدّئات عن الشخص الذي يحاكيه .

بالرغم من ذلك ، لم أفكِّر بالهروب ، أو ليس بعد . فما نجحت في إستعادته كان ثميناً جداً لأبدّده بنفاذ صبري . فكيف أهرب؟ هل أختبىء في صندوق شاحنة لتسليم البضائع ؟ هل أقفز من فوق السور وأركض أسرع من الحراس ؟ لا ، لم يكن بوسعي أن أنتهز فرصتي بهذه الأساليب .

كنت أفكِّر بالرحيل كل يوم والابتعاد عن المصح والذهاب إلى مكان آخر . نعم ، كنت أتوق لذلك ، غير أنني لا أريد القيام بحركة جسدية للفرار والقفز فوق حاجز ، لا ، كنت أنتظر ابنتي...

تسألني ماذا فعلت عندما لم تأتِ ؟ وسؤالك يتضمن الجواب. لا يوجد وقت لعدم المجيء ، فحين ننتظر بإيمان وحرارة، ونقتنع ، مع مرور الوقت ، أن اليوم الموعود قد اقترب . هل مرت سنة ؟ لا بأس ، فيجب سنة من التحضيرات ...هل مرت سنتان ؟ لا بد أن قدومها أصبح وشيكاً ...

كما أن الوقت في المصح لا ينقضي كما في الخارج . فلا أحد منا يحسب الأيام كما يفعل السجناء على جدران زنزانتهم . كنا

نعيش في الإقامة المؤبدة ، نقضي حكماً مؤبداً من الأيام المتشابهة، فما جدوى أن نحسب عدد الأيام ؟

الليلة الأخيرة

الليلة الأخيرة

كانت الساعة الحادية عشرة أو الحادية عشرة والنصف ليلاً، وقد شعرنا بالجوع وبالحاجة للتمتع بقسط من الراحة ، فنزلنا لتناول حساء البصل في حانة تفتح أبوابها ليلاً .

خلال العشاء ، إذ خيَّم الصمت بيننا لبرهة ، أخرج ـ ـصيان من جيبه الداخلي مفكَّرةً قديمة من الجلد الأحمر ، أنيقة وطويلةً ، من تلك المفكَّرات التي تغلق بلسان مذهَّب .

ناولني اياها لأتصفَّحها .

- لقد دوَّنتُ فيها بعض الخواطر في الفترة الأخيرة من إقامتي في المصح .

قلَّبتُ الصفحات ، كانت بمعظمها بيضاء ، وبعضها يحتوي سيلاً من الجمل المنثورة دون عنوان أو قافية أو تنقيط ، وقد نسخت بعض الأسطر بعد موافقته :

أوصدت أبواب الجنَّة ورائي ولم أنظر إلى الخلف
يمتدُّ ظلُّ قدميَّ على الطريق بكاملها حتى الجدار
أمشي على ظلِّي في جفنيَّ المغمضين كسفن من الدماء على طرقات الأناضول
أذكر داراً أكثر بهاءً حجارتها رملية ونوافذها سراب
في أذنيَّ طنين المدينة ، الطنين اللطيف لبرج بابل
فيما مضى فيما مضىعلى مشارف الصحراء في واحة الشعوب المندثرة
فيما مضى فيما مضى سلالم السماء فيما مضى وعصر الحماس فيما مضى والمستقبل

ثم عدنا إلى الفندق . كنا منهكين غير أن الوقت يداهمنا ، ويجب أن نبذل هذا الجهد الهائل الأخير . وقال لي مطمئناً :

- لم يبقَ سوى جزء صغيرمن الرواية. أصل إلى السبعينيات .

في الخارج ، بدأت تجري بعض الأحداث التي تتاهى ضجيجها إلى مسامعنا ، وأعني بالضجيج دويَّ المدافع والإنفجارات وأزيز الرصاص وصفارات سيارات الإسعاف .

لم تندلع الحرب بعد بل بوادرها الأولى، بعض نوبات العنف التي تتصاعد وتتكاثر . في الخارج ، ربماكان الناس يفهمون ما يجري ، أما نحن فلم تصلنا سوى الأصداء .

غير أن هذه الأصداء كانت تثير قلقنا . هل حدَّثتك عن المريض الملقَّب " سكين" ؟ لا أعتقد . من بين كل رفاقي في المحنة التي عشتها ، لم أذكر حتى الساعة سوى لوبو ، على ما أظن...و"سكين" هذا كان نقيض لوبو الذي هو من أكثر الكائنات رقةً وأقلهم شراسةً ، بل يخيَّل لي أحياناً أنه قبل الدخول إلى المصح لأن أهله ألحُّوا عليه ولم يشأ مضايقتهم . كان يعتبر أن العالم ليس له ، أو أنه لم يصنع لهذا العالم ، وأنه تأخر أو أبكر في المجيء إليه ، أو جاء في المكان غير المناسب أو عرضاً ... وباختصار ، انسحب دون إحداث ضجة ، ولم يكن يطلب من الحياة سوى أن يعزف بين الحين والحين على البيانو .

أما سكين فكان وضعه مختلفاً . لقد سلك " مسلكاً "مغايراً، إذا جاز لي القول، ودخل المصح بعد أن اقترف جريمة قتل . ففي أحد الأيام ، وخلال نوبة جنون ، راح يركض في الشوارع مسلَّحاً بسكين جزّار ، وجرح عشرات المارة ومن بينهم امرأة ماتت متأثرة بجراحها ، قبل أن يلقوا القبض عليه . وقد دافع المحامي عن موكِّله وتحجَّج بعدم مسؤوليته عن الحادث ، فاقتنعت المحكمة بهذا الدفاع واحتجز سكين بضعة أشهر في مؤسسة حكومية قبل أن تنقله عائلته إلى المصح النموذجي الذي يملكه الطبيب دوَّاب . كنت تخال حين ترى شفتيه ترتعشان أنه يشعر بالرغبة في القتل ، ولكن، بفضل المهدِّئات وأعتقد أنهم أعطوه جرعةً أكبر من جرعتنا – خمدت نزعاته الإجرامية .

ولئن تحدَّثت عنه الآن ، فلأنه بدأ يسلك في تلك الفترة سلوكاً مثيراً للقلق . لم يكن سلوكاً عنيفاً يعجز الطبيب عن علاجه بل كان نوعاً من البهجة الصامتة .فكلما تناهى إلى مسامعنا صوت إطلاق النار ، ارتسمت البهجة على وجه سكين كما لو أنه تبلَّغ رسالةً مرمَّزةً من أحد زملائه في الخارج ، أو أن العالم الخارجي، بعد أن أساء إليه لفترة طويلة ، ردَّ له الاعتبار أخيراً . كان رجلاً ضخم الجثة ، شعره أحمر وخشن ، عريض العنق ، بارز الفكين . كانت يداه ضخمتين يخال للمرء بهلع أنهما تطبقان على سكين . ولا أعرف إذا كان الآخرون شعروا مثلي بالقلق وهم يرونه يبتسم، ولكن الفريق الطبي المعالج ، في كل الأحوال ، كان يراقبه عن كثب بانتظار أول إشارة لشد وثاقه ، ولكنه لم يحرك ساكناً واكتفى بالابتسام .

عندما اشتدَّت وطأة المعارك ، واقتربت من الحي الذي نسكن فيه ، دخل سكين في نشوة دائمة . كان الآخرون ، المرضى والممرِّضين على حدٍّ سواء ، يعيشون في خوف من اجتياح المصح الذي كان أشبه بالقلعة ، بأسواره المتينة والعالية وسطحه الذي تنتشر فيه أبراج مراقبة . فقد ترغب كل من العصابتين المسلحتين في الحي تحويله إلى معقل أو مقر عام ، أو قد يفكر بعض العناصر المسلَّحة بنهبه . ألا يفترض أن يحوي مأوى المجانين الأثرياء هذا علىنفائس، أو أقلَّه علىخزنة مليئة بالأموال، وبعض الأشياء الثمينة؟ ولدرء هذا الخطر ، كان دوَّاب يدفع لزعماء العصابات في الحي "ضريبة حماية" .

أعتقد أنني ذكرت بأن نزلاء المصح لا يثقون " بالخارج" ولا بالناس في "الخارج" . وقد عززَّت الأحداث الجارية ريبتهم وشكوكهم. وإذا كان سكين وحده يشعر بالإنتصار ، فالعديد منا كانوا يهزون رؤوسهم وقد ارتسم على وجوههم تعبير متشائم كما لو أرادوا القول: "كنا نعرف أن الأمور ستنتهي على هذه الشاكلة!".

ومن بين المرضى ، كنت وحدي مرتاعاً ، ولسببٍ لايمكن لأحدٍ أن يفطن إليه باستثناء لوبو الذي صارحته بمخاوفي ، فحاول أن يهدِّىء روعي . كنت أخشى أن تعود ناديا لتنقذني بعد أن تسمع بما يجري خوفاً على حياتي . لا ، لم أكن أريدها أن تجازف بالمجيء قبل أن يستتب الهدوء .

وأنا أعرف اليوم أنها لم تكن متفرغة لخوض هذه المغامرة ، فقد تعرَّفت إلىشاب وتزوجا حديثاً، ثم ذهبت لتعيش معه في البرازيل، وحين كنت أخشى أن تقدم على عمل جنوني ، كانت هي حاملاً

وتعيش في الضفة الثانية من المحيط الأطلسي ... وقد علمت ، منذ بضعة أيام ، أنها قررت تسمية إبنها ، باكو ، سواء كان ذكراً أم أنثى، فبهذه الطريقة ، شاءت أن تخلِّد ذكراي ، ولكنها عدلت عن المغامرات والخطط العجيبة ...

وخيراً فعلتْ ، ذلك أن الأوضاع بدأت تتدهور حول المصح. فقد حصلت الميليشيات على أسلحة أكثر دوياً ، ولم يعد بإمكاننا لا النوم ولا تناول الطعام ولا القراءة ولا لعب الورق كما في السابق . وصرنا نصيخ السمع ، وكلما انطلقت قذيفة ، كان دويُّها يجعلنا نصرخ هلعاً ويزعزع كياننا .

ثم اختفى دوَّاب في أحد الأيام . فخلال هدنة قصيرة ، رآه البعض يركب سيارته وينطلق بسرعة . وأعتقد أنه أخطر معاونيه لأن كل أفراد الفريق المعالج اختفوا بدورهم في ذلك المساء . وقد قرَّروا ألا يعلموننا نحن المرضى بشيء ، وأحاطوا الأمر بالكتمان، وربما اعتبرونا عبئاً ثقيلاً ولم يصارحوننا بالحقيقة خوفاً من ردَّة فعل لا تحمد عقباها . وبالتالي ، تركونا لحالنا .

وعندما تنبهنا للأمر ، كان الوقت ليلاً ، وإطلاق النار قد استؤنف . وإذا كان المصح قد بقي بمأمن من الاجتياح حتى الساعة، فذلك لأنه يقع في المنطقة الفاصلة بين عصابتين متناحرتين تتقاتلان بشراسة لأن كل واحدة تريد الاستيلاء على المصح قبل الأخرى . كانت كل الدلائل تشير إلى أن الأيام المقبلة سوف تكون مرعبة ، وكذلك نهار الغد الذي سيبدأ دون الشراب المشؤوم . كان مشؤوماً، بلى ، ولكنه ضروري للأسف ، فأنا لم أجرؤ على تصوُّر ما سيحدث

عندمـا يسـري الجنـون فـي المرضـى، الواحـد تلـو الآخــر ، بعـد أن يفطموا فجأة عن المهدّئات التي يتناولونها عادةً .

لن أنسى ما حييت تلك الليلة . كنا نقف على شرفة ذات أعمدة في الطابق الأول ، وهي مخصَّصة عادةً للطاقم الطبي . جلست فيها مع لوبو ثم تبعنا الآخرون ، مجرجرين مقاعدهم .

كان الظلام دامساً والعيارات النارية تمرُّ فوقنا كأنها مذنَّبات صفراء ، حمراء ، ثم صفراء وخضراء، ونحن نتابعها بأعيننا . وبين الحين والآخر ، تلمع السماء وتبرق ويسمع دويُّ الانفجارات . لم أستطع أن أشيح بنظري عن وجه "سكين" ، وأتساءل إلى أيِّ مخلوق مرعب سوف يتحوَّل في اليوم التالي ، دون مهدِّئات .

جلسنا على الشرفة طوال الليل . كانوا عادةً يصطحبوننا لتناول وجبة العشاء ، ثم نسهر قليلاً ، ويأخذوننا من بعدها إلى غرفنا قبل إطفاء الأنوار . وبما أن لا أحد قال لنا ما يجب أن نفعل، فلم نفعل شيئاً . لم نبارح مكاننا ، وكنا سنبقى فيه إلى أجل غير مسمًّى دون أن نأكل أو ننام أو نحرِّك ساكناً .

ثم أشرقت الشمس من وراء الجبل ، وتلاشت شرارات النار مع انبلاج الفجر وسكت دويُّ القصف أيضاً . ساد السكون لدقائق قليلة . كان المشهد خلاباً ! فبنظرة واحدة ، كنت ترى التلال والقرى والمدن النائية والخط الساحلي والبحر الذي كانت زرقته ، في ساعة الفجر ، خفيفةً مائلةً إلىالبياض . لا بدَّ أن هناك منازل مدمَّرة في كلِّ مكان ، وجثثاً في الشوارع ، وأعلاماً متسخة على المتاريس... ولكن العين المجرَّدة لا ترى سوى سكون الأفق الرحب والزرقة والخضرة وحتى زقزقة العصافير .

وفجأة ، دوّى انفجار أول ، ثم انفجار ثانٍ وثالث . كان القصف سوف يستأنف من جديد . فنهضت وقلت بصوت مسموع : "أنا ذاهب ". لم يحرّك أحد. ساكناً ، وابتسم سكين ابتسامة عريضة. التفت إلى لوبو ، ونظرت إليه نظرة متسائلة ، فنهض بدوره ولكنه ربَّت على كتفي فقط قائلاً : " حظاً سعيداً ! ". أدار لي ظهره وانصرف . وبعد قليل ، سمعته يعزف كونشرتو فرصوفيا .واشتد القصف ، ومع ذلك ، لم يفلح في التغطية على العزف بل راح يرافقه.

ذهبت إلى غرفتي ، وجمعت بعض حوائجي . لم آخذ حقيبةً ولا شنطةً واكتفيت بالأشياء التي يمكن أن أدسَّها في جيبي ، بعض الأوراق وقليلاً من النقود ومفكّرتي وبعض الأدوية ، ورحلت .

أجل ، رحلت سيراً على الأقدام . عبرت البوابة ومضيت، على حافة الطريق ، مباشرة نحو العاصمة التي تفصلني عنها خمسة عشر كيلومتراً ، لا يفكّر أحد باجتيازها سيراً على الأقدام في الظروف العادية ، ولكن لا شيء كان عادياً في ذلك الصباح . لا أنا ولا الطريق ولا الناس ولا الظروف . مشيت بوتيرتي دون أن أحثّ الخطى ، دون أن أتوقف ، لا أسمع ولا أرى ما يجري حولي . كنت أسير وأنا أنظر إلى طرف حذائي والحصى على الطريق . أمضي وحيداً ، لا مارة ولا سيارات بالطبع ، ففي المباني المجاورة ، كان الناس نياماً أو مختبئين .

ومررت في طريقي على منزل العائلة ، أو ما تبقى منه . دخلت وجلت في أرجائه ثم انصرفت...

- مهلاً !

(ترددت كثيراً قبل أن أفتح هذين القوسين . فقد عاهدت نفسي أن أترك بطلي وحيداً على خشبة المسرح مع الشخصيات التي يذكرها ، ثم اعتبرت أنني قد أخون دوري إذا لزمت الصمت حتى النهاية حول ما يلي : ففي بداية حديثنا ، يوم الخميس ، عندما لفظ عصيان إسم شقيقه ، فوجئت لأنني تذكرت أنني قرأت في الصحيفة ، قبل فترة ، خبراً صغيراً مفاده أن رجل أعمال يدعى سالم كتبدار كان وزيراً سابقاً لفترة قصيرة في الخمسينيات ، وُجد مقتولاً تحت أنقاض منزله الواقع على تلةٍ متنازع عليها قرب بيروت .

كدت أذكر لعصيان هذا الأمر أكثر من مرة ، وأحجمت ، في كل مرة ، معتبراً أنه من الأفضل أن أتركه يثير الموضوع من تلقاء نفسه في سياق الحديث بدلاً من إرغامه على استباق الأحداث. كنت أشعر بالفضول وأتحيَّن هذه اللحظة والكلمات التي سيصف بها المصير الذي آل إليه منزل عائلته وشقيقه الذي يكرهه ، وإذا كان لاختفائهما المتزامن علاقة بمغادرته البلاد .

لا بد أنه سيتحدث عن هذه الواقعة لا سيما وأنه بلغ هذا الحد من روايته . كنت أترقب ذلك، ولكنه ذكر تلميحاً زيارته العابرة إلى المنزل بل مرَّ عليها مرور الكرام . وكان يهمُّ بمتابعة حديثه حين رأيت من واجبي أن أقاطعه :

- مهلاً !

كنت محرجاً أكثر من اي وقت مضى خلال هذه الأيام الثلاثة أو الأربعة التي أمضيتها برفقته . لم أشأ تعجيل الأمور ، ولا تحويل مجرى الحديث ، وأردت أن يأخذ كلامه مجراه الخاص، بطريقة أو

بأخرى ... ومع ذلك ، لم أستطع الاكتفاء بلحظات صمته إلى ما لا نهاية ، فالوقت يداهمنا .

سألته :

- كيف وجدت منزلك ؟

- في حالة دمار ، فقد انهارت جدرانه ، واسودّت بسبب الحريق ، ونخرها الرصاص ...

- لم تمكث فيه طويلاً ؟

- لا . جلت على غرفه وأخذت المفاتيح ثم انصرفت ...

- أي مفاتيح ؟

- كل المفاتيح . أنظر بنفسك !

أخرج من حقيبته شنطة مدرسية قديمة وأفرغ محتواها على السرير . كانت تحوي خمسين مفتاحاً ، بل مئة أو مئتي مفتاحاً نثرها على السرير ، بعضها مجموع في حلقة ، والبعض الآخر منفرد ، ومن بينها مفاتيح فخمة وقديمة الطراز ، منقوشة كما لو أنها منحوتة ... لقد أخذ مفاتيح الخزائن والصناديق والدروج والأبواب الداخلية والبوابات ، وجمع كذلك المفاتيح التي صدئت على مر السنين في علب من التنك ... لم أفهم حاجته لجمعها وحملها معه خلال السفر ، ولكن ضرورة هذا " الإنقاذ " لم تكن تحمل أي شك بالنسبة له فلم أزعجه بأسئلتي .

كانت الأسئلة تتلاطم في رأسي : لماذا لم يحدّثني عن شقيقه؟ هل رآه ميتاً ، غارقاً في دمائه ، أو محتضراً ، وكان المشهد لا يطاق فحاول جاهداً أن يمحوه من الذاكرة نظراً لحيائه المفرط ؟ هل يجهل مصيره ؟ أو هل ... كان الأمر محيراً ، ولكنني، وبدافع الأمانة

للرواية التي أنقلها ، يجب أن أذكر الفكرة التي خطرت ببالي : هل يكون هذا الرجل الواقف أمامي قد قتل شقيقه خلال زيارته العابرة إلى منزله المدمَّر ؟

ونظرت إليه ملياً دون خجل ، وتأملت عينيه الصامتتين ويديه الخمولتين ورأسه الشبيه براس طفل أشيب وشفتيه الهادئتين والمهذبتين ... لا يوحي مظهره بأنه رجل معذَّب ، أو رجل قادر على القتل ببرودة أعصاب . لم أرَ فيه سوى الطهارة والاستقامة ، لم ألمح شيئاً مريباً ، لا شيء سوى رعشة خفيفة في الوجه ، واختلاجات داخلية خفيفة ، وبين الحين والآخر ، نظرات شاردة لم أذكرها بعد ، لاشيء لا تبّرره محنته الطويلة تبريراً مقنعاً ...

لا ، لن أشك فيه واعتبر أن هابيل قد قتل أخاه قايين! وطردت سريعاً من بالي هذه الأفكار القاتمة . كان كل شيء يدعوني للاعتقاد بأنه لم يعرف حتى الساعة مصير شقيقه ، لم يخبره أحد ولا قرأ الصحف بكل بساطة !

وقلت لنفسي : " لننسَ الأمر ! وأرجو ألا يكون قد تنبَّه لحيرتي ، فسوف ألوم نفسي لأنني فارقته بهذه الخاطرة الدنيئة ...

وطرحت عليه سؤالاً أخيراً إرضاءً لضميري :

- ألم تجد أحداً في المنزل ؟

- لا أحد . ثم تابعت طريقي .)

على مشارف العاصمة ، دبَّت الحياة . وصلت إلى ضاحية صاخبة ولكنها آمنة ، أو كانت آمنة في ذلك اليوم على الأقل . قبل سائق سيارة الأجرة أن يقلّني إلى السفارة الفرنسية حيث لفظت الكلمة

السحرية، إسم برتران . ففتحت الأبواب وجرت الاتصالات. وفي اليوم التالي ، كنت في باريس . حالفني الحظ ، فصديقي كان يستعد للسفر إلى اليابان لمدة ثلاثة أسابيع ، وقد أجَّل سفره ثمان وأربعين ساعة لرؤيتي .

التقينا ، وكان يشعر بالحرج لأنه اعتبرني إنساناً هالكاً وأعلن ذلك لبعض الأشخاص ، ولا سيما كلارا ... وكيف ألومه على ذلك ؟ كانت كل الدلائل تشير إلى أن حالتي مستعصية ، وفي كل الأحوال ، ما عدت ألوم أحداً .

أمضيت مع برتران نهاراً طويلاً نتجاذب أطراف الحديث كما في الأيام الخوالي. كانت طائرته تقلع ليلاً ، وحاولنا الاستفادة من الساعات القليلة قبل موعد سفره والتعويض عما فاتنا .أخبرني عن ناديا ومشاريعها وأحاديثهما وزواجها وطفلها ...

ثم أراد الحديث عن كلارا ، فقاطعته إذ لم أرغب معرفة ما عاشته في غيابي ، فلا ريب أنها لم تنتظر وتتحسَّر طوال ثمانية وعشرين عاماً . ولم أرغب بسماع التبريرات والتفاصيل ، الأسماء والتواريخ والأشخاص ...لقد كنا عاشقين ، وفرّقت بيننا ظروف خارجة عن إرادتنا ، ولا وقت لديَّ لأنظر إلى الوراء .

طلبت فقط من برتران أن يعطيني عنوان زوجتي وكتبت لها. أمضيت نهاراً كاملاً لأكتب لها ، وأخبرها بكل ما جرى ، وكيف عشت طوال هذه السنين ، وعانيت من الضياع ، ونهضت من كبوتي بفضل ناديا .

ثم طلبت منها موعداً .

لا ، لم تردَّ على رسالتي ، فأنا لم أترك عنواناً للمراسلة .

كان بوسعي الاتصال بها هاتفياً ، ولكنني آثرت ألا أفعل ، فسوف أتأثر لعدم اعتيادي التحدث هاتفياً ، وبعد كل ما قيل لها عن حالتي العقلية ، فقد لا تفهم سبب تأثري ...

لم أشأ أيضاً أن تتسرع في الجواب ، فلم أكن متأكداً من قدرتي على مواجهتها وسماع جوابها ، إيجابياً كان أم سلبياً .

أعطيتها موعداً قريباً ، وتركت لها الوقت الكافي للقدوم... في حال قرَّرت المجيء .

تساءلت أي يوم أختار وأي مكان ، ثم فرض الحل نفسه عليَّ بصورة بديهية ، أن أستعيد بكل بساطة موعدنا الأول في ٢٠ حزيران ، الساعة الثانية عشرة ظهراً ، على " رصيف الساعة " بين البرجين الصغيرين . نعم ، ٢٠ حزيران ، أي يوم غد .

لقد أتت إلى الموعد السابق ، فلماذا لا تأتي الآن ؟ ألا توافقني الرأي؟

يوم الأحد

افترقنا عند بزوغ الفجر ، وتصافحنا بحرارة وامتنان دون أن نتفق على اللقاء مجدداً ، ودون أن يسألني السؤال الذي كنت أتوقعه : ماذا أنوي القيام بهذه الملاحظات التي جمعتها في ست مفكِّرات ، ودونتها تدويناً عجولاً ؟ كنت أجبته أنني لا أعرف بعد ، فكيف لي أن أفطن أن قصته سترقد عشرين عاماً في أحد ملفاتي ؟ لم يسأل وأعتقد أنه اعتاد أن ينثر حياته على طريقه دون أن يتوقف أبداً للملمة أجزائها.

هل لاحظ أنني رمقته بنظرة أخيرة مليئة بالقلق ؟ هل شكَّ بما أخطط ؟ أعتقد أنه كان كثير التفكير بموعده ليعيرني أهمية إضافية . فقد صادفني على طريقه في يوم كانت ساعاته تمضي متثاقلة ، وقد ملأت فراغاً ، وربما أشبعت رغبته الدفينة بتدوين حياته على الورق . أما الآن فكان يريدني أن أفارقه ، وغادرت غرفته في الفندق .

لم أكن فخوراً ولا خجلاً مما كنت أستعد للقيام به ، فيجب أن أقوم به وكفى . وقبل الساعة الثانية عشرة ظهراً ببضع دقائق ، ذهبت إلى موعده . لا أقصد أنني ذهبت إلى "رصيف الساعة "، بل جلست قبالته على الضفة الأخرى من نهر السين ، في الطابق الأول لأحد المقاهي . كيف أتصرف عكس ذلك ؟ كان تصرفي الخاتمة الحتمية للأيام السابقة . كنت حريصاً على التأكد من وجود هذه المرأة ، ورؤيتها ، والتحقق من مجيئها إلى الموعد ، والمنحى الذي سيأخذه لقاؤهما بعد ثمانية وعشرين عاماً .

هل قلت إنني لم أكن فخوراً ولا خجلاً ؟ بلى ، شعرت بالخجل من شيء واحد على الأقل ، فقد جلبت منظاراً لأتمكن من رؤيتهما . لا أعرف ما يقوله المرشدون السياحيون عن مساحة هذا

النهر في ذلك الموقع بالذات ، ولكنني غالباً ما تنزهت على ضفتيه، واعرف أن الرؤية ليست سهلة من ضفة إلى أخرى ؛ فمن السهل التعرف إلى رجل يذرع المكان إذا كنا نعرف بأنه سيكون موجوداً هناك ، وتعرفنا على شكله ورأسه الأشيب وعنقه المائل . أما مراقبة وجهه وعينيه القلقتين ومعصمه الذي يتحرك باستمرار والاكتشاف بأنه يحمل في يده ما يشبه باقة من الزنبق الذي تفتّح متأخراً ...

كانت ساعتي تشير إلى الساعة الثانية عشرة تماماً ، وقد اعتراني القلق ، فليتها تأتي ، فتبدأ من جديد حياة توقفت . لقد مضت سنوات عديدة ، ولكن الزمن مجرد وهم وسراب ، وللماضي، بساعاته وأيامه وأسابيعه وعقوده، سماكة الرماد نفسها؛ والزمن العتيد، وإن استمرَّ إلى الأبد ، يعاش ثانيةً تلو أخرى . ليت كلارا تأتي ، فتمضي قصتهما، بعد أن واجهت حجر عثرة ، في سبيلها من جديد .

وهب أنها لن تأتي ؟ كانت هذه الفرضية هي التي تقلقني . فعصيان يعيش على أمل هذا اللقاء، فهل تساءل ماذا يفعل إذا تخلّفت عن الموعد ؟

بدأت أشك بالدوافع الحقيقية التي حملته على اختيار مكان اللقاء . هذا الرصيف والجسر القريب والنهر الذي شهد على مدى قرون الكثير من العهود اليائسة ...

كانت ساعتي تشير إلى الثانية عشرة وثلاث دقائق . كلما رفعت منظاري لأراقب عبر النافذة ، يتبادل الشاب والفتاة الذي

يجلسان إلى الطاولة المجاورة همسات مستهجنة . لا أعرف ماذا خطر ببالهما، وفي كل الأحوال ، ما أفعله ليس من شأنهما ، ولكن وجودهما يشعرني بالضيق . هناك ، على الضفة الأخرى ، بدأ الرجل الذي أراقب يتوتّر ، كما تراءى لي، فقد دار حول نفسه ثلاث مرات، ونظر إلى النهر حيث كانت تمر باخرة راح بعض السياح على متنها يلوّحون بأيديهم ، ربما يلوّحون له ، وهو لا يجيب على تحيتهم ويدير ظهره . لا أرى وجهه ، وتبدو كتفاه متهالكتين .

تركت على الطاولة ثمن القهوة وانصرفت ، بخطى حثيثة. قد لا يسرُّ لرؤيتي ، ويتخلى عن لباقته ليطلب مني الاهتمام بشؤوني...ولكنني في هذه المدينة ، وحتى إشعار آخر ، صديقه الوحيد أو ، على الأقل ، الشخص الوحيد الذي يكترث لمصيره .

وإذ سلكت جسر " بون أو شانج " ، لمحته لا يحرك ساكناً، ونظرت إلى ساعتي .كانت الثانية عشرة وعشر دقائق ، وحثثت الخطى .

وإذ وصلت إلى منتصف الجسر ، توقفت وحبست أنفاسي. وقفت أمامه امرأة ، رقيقة المظهر ، قد غزا شعرها المشيب ، تلبس ثوباً محتشماً ، ولكن وجهها يضحك وقد أغمضت عينيها . لم يرها فقد كان لا يزال محنيَّ الرأس ، وقد اتكأ على الإفريز . اقتربت وهمست بضع كلمات على ما أظن لأن عصيان رفع رأسه، وارتفعت ذراعاه أيضاً ، ببطء كجناحي عصفور لم يحلّق منذ فترة طويلة .

التصق الواحد بالآخر وتعانقا ، وراحا يهدهدان رأسيهما بتناغم ، كما لو أرادا تحدي القدر الذي فرّق شملهما .

كان الواحد منهما يمسك بيد الآخر بعناد ، وأعتقد أنهما لم يتبادلا الكلام بعد ، بل كانا ينتحبان . وشعرت بشفتيَّ ترتعشان بدورهما .

ثم انفصلا قليلاً الواحد عن الآخر دون أن يتحررا من عناقهما . وبقيت أيديهما متشابكة ، ولكنهما كفا عن الابتسام . انطلقت كلارا ، على ما يبدو ، في شرح مسهب ، وعصيان يصغي إليها ، مائلاً إلى الأمام ، وقد شقَّ فمه قليلاً . عما كانت تتحدث ؟ ربما تخبره كيف عاشت هذه السنوات بدونه ، أو تحدثه عن المستقبل ، مستقبلهما معاً ، أو تشرح له ، بكثير من الرفق ، لماذا لا يزال حبهما مستحيلاً .

هل يمضيان وقد أمسك الواحد بيد الآخر ، أو يمضي كلٌّ في سبيله ؟ كم أوَدُّ البقاء ومعرفة ما سيحدث. ولكن لا ، هذا يكفي، ويجب أن أنسحب . توقف العديد من المارة وراحوا يراقبونهما بحنان وفضول ، ولكنني لا أستطيع أن أراقبهما بالطريقة نفسها ، فأنا لست مجرَّد عابر سبيل .

كتب للمؤلف مترجمة الى اللغة العربية اصدرتها دار الفارابي

الحروب الصليبية كما رآها العرب	ترجمة: عفيف دمشقية
ليون الافريقي	ترجمة: عفيف دمشقية
سمرقند(جائزة غونكور للصحافة)	ترجمة: عفيف دمشقية
حدائق النور	ترجمة: عفيف دمشقية
القرن الاول بعد بياتريس	ترجمة: نهلة بيضون

«مـوانـىء المشـــرق» هوالإسم الذي كـان يطلـق على تلك المجـــمـــوعـــة من المدن التـــجـــارية التي كـــان المســـافـــرون الأوروبيـون يعبـرونها إلى الشـرق، من القـسطنطينيـة إلى الإسكندرية، مـروراً بإزمـير وأضنة أو بـيروت. وكـانت هذه المدن بوتقـــة تنصـهـر فـيـهـا اللغـات والعـادات والمعـتقـدات، وعـوالم هشـة بناها التاريـخ متمـهّلاً قبل الإطاحـة بها وتحطيم حياة الكثيرين.

و«عصـيان»، بطل هذه الروايـة، هو أحد هؤلاء الأشخاص الذين عصفت بهم رياح الأقدار، فحياته لم تكـن أكثر من قشة في مـهب الريح، وسط احـتـضـار السلطنة العثمانيـة، والحربين العالميتين والمآسي التي لا تزال حتى اليـوم تعصف بالشرق الأدنى. وهو يستـحضر ذكرياته بصـبر وأناة، ويـتـــحـــدث عن طفـــولتـــه الأرستقراطية، وجدته المعتوهة، ووالده المتمـرِّد، وشقـيقه السـافل، وإقامـته في فـرنسا تحـت الإحتـلال النازي، ولقـائه بكلارا، الحبيبة العابرة، ولحظات الهيام والبـطولات والأحكام، ثـم رحلتـــه إلى أعماق الجحيم.

مـاذا بقي له بعـد أن سُـلب مـسـتـقـبله وكـرامتـه وحُرم أبسط الأفـراح؟ لم يبق سـوى حب ينـتظر، حب هادىء ولـكنه قوي، وربما أقوى من التاريخ.